الدكتور محمد ابن شريفة

البسطي

آخر شعراء الأندلس

دار الغرب الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

البسيطي

آخر شعراء الأندلس

الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر

البسطي

آخر شعراء الأندلس

تأليف
الدكتور محمد ابن شريفة

دار الغرب الإسلامي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
1985

دار الغرب الإسلامي
ص. ب: ٥٧٨٧/١١٣
بيروت - لبنان

تقديم

هذه قراءة عامة في ديوان مخطوط لشاعر أندلسي مغمور، لا ذكرَ له ولا لشعره في المصادر المعروفة، ولولا ظهور نسخة وحيدة من ديوانه في السنين الأخيرة ما وقف له على عين ولا أثر. إنه البسطي آخر شعراء الأندلس.

ويمكن أن نجمل قيمة ديوان البسطي فيما يلي:

أولاً: أنه مصدر وحيد في التعريف بصاحبه الذي نسيته كتب التراجم وأغفل ذكره أصحاب المعاجم، ومن حسن الحظ أن شعر البسطي شديد الارتباط بشخصيته، قوي الاتصال بحياته.

ثانياً: أنه وثيقة تاريخية فريدة تكشف عن جوانب مجهولة من أواخر أيام المسلمين في الأندلس.

ثالثاً: أنه وثيقة أدبية تامة ونادرة تصور مستوى بلاغة أهل الأندلس قبيل ضياع الفردوس المفقود.

وقد قمنا في قراءتنا للديوان بتصنيف مضامينه وتنسيق محتوياته وتوثيق معلوماته ثم وظّفنا ذلك كله في صياغة الفصول الآتية، وحرصنا على سرد الشواهد الكافية من شعر الشاعر لأنه مخطوط وغير معروف، وتعمدنا الاختصار في الشرح والتعليق والاقتصار على ما لا بدّ منه في

العرض والتحليل لأن هذا العمل إنما هو مقدمة بين يدي الديوان المحَقّق الذي سيظهر قريباً بإذن الله.

وقد أحلنا في كل شاهد من شعر الشاعر على صفحات ديوانه المخطوط وجعلنا أرقام الصفحات بين ( ) أما الحواشي والتعليقات فتوجد في آخر كل فصل، واجتهدنا في تصحيح أخطاء نسخة الديوان المخطوطة وتكميل ما يوجد بها من نقص.

ولا بدّ لنا في هذا التقديم من التنويه بعون صديقنا العزيز الأستاذ الدكتور إحسان عباس، فإن فضله في ظهور هذا الكتاب عظيم، كما نسجل هنا أن الفضل في اكتشاف ديوان البسطي يرجع إلى الأستاذ الجليل محمد إبراهيم الكتاني، ونشكر كذلك صديقنا الكبير الأستاذ عبد الرحمن الفاسي على مساعدته لنا في الحصول على صورة لمخطوط الديوان، والشكر في الأخير لدار الغرب الإسلامي والجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر على قيامها بطبع هذا الكتاب ونشره، والله سبحانه ولي التوفيق.

د. محمد ابن شريفة

الفصل الأوّل

مَن هُو البسطي

يعتبر القرن التاسع الهجري في الأندلس قرناً غامضاً ومظلماً، فالمصادر التاريخية العربية فيه قليلة، والروايات الإسلامية الموجودة حوله شحيحة، ولعلّ من أسباب هذا انشغال أهل التدوين والتقييد بالفتن، وارتباكهم في تلك السنين الصعبة، ثمّ ضياع الوثائق والمدوّنات في غمرة سقوط غرناطة وسواها.

ومن هنا ظلت الروايات المسيحية مرجع الدارسين لحقبة مملكة غرناطة الأخيرة، ولا سيما الثلثين الأولين من القرن التاسع الهجري أما السنوات الأخيرة من هذا القرن فنجد بعض أخبارها في الكتاب الذي نشر عدّة مرات من قبل موللر وشكيب أرسلان ثم البستاني وكذلك في أزهار الرياض ونفح الطيب.

وربّما يتبدد بعض هذا الظلام ويتكشف شيء من ذلك الغموض حين تدرس النصوص القليلة التي انتهت إلينا لحسن الحظ من هذا العصر. وهي نصوص مختلفة في طبيعتها، متفاوتة في قيمتها، ولكن فائدتها غير خافية في

الكشف عن الأحوال السياسية والثقافية والاجتماعية لهذا القرن.

وقد نشر بعض هذه النصوص في السنين الأخيرة مثل: ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث، ورحلة القلْصادي، وبرنامج المُجاري، ووثائق عربية غرناطية، وثبت الوادي آشي وما نُشر من رحلة عبد الباسط المصري والوثائق والرسائل التي نشرت من قبل أستاذنا الأهواني والدكتور أحمد دراج والفقيد سيكو دي لوثينا وغيرهم.

وقد يُنشر قريباً «جُنّة الرضى، في التسليم لما قدر الله وقضى» لأبي يحيى ابن عاصم، و«مظهر النور الباصر، في أمداح الملك الناصر» لابن فركون وديوان القيسي البسطي، وهو الذي نقدّم قراءة مستوعبة له في الفصول التالية.

لقَدْ وُجد هذا الديوان ضمن مجموع في خزانة تامكروت ونقل مع ما نقل منها إلى الخزانة العامة في الرباط حيث سجل تحت رقم 198ق ويبدو أن ناسخه هو ناسخ الإكليل للنباهي الذي يشتمل عليه هذا المجموع واسم هذا الناسخ محمد بن أحمد بن منصور، وتاريخ النسخ المثبت في آخر الإكليل هو الثامن والعشرون من ذي القعدة عام اثنين وألف.

وتجدر الإشارة أولاً إلى أنه لا ذكر لهذا الديوان ولا ترجمة لصاحبه في المظان التي رجعنا إليها؛ كما أذكر من جهة ثانية أن الزميل الصديق الدكتور محمود مكي نشر منذ سنوات بمجلة العربي الكويتية (عدد 107) مقالة عنوانها: «عبد الكريم بن محمد القيسي الغرناطي» فله فضل الريادة في التعريف بهذا الشاعر، وإن كنت أستغرب نسبته إياه إلى غرناطة، إذ ليس في ديوانه كله ما يشير إلى أنه أقام بغرناطة.

يبدأ الديوان بعد البسملة والتصلية هكذا: «يقول عبيد الله سبحانه، المرتجي عفوه وإحسانه وغفرانه، [ ] عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القيسي أفاض الله عليه إنعامه وإحسانه».

وفي هذه المخطوطة الفريدة من هذا الديوان بياضات متعدّدة، وأولها هذا البياض الذي نجده قبل ذكر اسم الشاعر، وهو يجعلنا نتساءل عن معناه، ونتشكك في اسم الشاعر، ونضع في الحسبان احتمال ضياع جزء منه أو تعذّر قراءته في النسخة التي نقل منها هذا الناسخ.

وقد يكون لهذا التشكك في اسم الشاعر معنى إذا نظرنا إلى ما يـلي:

1 ـ وجدنا القلصادي في رحلته يتحدث عن أودّائه وأصحابه في مدينة بسطة فيذكر منهم الفقيه النبيه الخطيب أبا عبدالله محمد بن عبد الكريم[2] ونستفيد من الديوان أن الشاعر كان فقيهاً خطيباً في بسطة.

2 ـ وقفنا في آخر الجزء التاسع من مخطوطة كتاب البيان والتحصيل لابن رشد الجد المحفوظة في القرويين على ما يلي:

«انتهى الجزء التاسع من جامع كتاب البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل، وبانتهائه كمل جميع كتاب البيان المذكور وحصل لدى مقيد هذا بخط يده الفانية محمد بن عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القيسي كان الله له، وأصلح قوله وعمله، وذلك في غرة رجب الفرد المبارك عام تسعة وخمسين وثمانمائة بمدينـة بسطة كـلأها الله تعالى»[3].

ونحن نعرف من الديوان أيضاً أن الشاعر كان له حانوتٌ في بسطة يشتغل فيه بالنسخ والتقييد والفتوى والتوثيق والإقراء والتعليم، قال من قصيدة طويلة عند إحراق حانوته ظلماً وعدواناً (146):

فإحراقُ حانوتي ـ لتنحطَّ رُتبتي ـ
يعودُ عليهم بانعكـاس المؤمَّل
فقد كانَ للأحكام مجلسَها الّذي
تُصانُ بهِ منْ مُفسـدٍ أوْ مُبدِّل

وكـان لتَقْييد العُلُوم وضبـطِهـا
وعَقْد شروط القوم أقْنَأ منْـزل
وشتّى فنون العلم ـ مُذْ كانَ ـ لم تزل
مُـرَدّدةً منـهُ بـأشـرفِ محْفِـل

كما نعرف من الديوان أيضاً أن الشاعر البسطي كان صديقاً للقلصادي المشهور المذكور آنفاً فقد كتب الأول إلى الثاني بهذين البيتين (82):

قَلْبي إليكَ لفَقْدِ أُنْسِكَ سَيّدي
بـالبُعْد عَنْـكَ ذو غَليلٍ صـاد
وعليكَ إطْفاءُ الغليـل وبَرْحـه
بالكَتْبِ إثر الكَتْبِ بـالقَلْصادي

وكتب إليه مرة ثانية يشكره على إعارته كتاب بهرام في الفقه قال (82):

جَزاكُمُ اللّهُ خيراً عن أخي ثقة
جُـدتُمْ عليه وأنْعَمْتُم ببهْرام(م3)
وكان إكْرامُه في ذاك مُتّضِحاً
لا زلتمُ الدّهرَ في بـرٍ وإكْرام

وكتب إليه مرة ثالثة ـ فيما يبدو ـ مهنّئاً بالورود من الحج (105):

رَعَيْتُ لخِلٍّ حلّ بالقلب ثاوياً
ـ على البُعْدِ ـ وُدّاً مَحْضَه لم أَزلْ أرْعَى
رَأى الحجَّ مَسْعىً للثواب فأَمَّهُ
وعاد لنا من حَجِّه يحْمِلُ المَسْعَى
ودانَ بجمْعِ العلْمِ حِلاًّ ورِحلة
ويا سَعدَ من للعلم يوماً رأى جَمْعا

هنيئاً له الفعل الصحيح الذي اقْتَضَى
ـ بلا مانع ـ جَزْماً له النصبَ والرَّفْعا
وبالْحَلِّ في أسْنى المواطنِ آيباً
هنائي مَدَى الأيّام أَشْفَعُه شَفْعا[4]

وشكره على «هدية السرور» من الحج فقال (121):

وَصَلَ «الْجاوِي» الّـذي وجَّهْتُمُ
صُحْبَةَ الكُحْلِ الشريفِ والإِبَرْ
فَلِسـاني قـاصـرٌ عن شُكْـرِكُمْ
سَيّدي يا مُنْتَهى الْفِعْـلِ الأبَرّ

نَخْلصُ من هذا إلى أنّ الفقيه النّبيه الخطيب أبا عبدالله محمد بن عبد الكريم الذي لقيه القَلْصادي بعد رجوعه من الحج في بسطة سنة 855هـ. هو محمد بن عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القيسي البسطي ناسخ البيان والتحصيل سنة 859هـ. ولهذا الاسم ـ كما هو واضح ـ صلة وثيقة باسم شاعرنا الذي ورد أول مقدمة الديوان بعد بياض هكذا: «[ ] عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القيسي». وكان يقـول الشعر في التاريخين المذكورين.

فإذا كان ثمة سقط في الاسم حسب البياض الذي أشرنا إليه فإنه يكون هو نفسه المذكور في رحلة القلصـادي وفي آخـر مخـطوط البيـان والتحصيل، وإذا لم يكن سقط في الاسم فإن الشاعر قد يكون ولـد الفقيه الناسخ المذكور.

ونحن نجد هذا الشـاعرِ البسـطي يخاطب والـده بقصيدتين وجّـه إحداهما له من مدينة برجة التي بدأ عَمَلَهُ فيها إماماً بمسجدها لقاء أجر معلوم، والثـانية بعث بهـا إليـه حينـما كـان أسيـراً في أُبّـذة، وفي كلتـا القصيدتين لا يسميه ولا يحليه، ولا يشير بشيء يدل عليه، ولكنه يخاطبه

بكل إعزاز وإجلال، مع حب وشوق شديدين، فقد افتتح القصيدة الأولى بقوله (45 - 46):

لِبُعـدِكَ يا مَـوْلايَ طارَ منـامي
وصارَ فُؤادي ذا هوىً وهُيـامِ
وجالَ بقَلْبي من جَوى الْوَجْد جائلٌ
أطــالَ قُعـودي تــارةً وقيـامي

ويخْتَتِمُها بما قد يدل على أَنَّهُ كان من أهل الأدب والعلم فيقول:

ودونكَ يا مـولايَ مِنّي قصيدةً
بَهَرْتُ بها في النَظْمِ كلَّ هُمامِ
أتيتـكَ فيها مِنْ شؤوني بنُبْـذة
وأرسلتُهــا مختـومــةً بسـلَامِ

وأما القصيدةُ الثانية فهي طافحة بالشوق والحنين وقد وطّأ لها بقوله: «وقلت مخاطباً والدي أمتع الله ببقائه» (39):

يا ناظرَ الطَّرْفِ بَلْ يا قِطْعة الكبِدِ
ومَوْضعَ الحبّ في قُربي وفي بُعُدي
ومَنْ هواهُ لَدَى القلب المَشوق غدا
في كلّ آونةٍ كالرّوحِ منْ جَسَدِي
لوْلَا اشْتِياقي إلى أنوارِ غُرّتكم
ما كنتُ أشكو عَنَا أسْري إلى أَحَدِ

إلى أن يقول:

وأنتَ يا والِدي إن غبتَ عنْ بَصَري
فلَمْ تَغِبْ لحظةً واللَّهِ عَنْ خَلَدي

إنّي لأَذْكُـرَكُمْ حتّى لأَذْكُرُ مـا
نادَيتُمُوني بهِ منْ لَفظِ: يا وَلَدي
فأَنْطوي منْ حنيني عِنْدَ ذِكْرِكُمُ
وفَرْطِ شَوْقي إلَى لُقْياكَ فَوْقَ يَدي

كما ذكره في أول قصيدة في الديوان نظمها في مدح الرسول وهو في الأسر مُتوسِّلاً إلى الله بجاهه كي يمحو أوزاره:

ويُجمِّع الشَّمْلَ الشَّتيتَ بـوالدٍ
أَضْحَتْ ضُلُوعي مِنْ نَواهُ حِرارا

وسيَبقى اسم هذا الشاعر واسم والده محلَّ نظر إلى أن نظفر بما يحسم الأمر فيه كالعثور على نسخة أخرى من هذا الديوان أو الوقوف على ترجمة صاحبه أو أي إشارة إليه، ولو وصل إلينا كتاب الروض الأريض لأبي يحيى ابن عاصم لعرفنا شيئاً عن هذا القيسي البسطي، وتأكدنا من اسمه لأن الكتاب المذكور يتضمن مختارات من شعره كما سنشير إلى ذلك فيما بعد. وَلَيْسَ أمامنا الآن إلاّ أن نقبل مبدئياً اسمه كما ورد في فاتحة الديوان، وهو عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القيسي وسنفترض أنه ولد الفقيه محمد بن عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القيسي ـ مع ملاحظة التقليد الأندلسي المغربي القديم في تسمية الحفيد باسم الجد في الغالب كما نجد في سلسلة ابن رشد وابن زهر على سبيل المثال ـ.

وعلى هذا فإنّ الشاعر من أسرة قيسية بسطية، كان والده ـ حسب افتراضنا ـ من أهل العلم وذوي المكانة في مدينة بسطة إذ كان فقيهاً نبيهاً وخطيباً دينياً جليلاً وقد يدلّ انتساخه كتاب البيان والتحصيل لنفسه ـ وهو من مطولات الفقه المالكي بالأندلس ـ على مدى ثقافته الفقهية؛ ويبدو أن أفراد الأسرة القيسية في بسطة كانوا على العموم من المشتغلين بالفقه والتوثيق والعدالة.

وممن نعرف منهم في هذه الحقبة أبو عبدالله محمد بن أحمد القيسي البسطي[4]، وأبو عبدالله محمد بن علي القيسي البسطي[5]، وكانا من عدول مدينة بسطة، فقد وقفنا في وثائق عربية غرناطية ـ التي عني بجمعها وتحقيقها فقيد البحث لويس سيكو دي لوثينا ـ على وثيقة شهد فيها الأول بتاريخ (842 هـ ـ 1439 م) وأخرى فيها شهادة الثاني بتاريخ (835 هـ ـ 1432 م) كما تجدر الإشارة إلى أشهر أسرتين قيسيتين في هذا العصر الغرناطي، وهما أسرة ابن عاصم القيسية في غرناطة، وأسرة ابن منظور الاشبيلية التي لجأت إلى مالقة، واستمر أعلامها يتولون القضاء في مالقة وغيرها حتى نهاية مملكة غرناطة.

ومن القيسيين المشهورين في هذا العصر أيضاً أبو عبدالله محمد بن عبد الملك القيسي المنتوري صاحب البرنامج المشهور، وثمة قيسيون آخرون كانوا في المرية، وقد ترجم لعدد منهم ابن خاتمة في مزية المرية[6].

لا نعرف طبعاً متى ولد شاعرنا البسطي ولكنّنا نَفْهم من ديوانه أيضاً أنه كان من رفقاء الدراسة لبعض الأعلام مثل القلصادي وأبي عبد الله محمد بن مالك الأُلْيُري وأبي عبد الله بن الأزرق الوادي آشي، واشترك مع أبي يحيى ابن عاصم في الأخذ عن الشيخ أبي عبد الله البياني، ومن أقرانِهِ أيضاً فيما يبدو أبو عمرو ابن منظور، وبعض هؤلاء الأعلام عاشوا حتى العقد الأخير من القرن التاسع الهجري.

ومن معاصريه الذين خاطبهم بشعره أبو الحسن علي ابن داوود البَلَوي الواد آشي المتوفى سنة 898هـ وأبو حامد ابن الحسن النباهي وولده أبو جعفر أحمد والوزير أبو إسحاق إبراهيم ابن عبد البر وأبو جعفر أحمد ابن القصار الذي كان حيّاً سنة 855هـ وأبو الحسن علي بن عتيق ابن العز، ـ وهو من شيوخ صديقه القاضي أبي عمرو ابن منظور ـ، والقاضي الجعدالّه وغيرهم ممن سنفصّل الكلام عليهم فيما بعد.

كما نعرف من ديوان الشاعر أنّه كان يقول الشعر في سنة 836هـ.

ونستطيع أن نقدّر ولادته بناء على ما سبق في العقد الثاني من القرن التاسع الهجري، والظاهر أن ولادته كانت بمدينة بسطة، وفيها أيضاً نشأته ودراسته، وفيها قضى معظم حياته؛ وسنرى كيف أن شعره يردّد أصداء الحياة اليومية في هذه المدينة، بالإضافة إلى أنّ هذا الشعرَ في جملته يُعتبر مرآة لعدد من جوانب الحياة الأندلسية في عصره.

ومدينة بسطة التي ولد فيها ـ على ما يظهر ـ شاعرنا اشتهرت منذ القديم بطبيعتها الجميلة، وفلاحتها الغنية وصناعتها التقليدية الرفيعة، وأسواقها التجارية؛ وقد أصبحت في عهد الموحدين مقرّ العُمّال على أعمالها. وفي المعجب تسمية لبعضهم[7]، وذكر ابن سعيد منهم شعبان الغزّي الذي يقول فيها:

سَقى اللَّهُ صَوْب الغيث أكنافَ بَسْطَةٍ
ففيها انبساطُ النّفْسِ والعَيْنِ والقَلْبِ[8]

ونبغ فيها أعلام في العلم والأدب منذ القرن الخامس الهجري نجدهم في كتب التراجم[9].

وكانت طبيعتها الجميلة تغري بقول الشعر، قال ابن شفيع أحد شعرائها: «لو طبعت على الزّهد لحَمَلَني حسن بلدي على المجون والعشق والراحات»[10].

وقد ذكرها البكري وبعده الادريسي والحميري ومما قاله هذا الأخير: «وهي متوسطة المقدار حسنة الوضع عامرة آهلة ذات أسوار، وبها تجارات وفَعَلَة بضروب الصناعات... وشجر التوت فيها كثير، وعلى قدر ذلك غلة الحرير، والزيتون وسائر الثمار بها على مثل ذلك من الكثرة وأرضها عذاة كثيرة الريع وبها كانت طُرُز الوطاء البسطي من الديباج الذي لا يُعْلَم له نظير».

ولقد كبرت مدينة بسطة في العصر النصري وكثر عدد سكانها،

وغدت من المدن المهمة في مملكة غرناطة. ونرى ابن الخطيب يطنب في وصف محاسنها في رسالتيه: خطرة الطيف[11]، ومعيار الاختيار[12]. فَمِما قاله في خطرة الطيف:

«وكان ملقى الجران، منابت الزعفران، بسطة حرسها الله وما بسطة، محل خصيب، وبلدة لها من اسمها نصيب، بحر الطعام، وينبوع العيون المتعددة بتعدد أيام العام، ومعدن ما زين للناس حبه من الحرث والأنعام، يا لها من عقيلة، صفحتها صقيلة، وخريدة، محاسنها فريدة».

ثم وصف جمالها وطبيعتها وحصونها وأهلها إلى أن قال: «فلا أقسم بهذا البلد، وحسن منظره الذي يشفي من الكمد، لو نظر الشاعر إلى نوره المتألق، لآثرها بقوله في صفة بلاد جلق:

بلادٌ بِها الحَصْباءُ درٌّ وتُرْبُها
عَبيرٌ وأنفاسُ الرياحِ شَمولُ
تسلسل منها ماؤها وهو مُطْلَقٌ
وصحّ نسيم الروضِ وهْوَ عليلُ

رمت إلى غرض الفخر بالسهم المصيب، وأخذت من أقسام الفضل بأوفى نصيب، وكفاها بمسجد الجنة دليلاً على البركة وبباب المسك عنواناً على الطيب».

وممّا قاله في معيار الاختيار: «وناهيك من بلدٍ اختص أهله بالمران، في معالجة الزعفران، وامتازوا به عن غيرهم من الجيران، عمّت أرضَها السقيا فلا تخلف، وشملتها البركة تختصّ من يشاء الله ويزلف، يتخلّل مدينتها الجدول المتدافع، والناقع للعلل النافع، ثياب أهلها بالعبير تتأرّج، وحورها تتجلّى وتتبرّج، وولدانها في شط أنهارها المتعدّدة تتفرّج، ولها الفحص الذي يسافر فيه الطرْفُ سعيا، ولا تعْدمُ السائمة بـه ريا ولا رعيا». ووصفها ابنها القلصادي في رحلته فقال: «دار تخجل منهـا الدور، وتتقـاصر عنهـا

القصور، وتقرّ لها بالقصور، مع ما حوته من المحاسن والفضائل، من صحّة أجسام أهلها وما طبعوا عليه من كريم الشمائل، لهوائها الصحيح، وفضائها الفسيح، وحسبك فيها من عدم الحرج، أن داخلها باب الفرج».

ولشاعرنا القيسي شعر كثير في وصف طبيعتها الخلابة، ومتنزهاتها الجميلة، وفواكهها المتعددة، فمن ذلك قوله في الحنين إليها حينما كان في الأسر (40):

وَدَعِ الحَنينَ لِبَسْطَةٍ ورُبوعِها
إنّ الحنينَ يَهيجُ منكَ غَليلا
واتركْ حديثَ «جنانِ رومة»[14] جُمْلةً
وجنانَ «عيْن قنولشٍ»[15] تفصيلا
و«المنْية»[16] الغرّاء دَعْ تَخْييلها
إياكَ إيّاكَ احْذَرِ التخْييلا
حيثُ الجداولُ ماؤهَا متفجّرٌ
أضحى الصّغيرُ بها يفوقُ النيلا
حيثُ البطاحُ كأنها صحفٌ بدت
تهفو الجفونُ بحسنها التكحيلا
حيثُ الظّلالُ توارفَتْ وتفيأت
بجوارِها تَهْوَى النفوسُ مَقيلا
حيثُ الترابُ لطيبه ولحُسْنِه
تهوَى الشّفاه تَسُومُه التقبيلا
تلكَ الربوعُ بها الفؤادُ متيَّمٌ
مِمّا يحنّ لها أبَى التَنْقيلا

في الأصل: عما يحن بها أبى التثقيلا.

ومن شعرِهِ في الحنين إليها أيضاً (36):

مـعَ ما أُعـانيه ببُعْـدي دائمـاً
عَنْ بسطَـة المأنـوسةِ الأرجـاء
حيثُ البطاحُ كأنهنّ صحـائفٌ
رُقِمتْ بـإبـريـزٍ من الأضـواء
حيثُ الحدائقُ فُتّحتْ أزهارُها
عن وجْنـة المَعْشوقـة العَـذْراء
حيثُ الطيورُ ترنّمتْ في دَوْحِها
فـأتتْ بمثـلِ تـرنّم الشّعـراء
حيثُ النّسيمُ إذا سَرى مالَتْ بِهِ
طَـرَباً غصـونُ البانـةِ الميْسـاء
حيثُ الجداولُ كالسّيوفِ إذا مضَتْ
مـوصوفـة أبـداً بحُسْنِ صفـاء
حيثُ التـرابُ كأنّـه من لُؤْلُـؤ
مـتنـاثـرٍ أو فِـضّـةٍ بيْـضَـاء

ويقول في فواكه جناتها (69 - 70):

بالدمنة[17] الغـرّاءِ من بَسْـطةٍ
أدواحُ أعْنـابٍ تـروقُ العيـونْ
تـلوّنتْ فـيهـا عـنـاقـيـدُهـا
وأظهرتْ للحسن شتّى الفُنونْ
قالوا: هي الشّهْدُ لَدَى ذوقِهـا
طيباً، فقلت: الشّهدُ واللّهِ دونْ

وتينُهــا الأيــوبِي[18م] في طيبِــهِ
وحسْنِــه لـيس يُســاويـه تـيـنْ
وخــوخُهــا يـشـبـه مـحـمــرُّهُ
خدودَ حُورٍ فُقْنَ في الحُسْنِ عين
وكـالنّهـودِ المُـدْمجات اغْتَـدَى
اسـفَـرْجـلٌ يحـمِلُه كـل حـينْ
ومـثله فـي الشـكـلِ رمّــانُـهــا
كمثـل إجّـاصٍ بهـا مستبينْ
وكــالنجــوم الــزُّهْـر زَعْــرُورهــا
أو كـالمصابيـح بـأعلى الغصـونْ
من لم يـكنْ فـيهــا لــه جنّــة
فـعــدَّه مـن بســطةٍ يـنـكــرون

وممن أعجب بمدينة بسطة ومدحها صديق شاعرنا ابن الأزرق الأديب الشاعر ـ وهو غير ابن الأزرق صاحب المؤلفات المعروفة كما سنشير إلى ذلك ـ.

هذه هي بسطة موطن الشاعر القيسي ومربع صباه ومثواه. أما حياته فسنَعْتَمِد في تصويرها على ديوانه، وسنحاول استخلاصها من شعره.

وكعدد من الأعلام لا نجد تسجيلاً لطفولته ما عدا إشارة إلى أيام الدراسة نجدها في قصيدة يخاطب بها رفيق الطلب وصديق العمر أبا عبد الله محمد بن مالك الأُلْيُرى، قال يذكر هذه الأيام ويتحسر على ذهابها ويتمنى رجوعها (38):

لِـلَّهِ أيــامٌ مـضَــتْ بـجِــوارِه
في خَفْض عيشٍ رائقِ الجِلْباب

نَجْني من العلْم النّفيس نفيسَهُ
ومنَ السُّرور وصال عَذْرا كَعاب
مـا كانت آلاّ مثْـل طيفٍ زائرٍ
لِـمُتَـيّمٍ نـاءٍ عـن الأَحْبَـاب
مرّت وفي الأحشاءِ من تَخْييلِها
لَفحـاتُ نارٍ أُضْـرِمَتْ لِعـذاب
لَهْفي عَلَيْها لهفَ صبٍّ موجَعٍ
لِفـراقِ إلف أو لفقْـدِ شبـاب

ويقول من قصيدة أخرى مخاطباً صديقاً آخر من زملاء الدراسة هو أبو عبد الله ابن رجاء(35):

فهَل آنتَ مِثْلي في الإخاء وَرَعْيِهِ
أَمْ للْبعـادِ نسيتَ رَعْيَ إخائي
وغَفلتَ عن عهد التأنّس دائماً
حتّى لـدى الإصْباح والإمْسـاءِ
في مَنْزِلٍ حَيّاهُ مُنْسَجِمُ الحيَا
وسَقَاهُ صَوْبَ الدّيمة الـوطفاءِ
لم نَتّخِـذْ فيـه جليسـاً مؤنسـاً
غيـرَ العلوم وسيـرةِ العُلمـاءِ
فلكمْ فـوائدَ عنـدَ ذَلِكَ نِلْتُهـا
جَلّت لكَثْـرَتِهـا عنِ الإحصـاءِ

أما الشيوخ الذين درس عليهم فلم يذكر منهم إلاّ واحداً هو الشيخ أبو عبد الله محمد البيّاني وقد عرف به تلميذه القلصادي، فذكر أنه حضر عليه عدة كتب في الفقه والعربية وسمى منها رسالة ابن أبي زيد وألفية ابن

مـالك وإيضـاح أبي علي الفارسي وقـال إنـه تـوفي سنـة ستٍّ وسبعين وثمانمائة[18].

ونجد شاعرنا يخاطبهُ بجملة قصائد ومقطعات ولا سيما حين وقع في الأسر، وفي هذه القصائد ما يزيدنا معرفة بهذا الشيخ الذي كان من شيوخ العصر وتوشك بعض هذه القصائد أن تكون ترجمة لهذا الشيـخ، ففي القصيدة التي أولها (16):

سَلُوا مَنْ بِهَا أسْلُو لِمَ اختارتِ الصّدّا
وَلَمْ تَرْعَ لي العَهْدَ القديمَ ولا الوُدّا

يعدد فنون العلم التي كان يتقنها هذا الشيخ فيذكر أنـه كان في الحديث كالإمام مسلم، وفي الفقه كالمصري ابن القاسم، وفي التفسير كابن عطية، وفي القراءات كالداني، وفي النحو كسيبويه، وفي العروض كالخليل، وأنه كان عالي الكعب في أصول الفقه وأصول الدين، طائر الصيت في اللغة والطب، مجاوزاً الحد في التاريخ، مسابقاً سواه في علم الحساب والجبر، لا نظير له في التكسير، يهتدى برأيه في علم التعديل، واري الزند في علم المنطق، له بدائع في علم البـديع، وشـوارد في التصوف، إلى إتقانه ما يتعلق بقواعد الأحكام، وصنعة التوثيق.

ومع ما قد يكون في هذا من الإطراء والمبالغة فإننا لا نستبعد مثل هذه المشاركة الواسعة، لأنها من طوابع الثقافة الإسلامية التي ظلت حية ونشيطة في الأندلس حتى في هذه الفترة التي سبقت سقوط غرناطة، فهذه الفترة أنجبت مثل العلامة ابن الأزرق، والحيسوبي الكبير القلصادي، وأبي يحيى ابن عاصم، والأديب الشاعر ابن الأزرق، وقد أطلق على كلٍّ منهُما: ابن الخطيب الثاني.

ويستفاد من قصيدة أخرى للبسطي في مدح شيخه البياني هذا أنه كان عصامياً في تعلُّمه وثقافته فهو يقول (12):

تجـرّدَ غِـرّاً للعلومِ فحــازَهـا
ولم يَفتقرْ في حَوْزِهـا لمُعَلِّمِ
وأدركَهـا وهْيَ البعيدةُ مَـدْرَكـاً
بعقلٍ سليمٍ لم يُعَبْ بِتقَسُّمِ

وذكر في قصيدة أخرى أن البياني هذا ولي القضاء في بسطة على كُرْهٍ منه (18):

فجدّدَ رَسْمَ العدلِ بعدَ دُروسِه
وغادَرَ رَبْع الجَوْرِ للعين مُنْهَدّا
وغلّقَ بابَ الظُّلم مِنْ بَعْدِ فَتْحِه
وفتّح بابَ الحقّ من بعدِ ما انسدّا
وَأيّـدَ مـظلومـاً وهـدّدَ ظـالِمـاً
وأمّن مذعوراً وأعْدى من اسْتَعْدى
وساوَى وُقُوفاً بين خصمٍ وخصمِه
وأدّب مَنْ في مجلس الحُكْم قَدْ لَدّا
وفاقَ شُرَيْحاً في عدالتِـه التي
بإحرازِها كلّ المـظالم قد ردّا

وأنه قامَ مَعَ ذلك بأعباء الخطابة والإمامة والإقراء والتدريس والفتيا. قال:

وكانَ مُجدّاً في القيامِ بحملِها
وصادفَ وقتاً لم يكن يَلْحظ الجِدّا
فَأخّرَ عنهـا لا لنقصٍ وَوَصْمَةٍ
وعُوِّض منهُ مَنْ تَبَدَّى لَهُ ضِدا
فـأُفٍّ لدُنْيـا لم تُوَفِّ حُقـوقَـهُ
وتَبّاً لقومٍ لَمْ يُراعوا له العَهْدا

وقد أشار في قصيدة أخرى إلى أنه لازمه مدة يأخذ عنه (16):

لازمتُــه زمَنــاً أجني فــوائــدَه
مُثـابراً عنـدما أجني ومُخْتلِسـا
والجِدُّ يبعَثُني والجَدّ يُسْعِـدني
مَعَ الشّباب وطَرْفُ الدّهر قَدْ نَعسا
حتّى جرى القدرُ المحتومُ سابقُهُ
فخابَ ظنّي وما أمّلْتُه انعَكَسا

فما هو القدر المحتوم الذي يشير إليه؟

لَعَلّه الأسر الذي امتحن به في مطلع حياته ووصفه في قصائد ومقطعات من شعره، فكيف كان ذلك؟.

يبدو أن شاعرنا بعد أن شدا قدراً صالحاً من العلم اضطُرّ تحت وطأة الحاجة إلى مغادرة بسطة وهو ما يزال في ميعة الشباب أو كما يقول هو مخاطباً والده في قصيدة وجهها إليها من مدينة برجة:

فقد شَيَّبَتْ هذي البُشَرّاتُ[19] مَفْرِقي
وسِنّي كمـا تـدرون سِنُّ غُـلام

وفي هذه القصيدة يعبر عن شوقه لوالده ويذكر أنه ظفر بعمل هو الإمامة في مسجد برجة لقاء أجر سنويّ حدّده في قوله:

بِخَمْسين دِيناراً وَمَا هُـوَ تابـعٌ
لَهـا من فـراشٍ لائقٍ وطَعـام

ويبـدو أنه كان مـرتاحـاً في برجـة مستريحـاً إلى أهلها فهـو يقول (45 - 46):

أَروحُ وأغدو بينَ قومٍ تواطأوا
قـديماً على إكـرامِ كلِّ إمـام

سَرتْ بشَذا إحسانِهِمْ نفحةُ الصّبا
فحطّتْ لشمِّ الطيبِ كـلّ لثام
فطابتْ نفوسٌ طالَما قَدْ تَغيّرتْ
وصحّتْ أنـوفٌ تشتكي بزُكـام
أمثّلُ شَخْصي عندَهم في حديقةٍ
سقاها سحابُ الجَوْدِ صوبَ سِجام
فجادتْ بما تهوَى النفوسُ وتشتهي
فمـا شِئتُـهُ أجنيـهِ دونَ مَـلام
وفي بَرْجةٍ مثوايَ حيث تبسّمتْ
ثغورُ الأقاحي من بكاءِ غَمامِ
وسالَتْ بِسلْسالِ الفراتِ جداولٌ
لـري بـطاحٍ غَضّـةٍ وأكـام
ومالتْ غصونُ الروضِ بعدَ تعانقٍ
كما مالَ سكرانٌ لشُرْب مُـدام
وناحَتْ رِياح الشّحر في كلّ روحةٍ
كما ناحَ في الأدواحِ ورقُ حَمام
أؤُمُّ بهـا في مسجدٍ بجَمَـاعـةٍ
مُقيمينَ للخمسِ الفُروضِ كِرام
بهم تضربُ الأمثالُ في حفظِ دينهمْ
فمـا مثلُهُمْ في مَوْصـلٍ وشآم

وهذا هو نظام الشرط الذي كان معروفاً في الحواضر والبوادي بالأندلس والمغرب ـ وما يزال العمل جارياً به في البادية المغربية ـ حيث يتشارط أهل القرية على أجرة مع طالب حافظ للقرآن عارف بمبادىء الدين

يقرىء صبيان القرية ويؤم بالناس فيها، وتوجد نوازلُ غرناطية متعددة تتحدثُ عن نظام الشرط في هذه الفترة[20].

والشاعر يصرح في هذه القصيدة بأنه خرج مضطراً من بسطة إذ لم يتح له التوظف فيها، قال (46):

ووالله ما صَبْري على البُعْدِ سلوةٌ
وَلَا أنّ جورَ الدّهرِ شدّ زِمامي
ولكنْ قضاءٌ سابقٌ حكمتْ بهِ
مقاديرُ ترمي مَنْ تَشا بسِهام
لها في الوَرَى في كل يومٍ تصرّفٌ
بوضْعِ عِظامٍ أو برَفْعِ لئام
أحلّتْ دَمي بالبُعْد وهو مُحَرَّمٌ
كتحريم قُرْبي وهو غيرُ حَرام
ولولا رجاءُ القربِ ذبتُ تشَوّقاً
إليكم وما أتممتُ شهرَ صيام

والذي يبدو لي أنه خلال تجواله للمشارطة في القرى والمدن الصغيرة بمملكة غرناطة تعرض للأسر في بعض الطرقات ونعرف أنها كانت يومئذ مخوفة، ويفهم من بيت له أنه تجول في أرجاء الأندلس من أجل الدراسة أو العمل، قال يمدح أستاذه البياني (16):.

وَحَقِّ والدِهِ الحبْرِ الإمام وما
حَوَى من العِلْم بالدّرْس الذي دَرَسا
ما أَبْصَرَتْ مُقْلتي شَخْصاً يماثِلُهُ
في بَعْضِ أوصافِهِ مُذْ جُلْتُ أنْدَلُسا

وذهب صديقنا الدكتور محمود مكّي إلى أن الشاعر أسر إثر اشتراكه في الجهاد وانخراطه في صفوف الغزاة المجاهدين، وقد يكون أُسر في

إحدى الغارات على بسطة، لأنَّ الأسارى لم يكونوا يومئذ من المحاربين فقط فإننا نجد من بينهم نساء. (وثائق عربية غرناطية: 107).

ومهما يكن من أمر فنحن نجد الشاعر أسيراً في آبَرَة كما رسمت وضبطت في الديوان مرات متعدّدة، وقد تكون أبذة كما ذهب إلى ذلك الدكتور محمود مكي لبعد الأولى من ديار الإسلام وقرب الثانية منها؛ ولتساوي الكلمتين فإن الميزان الشعري يقبلهما معاً، والأولى تكتب عادة يابرة لا آبرة، ومن ثم فإن آبرة خطأ من الأخطاء الموجودة في هذه النسخة.

ولئن كان اغتراب الشاعر في سبيل البحث عن العمل واشتياقه إلى والده من دواعي نظمه المبكر فإن الأسر فجر قريحته الشعرية إذ أصبح النظم أنيسه في وحدة السجن القاتلة،وسلوته في ظلمته القاتمة، وهكذا أخذ يحبر قصائد إلى والده وأهله (زوجه؟) وشيخه البياني المذكور سابقاً وبعض أصدقائه في بسطة بعد أن كان في أول تعلمه وبعد إلْمامه بالعروض ينظم البيت والبيتين والثلاثة على سبيل الرياضة والتمرين قال (19):

فليسَ نِظامُ الشّعر مِنْ شِيَمي التي
أُجاري بها في النّظْمِ مَنْ يُحسِنُ الطَّرْدا
ولكنّني صَيّرتُه لي مُؤانساً .
بأبّذَةٍ حيثُ اغْتَدَتْ فِرَقُ الأَعْدَا

وهو يخبرنا في هذه القصائد «الأبّذيات» بأطوار أسره وسجنه، فقد وضع أول الأمر في شبه «زنزانة» مقيداً مكبّلاً مهدّداً بوسائل التعذيب (37):

في قعرِ بيتٍ غولُهُ مجموعةٌ
والهامُ فيه قَدْ أجابَ الهاما
ما لي به أنْسٌ سوى تَذْكارِكمْ
ومدامع حُمْر تفيض سِجاما

وبجامعٍ جُمِعَتْ يَدَاي وقُرْمَةٍ
منعتْ قِيَامِي إن أردْتُ قِياما
والشبُّ والإبريق كلٌّ منهما
نصْبَ العيانِ بجانبي قَدْ قاما[21]

ووصف الأشغال الشاقة التي كان يُكلّف بها فقال(35):

فحصلتُ في الأسْرِ الّذي أَدْواؤُه
لرَهينهِ مِنْ أعظم الأدْواء
أَجْني مذلّتَهُ وضيقَ قُيودِه
بعْدَ اجتناءِ العِزّةِ القَعْسَاءِ
ما بَيْنَ قومٍ كافِرينَ تلَوّنوا
في كفرهم كتلَوّنِ الحِرْباءِ
لا يَرْحَمونَ مُوحّداً في أرضِهِمْ
إن جاءَهُمْ يشكو بخَطْب عَناءِ
ما إن أَرَى مِنْهُمْ سِوَى مَنْ قَلْبُهُ
مِنْ قسوةٍ كالصّخْرةِ الصّمّاءِ
أصلُ الصباحِ مَعَ المساءِ لدَيْهِمُ
في الخدْمَةِ المعهودةِ الإعياءِ
وأقومُ مِنْهَا بالذي هو واجبٌ
مِنْ غَيْرِ تفريطٍ ولا اسْتِهْزاءِ
مُتَحرّياً إرْضاءَهُمْ لَوْ أنّهُمْ
يُبْدونَ أنّي جئت بالإرْضاءِ
حتى ضَعُفْتُ ورقّ جِسْمي بينَهُمْ
وتغيّرتْ عن حالِها أَعْضائي

وتقرّحَتْ منّي الجفونُ بدمعِها
وتقطّعَتْ بلهيبها أَحْشائي
ومَن اغتدَى في الأَسْرِ مثلي موثَقاً
فمن الغرائب وصْفُه ببقاء
وأمَرُّ ما ألقاهُ أنّي عاجزٌ
عنْ أنْ أخُصَّ فرائضي بأداء

والخدمة المعهودة الإعياء التي أشار إليها هي التي يصفها في هذه الأبيات (74):

واحسْرتي، بعْدَ اشتغالي بالعُلُو
مِ ودَرْسِها وتلاوةِ القرآن
أمْسي وأصْبحُ خادماً متَصَرّفاً
لعبادَةِ الأصنامِ والأوثان
إن لَمْ أكُنْ بالحَفْرِ مشتغِلاً أكُنْ
بالهَدْمِ مشتغلاً مع البُنْيان
والكنْسُ في يومِ الجلوسِ صِناعتي
والرشُّ يَتْبَعُه مَدى الأَحْيان
وبغَسْلِ أقْذارِ الكلاب تَحرُّفي
في أكْثرَ الأوقات والأزمان
فثيابُهُمْ أدرانُها مَغْسُولةٌ
بيَدِي، وَثَوْبي الدّهرَ بالأدْرانِ
وإذا المنامُ أردتُهُ ألفيتُهُ
لعظِيم خَطْبي طارَ عَنْ أَجْفاني

هذا جزاءُ مخـالفٍ مِثْلي أَبَى
تَقْـوى الإِلَـهِ ودانَ بـالعِصْيـانِ

ويبدو أنه سُلِّم بعد هذا إلى أحد كبراء النصارى، وقد وصف لنا معاملة هذا له فقال (40 - 41):

وصيّرني بالرغم في مِلْك كافرٍ
بـأُبـذةٍ أضحى من العُـظمـاء
يَرَى أَكْلَه الخِنزيرَ أفْضَلَ طُعْمَةٍ
ويجعَلُ شربَ الخَمْرِ أَرْفَع ماء
ويَحْسِبُ عيسى ابن الإِلَه وأمَّه
لـه زوجـةً مـوصـوفـةً ببهـاءِ
ويُنْكِرُ ما في جَنّةِ الخُلْدِ مودَعاً
لأهلِ التّقي مِنْ نعمةٍ وجـزاءِ
ويكفُـرُ جهْـراً بـالنبي محمّـدٍ
وشِـرْعتِـه البيضـاءِ دونَ حَيـاء
ويهـزأُ حتّى إنّـه ليقـولُ لي
بكمْ تَفْتَدِي مِنْ خِدمتي وَوَلائي
فأسكتُ عنْهُ والجوانحُ تَنْطَوي
على أعظم الأشْجانِ والبُرَحاء
فيسـأَلُني حتّى أقـولَ لـهُ بكمْ
تُـريدُ ولا تَسْلُكْ سَبيـلَ جَفاء
فيطلبُ لي ألفاً من الصّفْرِ دائماً
وعشرين عِلْجاً في أقـلِّ فِداءِ
وأُقْسِمُ أنّي لستُ أَمْلِكُ عُشْرَها
وبعْـدَ غِـطائي دائمـاً ووِطـائي

وهو لا يفصح عن سبب أسره وإنما يلمّح إلى ذلك فيقول (14):

ولا ذنبَ لي إلاّ اشتغالي بكُلِّ ما
يُسهّلُ لي سُبْلَ العُلا وتَهمّمي

ويقــول (74):

هذا جزاءُ مخـالفٍ مِثْلي أَبى
تَقْـوى الإلّـه ودانَ بـالعِصْيـانِ

وقد ينسبُ ما حصل له إلى غدر الزمان وريب الدهر فيقول (35):

كشـرَ الزمـانُ بغَدْرِه عنْ نـابِـهِ
كَشْرَ العجوزِ القاعِدِ الشّمـطاءِ
فأحلّ بي منْ خَطْبِهِ ما لَمْ أَخَلْ
أنــي أراه نــازلاً بِـفِــنـائـي

ويقــول (14):

رَماني زَماني منهُ عنْ قوسِ صرفِهِ
بـأُبْـذة بين العــداة بــأَسْهم

وفي هذه القصيدة يشير إلى أنه بيع ـ بعد أسره ـ بيع العبيد:

وبَيْعي كبيعِ العَبدِ بيعَ تزايـدٍ
بـدرهمِ نقدٍ زائـدٍ بعدَ دِرهم

وهو يذكر في بعض شعره أن أسره كان تدراً كتب عليه (3):

يـا موثقـاً بين العِـدى بقيـودِهِ
يَجْني لــديهمْ ذِلّــةً وصَغــارا
حكم الإلّهُ عليهِ بالأسرِ الذي
مـا في عظيم بـلائـه يُتمـارى

اصْبِرْ لحكْمِ اللَّهِ وارضَ بما قَضَى
تكتبْ لـديهِ من الأنـام خِيـارا

وفيها يقول متشفّعاً بجاه النبي:

مـالِي إلَى ربّي سِـواكَ وَسيلةٌ
أرْجـو بهـا أنْ يَمْحُـوَ الأوْزارا
وَيُجَمّعَ الشّمْلَ الشتيتَ بـوالدٍ
أَضْحَتْ ضُلُوعي مِنْ نواه حِرارا

ومن تَوسُّلِه وهو في الأسر قوله (73):

يا مَنْ عَلَيْهِ في السّراحِ أُعَوِّلُ
وإلَـيْـهِ في تَـعْـجِـيـلِهِ أتَـوَسّـلُ
أَنْتَ الْمُؤَمّـلُ للشّـدائِـدِ كُلِّهـا
وَعَلَيْـكَ في تَخْفيفهـا أتَـوَكّـلُ
ولقدْ قَضَيْتَ عَلَيّ بالأَسْرِ الّذي
مـا مِثْلُهُ خطْبٌ عَـظيمٌ مُعْضِلُ
فحَمَلْتُ مِنْ كُرُباتِهِ الكَرْبَ الذي
ما مثلَهُ شَخْصٌ أسيرٌ يَحْمِـلُ
وصَبَرْتُ صَبْرَ مُفَوّضٍ لَكَ أَمْرَهُ
راضٍ بمـا تَقْضِيهِ فيـهِ وَتَقْبلُ
يا رَبِّ فامْنُنْ بالسّراحِ مُعَجِّلاً
فأنا سَراحِي مِنْ جلالكَ أسأَلُ

وقوله (81:

يـا مَـنْ قَضَـى بعَـذَابـي ومِـحْـنـتـي واكْـتِـئـابـي
وخِـدْمَـتـي لأنـاسٍ مِنَ النّصـارَى الكِـلابِ

عليــكَ رَبِّ اعْتِمــادي   في كشف كَرْبي وما بي

وقـوله (36):

وقَضَى عَلَى قَوْمٍ بِنِعْمَةِ رَحْمَةٍ
ولآخَــريـنَ بـنــقْمَــةٍ وَبَــلاء
وأحَلّني مَـعَ مَنْ قَضَى بِبَلائِـهِ
مِنْ خَلْقِـهِ في الرُّتْبَـةِ العَلْيـاء
لِأفوزَ في دار الكَرامَـةِ والْجَزا
بكـرامَةٍ عُـظْمَى وحُسْنِ جَـزاء
هَذا مَعَ الصّبر الّذي أدْعُو بِهِ
مَنْ لَمْ يَزَلْ قِدْماً يُجيبُ دعائي
سُبْحَــانَـهُ سُبْحَــانَــهُ سُبْحَــانَــهُ
عَدَدَ الْحَصا دَأْبـاً وقَطْرِ الْمـاءِ
ما في الوجودِ سِواهُ أرجو فَضْلَهُ
في أنْ يُبَـدّلَ شِـدّتي بـرَخـاءِ
ويَحُلّ قيد الأسر عني عاجِـلاً
مَـعَ مَنْ بـأُبَّــذةٍ من الأسـراء
فَهْوَ المُفرِّجُ للكُروبِ إذا دَهَتْ
وَبِـهِ انْجِـلاءُ نـوائب الأَسْـواءِ

وقد يرى أن ذنوباً ارتكبها كانت من أسباب محنته وأسره وفي ذلك يقول نادماً على ما اقترف وسائلاً العفو والفرج (40):

إذا ضاقَ ذرْعي باحْتِمالِ عَنائي
مَدَدْتُ إلى رَبّي يَدِي بدعائي

فادْعو وأرْجو أنْ يُجيبَ تَكَرُّماَ
وحاشا وكَلاّ أن يخيبَ رَجائي
ففي الذكْرِ نصٌّ بالإجابةِ مفصحٌ
غدا شاهداً من أعدلِ الشُّهداء
فيا ربّ يسّرْ كلّ عُسْرٍ قضَيْتَهُ
علي وفَـرّجْ كُـرْبَتي وَبَـلائي
وجُدْ بِجَميل العَفْوِ عَنّي تَفضّلاً
فَعَفْـوُك يـا ربي أجَـلّ مُنـائي
ولا تَلْتَفِتْ نحوَ الذّنوبِ التي مَضَتْ
فمِنْهَـا بَلاءُ الأَسْـر أَعْظم داء
فَلَمْ آتهـا جـذلانَ يـوم أتيتهـا
وأنتَ بِجَهْـري عالمٌ وَخَفـائي
وَمَا كُنْتُ أرْضاها لنفْسِي سَجِيّةً
أعابُ بِها في بُكْرتي ومَسائي
ولكنّمـا الشيـطانُ غَـرّ بكيْـدِهِ
فواقَعْتُ مِنْها مـا أطالَ بُكـائي

وكان يظن في بعض أوقات أسره أن وثاقه لن يفكَّ عنه وأنه سيظل في الأسر إلى الأبد، ولذلك نجده يتمنى الموت (74):

إن لـم تُيَـسّـرْ سَـراحِـي
يـا رَبّ يَـسِّـرْ مَـمَـاتـي
فـالـمـوتُ عـنـديَ خـيـرٌ
مِـنْ خِـدْمَـتِـي لـلْحَـيَـاةِ

ويقـول (74):

المـوتُ أهونُ من أسـرٍ بأُبّـذةٍ
عندَ الذي ذاقَه فيها منَ النّاسِ
ما ذاكَ إلاّ لما يَلْقى الأسيرُ بها
من الثقافِ العظيم الخطبِ والباسِ

وكانت أيام الأسر بأبذة تمرّ عليه طويلة بطيئة لا يعرف فيها راحة ولا تغمض له عين، (74):

أعـاذكَ اللّهُ من أسـرٍ بـأُبّـذةٍ
فالعينُ في أسرِها لم تكتحِلْ بسِنَهْ
ناهيكَ من بلدٍ يومُ الأسيرِ بِهِ
شهـرٌ وليلتُـهُ معـدودة بسَنَـهْ

وقد بلغه وهو في الأسر أن بعضهم شمت به فقال يخاطبه:

يا شامِتاً بِيَ وهْوَ يُظْهِرُ رَحْمَةً
اصبِرْ فَـدَيْتُـك للزمـانِ قَليـلا
فالدَّهْرُ لا يَبْقى عَلَى حالٍ بَدَتْ
إلاّ ويُعْقبُ بَعْـدَهـا تَحْـويـلا
كَمْ مِنْ أسيـرٍ مـوثَقٍ بقُيـودِهِ
أمْسَى وأصْبَـحَ مُطْلَقـاً مَحْلُولا
ولكم طليقٍ لم يُقَـدَّرْ أسْـرُه
أمسى وأصْبَـحَ مـوثقـاً مَغْلولاً

وكانَ يأنَسُ بما يصله من رسائل شيخه الأستاذ أبي عبد الله البياني الذي كان يحضه على الصبر الجميل، ويسوق فيها الأمثال والمواعظ؛ وفي هذا يقول (19):

كأنْسي بكَتْبٍ جاءَني منك بارعٍ
هَصَرْتُ به للصّبْرِ أَغْصَانَه المُلْدا
كتـابُ هُـدىً حلّيتَـهُ بمَـواعِظٍ
بلاغَتُها أَضْحَتْ عَلَى كَبِدِي بَرْدا
بقيتَ تُسَلّي كـلَّ نَفْس بمِثْلِهِ
وتبذُلُ مِنْ تأنيسِها الوُسْع والجُهْدا

ويــقول (19):

لساني على أَسْري بوُدِّك لافِظُ
وقَلْبي عَلَى بُعْدي لعهدك حافِظُ
وفي كُـلِّ أوقاتي أراكَ تَخَيُّـلاً
كأنّي بعيني نحو وَجْهِكَ لاحِظ
ونصبَ عِياني من كتابِكَ مُرْشِدٌ
يحضّ على الصَّبْرِ الجَميل وواعِظ
كتابٌ يروقُ الطّرْف رائِقُ خَطِّهِ
فيقرأه في الناسِ مَنْ هُو جاحِظ

كما كَان يخفِّفُ عنه في أسره حسناءُ نصرانية تدعى «إلبيرة» وقد تغزّل فيها في بعض قصائده، وإليها يشير في هذين البيتين مورّياً باسمها الذي هو اسم مدينة وباب في غرناطة (74):

شـأني بأبّـذةٍ لا أستـطيـعُ لـهُ
وصفاً يوافي لِساني عنه تعبيرَه
والصبرُ في أسرِها ما كنتُ آلفُهُ
لولا اجتلائيَ فيها حسنَ إلْبِيرة

ومن الغريب أنه في قصائده إلى والده وشيخه البياني وبعض أصدقائه

لم يكن يطلب منهم العمل على افتكاكه من الأسر وإنما كان يشكو حاله ويسألهم الدعاء له، قال يخاطب شيخه البياني (19):

وخُصّني بنصيبٍ مِنْ دُعائِكَ لِي
لعلّ نَحْوي به الأيام تَنْعَطِفُ

وقال أيضاً (16):

جاءَتْكَ من خَجَلِ التقْصير لابِسَةً
ثَوْبَ الْحَيَاءِ الذي ما مِثْلُه لُبِسا
فاعْذرْ بِفَضْلكَ صَبّاً صاغَها عَجِلاً
يشْكو بأُبّـذة أسراً صباحَ مَسا
أتى بِها يبتغي منكَ الدّعَاءَ لَهُ
لما رأى أنّهُ فيها حَليفُ أسى
فَهَبْ لَهُ منهُ حظّاً وافراً لِيَرَى
مِنَ السّراح بِهِ ما مِنْهُ قَدْ يئسا

وفي الشعر الذي قاله البسطي في الأسر كثيرٌ من الشوق والحنين إلى أهله وبلده وإخوانه، قال من قصيدة كتب بها لأهله (37):

يا ساكِنينَ ببسطَةٍ دوني وَلي
قَلْبٌ بهمْ ما يَسْتَفِيقُ غَراما
إني وإن أصبحتُ عنكم نازِحاً
فالقَلْبُ في تِلْكَ الدّيارِ أقاما
وَجَلالِكُمْ وجَمَالِكُمْ وكَمَالِكُمْ
قَسَماً بذلِكَ كُلِّهِ إعْظاما
مالي بغَيْرِ حَدِيثِكُمْ شُغْلٌ ولا
أَرْعَى لغيركُمُ هَوىً وذِماما

وحَـلالُ نَوْمي بـالْفِراقِ جَعَلتُـهُ
مِنْ يَـوْمِ فُرْقتكم عَلَيّ حَـراما
فالنّوْمُ قَدْ عادَى الجُفُونَ ضَرُورَةً
فَغَدَت جُفُوني ما تذوق مَنـاما
ونَسيمُكم لـو زارَني لَـوَجَـدْتُـهُ
بَرْداً عَلَى نارِ الحشـا وَسَلاَمَـا

وقال من قصيدة أخرى (19):

إنْ خانَني جَلَدي في الصَّبْرِ عن بَلَدي
وكنت من كَمَدٍ فوقَ الّذي أَصِفُ
فَالعذْرُ يَقْبَلُهُ في ذاكَ كُلُّ فَتىً
لأَنَّـهُ واضِـحٌ للعَيْنِ مُنْكَشِفُ
أَسْـرٌ تصاحِبُـهُ الأَغْلالُ دائمـةً
ومحنةٌ مَعَها الأَشْغـالُ والكُلَف

عرفنا ممّا سبق أن الشاعر طُلِب منه ألف دينارٍ في فديته، وهو مبلغ كبير ولا نعرف هل خُفّض فيما بعد إلى مبلغ أقلّ منه، ويبدو أن الشاعر دبّرهُ من بيع كتبه فهو يقول مخاطباً صديقه ابن الحسن النباهي المالقي عند خروجه من الأسر (34):

يـا سيـداً متفضّـلاً أبـوابُـهُ
أَضحتْ محلَّ الشَّدْوِ والإِنْشَادِ
أَعْلاَقَ علمي بعْتُ في الخَطْب الذي
هـو ظاهِـرٌ للمبتدي والشّـادي
والجَبْرَ أَرْجو إنْ عَلَيّ عَـطَفْتُمُ
بِـرسالـةِ التنبيـه والإِرشـادِ

ولا نعرف كم كان عمر الشاعر في وقت أسره ويبدو أنه كان شاباً كما قدّرنا، ولعله كان متأهلاً فقد وجدناه يكتب من السجن إلى أهله زيادة على كتابته إلى والده ويحنّ إليهما (5):

لَكِنْ تحِنُّ لِـوالِـدٍ ولِـزَوْجَـةٍ
وتحبُّ مـالاً صـامِتـاً وعَقَـارَا

ولقد رجع الشـاعر من أسـره إلى بلده بسطة ورضي من الغنيمـة بالإياب، ونجده يقول بعد بلوغ الأربعين (135):

دِنتُ بالجِدّ، فقـالوا: عكسُـهُ
مذهبٌ لي، قولَ قوْمٍ مُفْترينْ
قلتُ ما أقبحَ عكسَ الجدِّ لاَ
سِيمـا بعْـدَ بُلوغ الأرْبَـعينْ

وهو يفصح عن هواجسه ويستحضر ذكر الموت في هذه السن، ويعبر عن تطلّعه إلى تأدية فريضة الحج فيقول (135):

مـرورُ الأربعينَ أطـارَ نَـوْمي
وأجْرَى فوقَ صَفْح الخَدِّ دَمْعي
وعِلْمِي بالرّحيـلِ غداً وتَـرْكي
مِن أهْلي مَنْ غَدا بَصَري وسَمْعي
وَمَـا يَشْفي الـذي أشْكـوه إلاّ
مَبيتي مُحْـرِمـاً أدْعـو بجَمْـعِ

ويؤكّد هذا في أبياتَ يقول فيها (134):

إذا ما النفْسُ مالَ بِها هَواهـا
لأمْـرٍ مّـا شِمـالاً أوْ يَمينـا

أقولُ لها اقْصِري نَفْسي وكفّي
فـإنّي قَـدْ بَلغْتُ الأَرْبَعِينـا
وحَسْبي مـا مَضَى عَنّي وولّى
وأَصْبَحْتُ الغـداةَ بِـهِ رَهِينـا
فما زالَ الهَوَى يُـرْدي قديمـاً
ويـورث أهـلَه داءً دَفيـنـا
ومَنْ عادَى الهَوَى والعكسَ والَى
مِنَ الشَّـرَفِ اقْتَنى عِلْقاً ثمينا
وسـارَ بسيـرَةٍ يُثْنَى عَلَيْهَـا
وسَاوَى مَنْ سمَـا علمـاً ودينا

وله قصيدة في لوم النفس ومحاسبتها مطلعها (149 - 150):

إلى كَمْ تميلُ النَّفْسُ بي للهَوَى العُذْري
وشَيْبُ عِذاري مُبْطِلٌ في الهوى عُذْري

وفيها يشير إلى بلوغه الخمسين:

أيَلْهو آمْرُؤٌ مثلي صِباهُ قد انْقَضَى
بخمسينَ عاماً قَدْ تولّتْ منَ العُمْر

ويبدو أن عمره امتد إلى ما بعد الخمسين فهو يقول من قصيدة في قائد وادي آش حامد (141):

وقد ذهبتْ منّي القُوى وتغيّرتْ
وهلْ قوةٌ بعـدَ الذّهـاب تُعاوِدُ
وشابَ عِذاري واستحالَ سَوادُه
وبالموتِ لا شكَّ المشيبُ يقاوِدُ

والمفروض أن الشاعر عاش إلى ما بعد سنة 890هـ(1485م) وذلك لأننا

وجدناه يهنىء الفقيه الجعدالّه (844 - 897هـ) بعودته للقضاء في بسطة، وهذا وقفنا على إعلامه بثبوت رَسْم مكتوب في بسطة بتاريخ «الثامن والعشرين لذي الحجة متم عام تسعين وثمانمائة» (وثائق عربية غرناطية: 99).

كما وجدنا له قطعة لم يفصح عن مناسبتها أو الغرض من نظمها وقال إنه يفهم من النّظمْ، ونرى أنها قيلت في إدانة الفتنة الناشبة بين الأندلسيين على إثر نبذ بيعة السلطان أبي الحسن ودعوة الناس إلى مبايعة ولده أبي عبد الله، وهذا ما أدانه فقهاء غرناطة في فتوى مؤرخة «في أواسط شهر رمضان المعظم عام ثمانية وثمانين وثمانمائة» (المعيار 7 :148) وها هي قطعة البسطي (140):

مَنْ سَعَى في عَزْل والي
وابتغى تقديمَ والي
بانتهاب النفْسِ والما
ل اجتراء لا يُبالي
فبحقٍّ مثل هذا
نبذه في كل حال
واغتنام البعد منه
فهو يدعو للضلال
. . . . . .
. . . . . .

وهي على نقصانها وعدم استكمالها في الديوان مطابقة في فحواها لمضمون الفتوى المذكورة، وقد اشترك في الإفتاء بها جماعة من أصحاب شاعرنا مثل القاضي ابن الأزرق والمفتي أبي الحسن ابن داود والقاضي الجعدالّه والحاج القلصادي، والقاضي ابن عبد البر؛ وتجدر الإشارة إلى

أن بسطة بلد شاعرنا ظلت وفيّة لأبي الحسن. ومعنى هذا أن البسطي ـ حسب تقديرنا ـ بلغ السبعين أو جاوزها وأدرك المرحلة الحاسمة والأخيرة في سقوط مملكة غرناطة، ولعلّه عاش حتى حصار بسطة من قبل الملكين الكاثوليكيّين فردناند وإيزابلا سنة 1489 وهو الحصار الطويل الذي استمر قرابة سبعة أشهر، وضرب فيه أهل بسطة أروع الأمثلة في الصبر والصمود، وانتهى بتسليم المدينة في رابع دجنبر 1489م.

وقد نستأنس في هذا الموضوع أيضاً بمدحِه القائد حامد قائد وادي آش، وهذا لعلّه الذي اشترك مع القائد محمد بن حسن في الدفاع عن بسطة وقت الحصار.

وللشاعر قصيدة في وصف حصار بسطة منها قوله (99):

عَزَموا عَلَى إجْلائنا عَنْ أرْضِنا
مِنْ بَعْدِ ما اجْتَمَعوا لَنا وتَأَلَّفوا
وأَتَوْا بِكُلِّ مَكيـدةٍ قَدْ أُرْهِفَتْ
آراؤهـا في أُهْبَـةٍ لا تـوصَفُ
وتَـطَلّعوا فَـرَحاً لهَـدْم مَعَـالمٍ
للدّينِ شِيدَ بناؤهـا واستشْرَفـوا
لم يَبْقَ رُمْحٌ عندَهم إلّا أَتَـوْا
قَصْـداً بِهِ لِجِهـادِنا أو مُـرْهَفُ
فـالْمُرْهَفـاتُ تفَلّلَتْ وتَحَطّمَتْ
وغدت رِماحُ جَميعِهِمْ تتقصَّفُ
لَمّـا دَنَوْا زَحَفـوا لنا بجميعِهِمْ
فَتَخـاذَلوا فكـأنّهُمْ لَمْ يزحفـوا
راموا النُّهوضَ حَمِيـةً فتقَهْقَروا
نُـكُصـاً على أَعْقَابِهِمْ وَتَـوَقَّفـوا

وَأَبَى الإِلٰهُ سِوى حياطَتِنا فَلَمْ
يُبْلِغْهُمُ غَرَضاً إلَيْهِ تَشَوّفوا

وله أيضاً قطعة قال إنه جعلها في صدر رسالة وفيها يصف هجوماً على بسطة (93):

مُصابٌ عظيمٌ دُهِينا بِهِ
بهَذِي الديارِ، وخطب طرَقْ
هَجَرْنَا المضَاجِعَ مِنْ أَجْلِهِ
وأَجْفَانُنا اكْتَحَلَتْ بالأَرَقْ
ولم يَبْقَ [فيما] نَراه امرُؤٌ
بذا القُطْرِ إلّا اعْتَراهُ الفَرَقْ
لِهذا العَدُوّ الّذي أَمَّنا
وللزَّرع في أرضنا قد حَرَق
وحازَ مِن السّبْي فَوْق المُنى
وَكَمْ مُسْلِم دَمَهُ قَدْ هَرَقْ
وما خَرَق اليومَ في بَسْطةٍ
بغرناطَةٍ مثْلَهُ ما خَرَقْ

ولسنا ندري هل قال هذا في حصار بسطة الأخير الذي أحرقت فيه بالفعل زروعها وأبيدت أشجارها، أم أنه قال ذلك في مناسبة سابقة، ومن سوء الحظ أن الشاعر لا يشرح المناسبات ولا ينص على التواريخ، فهو لم يذكر في ديوانه كله إلّا تاريخاً واحداً سبقت الإشارة إليه.

هذا وللشاعر قصيدتان يذكر فيهما مرضه ويقول في إحداهما مبتهلاً (126):

لا تؤاخِذْني بِما أَسْلفْتُهُ
وتفضّلْ مِنْ شَكاتِي بالشّفا

ويقول في الأخرى (120):

وما زِلْتَ تَشْفي السّقْمَ يا ربّ دائماً
وتُطْفي بِبَرْد البُرْءِ مِنْ غُلّةِ الصّدْرِ
فَجُدْ لي إلَهي بالذي مِنْكَ أرْتجي
وحَقِّقْ رَجائي فيكَ يا عالِمَ السِّرِّ

وربّما كان هذا مما قاله في آخر حياته، ولعلّ فيه ما يفسّر صمتَهُ خلال هذه الأحداث الأخيرة التي انتهت بسقوط غرناطة.

أمّا حياة الشاعر العائلية فقد قدّرنا أن يكون تزوج في سن مبكرة حسب المعهود في ذلك الزمان، وفي ديوانه إشارات إلى أولاده، فمن ذلك قصيدة في رثاء ابنَيْن له توأمين مات أحدهما بإثر الآخر. وكانا يسمّيان بالحسن والحسين ـ كما هو العرف عندنا إلى اليوم ـ يقول في مطلعها (107):

أَوْدَى حُسَيْنٌ وأَوْدَى بعـدَه حَسنُ
فـطارَ بَعدَهُمَـا عنْ مُقْلتي الوسَنُ

ويفهم من القصيدة أنهما ماتا في الطفولة المبكرة وقد حزن عليهما حزناً شديداً:

لم يُسْلِني عَنْهُما من بَعدِ بُعدِهما
مالٌ ملكتُ ولا أهلٌ ولا وَطَنُ

وكان له ولدٌ اسمه أحمد، قال يخاطب بعض المؤدبين في شأنه (120):

ابْني مِنَ التفـريطِ يـا سَيّـدي
في الدّرسِ قَدْ [جاء] بإفراطِ
وحـاجَتي إحسـانُ تـأديبِـهِ
بِـضَـرْبِـهِ عَـشْـرةَ أَسْـواطِ

وقد يكون هو الذي داعبه بهذين البيتين (74):

حَذَارِ مِنَ آكْلِ الحوتِ يا أحْمَد الرِّضَى

فَفي أكْلِهِ ضُرٌّ عَلِمْنَاهُ بـالنصِّ

فإنْ كُنْتَ من قومٍ يُحبّون أكلَهُ

فـأفضلُه ما مِنْهُ سُمّي بالمُصِّ[22]

وقال فيمن تعدّى على ولد له (96 - 97):

قالوا ابنُ عَمِّكَ إبْرَاهْـمُ اعْتَدَى سَفَها

عليكَ في ابنكَ بالإفْراطِ في الأدَبِ

فخُـذْ عَلَى يَدِه وامنَـعْ تعدّيَـهُ

من قبلِ عودَتِهِ والحدّ للعَطَب

فقلْتُ مَنْ لي بكَلْب السّوء أزْجُرُه

فيقْبَلُ الزّجْرَ وهْوَ الفذُّ في الكَلَب

واللّهِ ما عَنْ قَبيحٍ رمتُ أصْرفُهُ

إلاّ تأبّى وأبْدى الجدّ في الطّلَب

ومَنْ يكونُ لَهُ منْ نفسِـه أبداً

قرينُ سوءٍ فما ينفَكُّ في تعَب

وأما العصر الذي عاش فيه فهو عصر انحلال دولة غرناطة واضمحلال مملكتها (1410م ـ 1492هـ) وقد غلب عليه الخلاف بين النصريين المتصارعين على الملك، وكثرت فيه الفتن الداخلية والحروب الخارجية، وعرف بسلسلة طويلة من المؤامرات والاغتيالات والخيانات، وامتحن فيه المسلمون بضروب من المحن وألوان من الخذلان، ولكنه عرف أيضاً أمثلة من البطولة والبسالة والصمود، وعاصر الشاعر منذ ميلاده حتى وفاته فيما نقدر هؤلاء الملوك:

يوسف III (1408 - 1417).

محمد VIII (1417 - 1419).

محمد IX (1419 - 1427).

محمد VIII (1427 - 1429).

محمد IX (1430 - 1431).

يوسف IV (1431 - 1432).

محمد IX (1432 - 1445).

يوسف V (1445 - 1446).

محمد X (1446 - 1447).

محمد IX (1447 - 1453).

محمد XI (1451 - 1452).

سعد (1453 - 1462).

يوسف V (1462).

سعد (1462 - 1464).

أبو الحسن (1464 - 1485).

محمد XII (1482 - 1492).

وأما بلده مدينة بسطة فقد أصبحت طوال هذا العصر أشبه بالمعسكر منها بشيء آخر، وذلك بسبب موقعها على خط المواجهة مع المسيحيين فكانت مع نشاطها الفلاحي والصناعي ثغراً للجهاد ورباطاً للغزو وظلت ترد الهجمات وتصمد في وجه الغارات، وكانت الأبراج والحصون تتخلل الجنات والبساتين المنتشرة في خارجها. وقد روى التاريخ بعض مواقف أهلها في الثبات والصمود ولكن ظروف الحرب الطويلة كان لها آثار سلبية على أحوالها الدينية والاجتماعية والثقافية وهذا ما سنجد صداه في ديوان شاعرنا البسطي.

الحـــواشي

(1) هذه صورة ديباجة الديوان المذكورة.

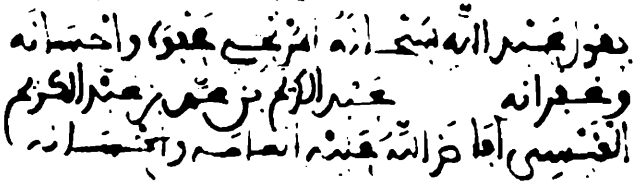

(2) رحلة القلصادي: 162 تحقيق أبو الأجفان.

(3) نثبت فيما يلي صورة ذلك في المخطوط:

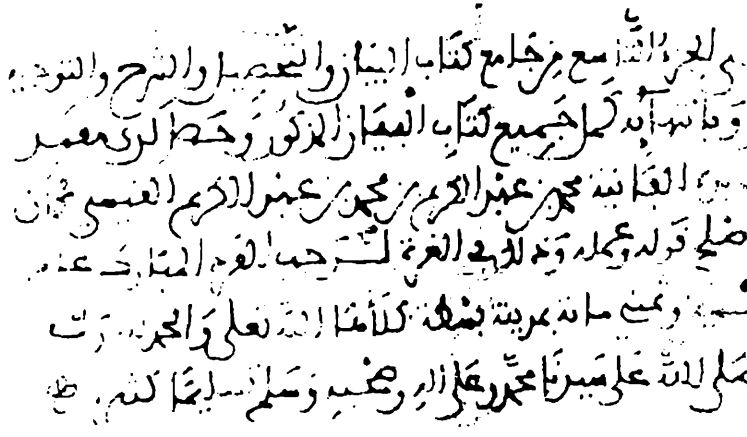

انظر مخطوط القرويين رقم 324 وفهرس المرحوم محمد العابد الفاسي جـ 1 ص 320.

(3م) بهرام بن عبد الله قاضي القضاة بمصر، ولعلّ الشاعر يشير إلى كتابه الشامل في الفقه الذي كان يدرس في هذا التاريخ بالأندلس (انظر رحلة القلصادي: 164 - 168 وثبت الوادي آشي: 189) وترجمة بهرام في نيل الابتهاج: 101.

(4) أظن أنه يشير فيما قبل البيت الأخير إلى قول القلصادي في رحلته (89): ففوقت سهم العزم، وأدخلت على التواني حرف الجزم. أما أسنى المواطن الذي يشير إليه في البيت الأخير فهو غرناطة التي استقر فيها بعد عودته من الحج.

(4م) وثائق عربية غرناطية: 11 تحقيق لويس سيكودي لوثينا.

(5) المصدر نفسه: 6.

(6) راجع درة الحجال لابن القاضي.

(7) المغرب 2 :77 والمعجب: 289.

(8) المغرب لابن سعيد 2 :77.

(9) انظر على سبيل المثال تاريخ ابن الفرضي وتكملة ابن الأبار والذيل والتكملة لابن عبد الملك.

(10) الروض المعطار: 113 تحقيق د. إحسان عباس.

(11) مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب: 31 - 32 تحقيق د. العبادي.

(12) المصدر نفسه: 86 - 87.

(13) رحلة القلصادي: 62 - 64.

(14) جنان رومة أو مروج رومة: Praderas de Roma من منتزهات مدينة بسطة. وفي وثائق عربية غرناطية: مرج رومة من حوز قنولش خارج بسطة.

(15) قنولش في هذا الشعر وفي وثائق عربية غرناطية أو قنالش كما وردت في نصوص أخرى هي الآن Canales de Baza من أعمال بسطة. وقد وصفها ابن الخطيب في خطرة الطيف فقال: «وساعد التيسير، وكان على طريق قنالش المسير، كبرى بناتها (يعني بسطة) وشبيهتها في جداولها وجنّاتها، ما شئت من أدواح توشحت بالنور وتتوجت، وغُدْران زرع هبت عليها الصَّبا فتموّجت، سفر بها الشقيق الأرجواني، عن خدود الغواني، فاجلنا العيون في رياض، وتذكرنا قول القاضي عياض...».

(16) هي منية بسطة التي ورد ذكرها مراراً في وثائق عربية غرناطية: 8، 10، 77، 91.

(17) كذا في الأصل، ولعلها تحريف المنية أي منية بسطة المذكورة في الحاشية السابقة.

(18) رحلة القلصادي: 85 وللبياني هذا ترجمة في الضوء اللامع 6 :14 ونيل الابتهاج: 308، 321.

(18م) كذا في الأصل، ولم نقف على هذه النسبة في مكان آخر، والمعروف في أنواع التين بالأندلس المالقي والشعْري والإشبيلي والقوطي.

(19) البُشرّات Alpujarras الجبال الشامخة وراء المرية.

(20) انظر هذه النوازل المتعلقة بنظام الشرط في نواحي بسطة وغيرها في المعيار المعرب جـ 7 في مواضع متعددة.

(21) الجامع والجامعة من الأغلال، والقرمة كذلك وتجعل فيها الرجل أو العنق (دوزي 2:337ـ1:718) والشب عبارة عن خشبتين تشد بهما ساق الأسير وقد يكون من الحديد، والكلمة في الإسبانية Cepo وفي الفرنسية Cep والابريق هكذا في الأصل، ولعله مثل الشب يجعل في الساق كما يقول من قصيدة أخرى (42):

أبيتُ والغُلُّ طول الليل في عُنُقي ... وفي يَدي وكذا الإبريقُ في ساقي

(22) المص نوع من «البونيت» والكلمة مستعملة في اليمن.

الفصل الثاني

كفاحه في سبيل العيش

كان الشاعر البسطي يرى ـ حسب شعره ـ أن نعم الدنيا محصورة في ثلاث جمعها في قوله (134):

نعمةُ الدّنيا ثلاث
هُنَّ في الدّنيا النِّهايَةْ
صحّةُ الجسمِ وزَوجٌ
ومِنَ المالِ الْكِفايَة

وقد أنعم الله عليه بالزوج والأولاد، كما أنعم عليه بنعمة الصحة في الجملة، أما النعمة الثالثة ـ وهي المال ـ فيبدو أنه لم يرزق منها الكفاية، ولهذا نجده في كثير من قصائده ومقطعاته يشكو سوء الحال.

رأينا أنه هاجر في شبابه طلباً للرزق واشتغل مؤدّباً وإماماً في بلد برجة ـ وربّما في غيرها ـ وتعرض خلال تطوافه ـ فيما نقدر ـ للأسر.

ويحدثنا في شعره أنه عين بعد ذلك في بعض الوظائف الدينية

كالإمامة والعدالة وولي مرة ولاية ما ولكنه سرعان ما عزل، وله في هذا العزل مقطعات منها قوله (153):

عُزِلْتُ فجدّتْ في العِتاب لكَوْنِها
رَأتْ مدَّةَ التقْديم نوعاً من الهزْل
فقلتُ لَهـا إنّ الـولايَـةَ رُبَّمـا
يؤَخَّر عَنْها بالْمَمات أو العَزْل
فقالَتْ نَعَمْ لَكَنْ ولايةُ بَسْـطَةٍ
أَبَى حَمْلَها ذُو العَقْل والنَّظَر الجزْل
فقلتُ ولا يَرْضَى المُقامَ بها امرؤٌ
وفي الأَرْضِ ما فيها من الضّمَّرا البُزْلِ
فسِرْ فـي بلادِ الله عزَّكَ تَلْتَمِسْ
وَخَلِّفْ بها هِنْداً تعيشُ من الغَزْلِ

ويقـول (153):

يلومُ خليل أَنْ عُزلتُ ولم أبتْ
بهمٍّ لَه أشكو الوَرَى مُهْجةً حَرَّى
فقلتُ لَهُ: المَمْلوكُ ليسَ يَهُمُّهُ
على رَغْبـةٍ عتقٌ يصَيِّـرُه حُـرّا
وإن الحُلَى للمَرْءِ والجَوْفُ فارغٌ
إذا اعْتُبِرَتْ لَيْسَتْ تَزينُ لَهُ نَحْرا
فَلَوْ كُنتُ أَدْري قَبْلُ عَزْلي تَركتُ ما
تقلّدتُـه تَرْكـاً ونلْتُ بـهِ أَجْـرا
ولكنّني في قابِلِ العُمْرِ بَعْد ذا
على خَطَرٍ أخْشاه لا أَرْكَبُ البحْرا

ولسنا نعرف طبيعة هاته الولاية التي أشار إلى عزله عنها في هاتين القطعتين، ونستفيد من قصيدة له أنه عزل عن خطة العدالة (التوثيق) بتدبير من بعض العدول (الموثّقين) كانوا خصوماً له، فقالَ مخاطباً قاضي بسطة حينئذ أبا حامد ابن الحسن المالقي (27):

قدِّمْ وأخِّرْ فما في الأرض مُعْترِضُ
فأنتَ مولاي للأَمْرينِ مفْتَرضُ
لكن أعِدْ نظراً فيما أتيتَ به
من اهتِضامِي فإنّي منهُ مُمْتَعِضُ
ودَعْ عُداتي وَما شَدّوا بكَيْدِهِمُ
فإنّني بِكُمُ أَرْجوه يَنْتَقِضُ
حاشا لمَجْدِكَ أَنْ تَرْضَى جلالتُه
في جانبي بالّذي - مَوْلاَيَ - فيهِ رَضُوا
وقَدْ رَأَوْني وَقَدْري كانَ مرتفِعا
فلا يَرَوْني وقَدْري الآنَ مُنْخَفِضُ

وهو لا يُلحّ في طلب العودة إلى خطة العدالة التي اشتمل عليها خصومه أو أعداؤه كما يقول وإنما يطلب من هذا القاضي الذي له فيه مدائح أن يعوضه عنها بخطبة الجامع المعلوم في بسطة ويمنحه ما يستعين به على المعاش قال (27):

ومَقْصدي منكمُ ما أستعينُ بهِ
على المَعاشِ فذاكَ القصْدُ والغرضُ
وخُطْبةُ الجامِعِ المَعْلومِ آمُلُها
لعلَّ خُطْبَتَهُ ممّا حَوَوْا عِوَضُ
وإن أضفْتَ إليها ما ذكرتُ فَقَدْ
شفعْتَ عِزّي بِعزٍّ ليس يَنقَرِضُ

فَـداوني بمُـرادي إنّني رجــلٌ
أضرَّ بي عندَهُمْ مِنْ عَزْلِيَ المَرَضُ
وإنْ هُمُ نهَضوا جهْلاً لجحْدِكُمُ
فاعْزِمْ وقدِّمْ ولا تنظُرْ لِما نَهَضُـوا
ولاَ تراعِ لهُمْ حقّ الصّفاءِ فَهُمْ
لمَجْدِكُمْ رعيَه ـ والله ـ قَدْ رَفَضُوا

وفي هذه الظروف ـ على ما يبدو ـ قال الشاعر قصيدته التي يصف فيها إحراق حانوته وأولها (145):

وددتُ أناساً لم يُراعوا الوِدَادَ لي
وما سُمْتُهم بالسُّوءِ حبّةَ خَردلِ

وهي قصيدة طويلة يصف فيها إجماع الناس في بسطة على اذايته لا لسبب إلّا لأنّه كان يقول كلمة الحق:

وأَمُّـوا جميعاً بـالاذايةِ جـانِبي
على غيرِ ذنْبٍ للأذى بمُحَلِّلِ
سِوى أنّني أصبحتُ للحقِّ ناصراً
ولَمْ ألتفتْ منهمْ إلى عذْل عُذَّلِ

ويشير إلى أن خصومه كانوا في إلحاق الأذى به على قسمين:
فقسمٌ آذاه باللسان، وقسم آذاه باليد، ومن هؤلاء أولئك الذين عمدوا إلى إحراق حانوته الذي كان يجلس فيه للفتيا وعقد الشروط وتقييد العلم:

فإحراقُ حـانوتي لتنحطَّ رُتْبتي
يَعودُ عليهِمْ بانعكاسِ المؤَمَّل
فقد كانَ للأحكامِ مجلسَها الّذي
تصانُ به منْ مُفسـدٍ أو مُبدِّل

وكـان لتقييدِ العلومِ وضَبْـطِها
وعقدِ شروطِ القوم أقرب منزل

ويبدو أن القاضي المذكور أسعف طلبَه، وحُدِّدَ له مرتبٌ شهري قدره ستون درهماً من قِبَل ناظر الأحباس، وهو شيخه أبو عبد الله البياني، ثم نجده بعد ذلك يشتكي إلى القاضي المذكور من نقص هذا المرتّب في الأبيات التالية (72):

يـا أثيـراً لـدَى الأنـام مكينـا
زادكَ اللَّهُ في العُلَى تَمْكـينـا
أنْتَ تَـدْري حقيقةً أنّ شيخي
رَدَّ قِــدْمـاً مُـرَتِّبي سِتِّينـا[1]
فَلِمَــاذا أعــادَهُ لَيْتَ شِعْــري
بَعْدَما قَدْ شَهِدْتَ لي خَمْسينا
كـلِّـموهُ إذا أتـاكُـمْ فــإنّــي
خــائفٌ أن يــردَّهُ عِشــريـنـا
واشْفَعوا لي بفضْلِكم في ذنوبٍ
خلْتُ جهـلًا قَبيحَهـا تَحْسينـا

والظّاهرُ أنّه حرم بعد ذلك مرتّبه فقال مخاطبـاً البياني النـاظر في الأحباس الذي خالف «الأمر الكريم» وضيع رزق الشاعر المقرر له (67):

لئن ضاعَ رزْقي عندكَ اليومَ إنه
لَدى قاسمِ الأرزاقِ لَيـسَ يَضيعُ
وإن كنتَ للسلطان وحدَك عاصيا
فـإنّي لـهُ بينَ الأنـام مُـطيـع
وإن كنتَ في مَرْضاته مُتباطئاً
فَـإنّيَ في مَـرْضـاتِـه لسَــريـع

وما بيدي مِنْ أمْرِهِ إن وضعْتَه

فمقـــدارُه عنـدي الغَـــداةَ رَفيـــع

ولعلّه يقصد هذا الموضوع حين يقول من قصيدة أخرى مشيراً إلى أن الناظر المذكور تغيّر عليه بعد أن كان له خليلاً، ومنعه حقه، ولم يلتفت إلى أمر الإمام في شأنه، قال (47):

وأبدى عُبوسَ الوجْه من بعدِ بشْرِه

وصيّرَ لي الوُدَّ الصّحيحَ عليلا

ودانَ بمنع الحقِّ والحقُّ واجبٌ

وهيّج وجداً في الحشا وغَليلا

ولـو أنه أمضى مـرفّعَ حَكْمِـه

لأَلْفَى إلى إمضـاءِ ذاكَ سَبيلا

ولم يَرْعَ حكْمَ الشّرْعِ في ذاكَ عامداً

وكان بزعْم الشّرْع فيه كفيلا

وهو في هذه القصيدة يعلن عزمه على الرحيل عن بلده فرَاراً من الـظلم والعدوان وأنفة من تحمّل الضيم والهوان ونشداناً للأنس والسلوان:

خلِيـلَيَّ مـا مثـلي يقيمُ ذليـلا

ويَحْمـلُ من ضَيْم الـزّمـانِ ثَقيـلا

ويرْضَى بعيشٍ لا يزالُ ببسطةٍ

يجدّدُ من خَطْبِ الهُموم جليلا

فلا تعْذُلاني في رحيليَ عَنْكُمَا

فـإنّي لما أَلْقَى عـزمتُ رَحيلا

فكيفَ لِنَفْسِي أنْ تقيمَ ببلـدةٍ

تشـاهِـدُ فيهـا مثـلَ ذا وتَقيـلا

فإنّ مِنَ العجزِ الثـواءَ بموطنٍ
يكونُ به الظّلْمُ الذّميمُ نـزيلا

ولكنه ـ فيما يبدو ـ لم يستطع فراق أهله، ومكث ببلده نادباً حظه باكياً محنته، رافعاً شكواه إلى بعض ذوي السلطان كما في هذه القصيدة التي خاطب بها «الرئيس الوزير الحاجب أبا يحيى ابن عاصم» (حوالي 857هـ ـ 1453م) وقد استهلها بهجاء خصومه الذين تواصوا بمنع حقه فقال (62 - 63):

أنت الدواءُ إذا ما أعضل الدّاءُ
ورام هَضْميَ حسّـادٌ وأَعْـداءُ
قومٌ ضعافُ القُوَى في كَسْب منْقَبةٍ
وفي اكتسابِ المَساوي هُمْ أشدّاءُ
الشَّكلُ شكلُ الْوَرَى والخَلْق خلْقُهُم
وهُمْ إذا نطقوا لا شكّ أصداءُ
أمرُ الأمير مضاعٌ بين أظهرِهِمْ
وهُمْ إذا خـوصِموا قـومٌ ألدّاءُ
والحقُّ عنـدهمُ أنـوارُه خَفِيتْ
وعنـدهُمْ لظلام الـظّلْم إبـداءُ
هُمُ العداة إذا غابوا، فإن حضَروا
قـالـوا بمكْـرِهِمُ: إنّـا أوِدّاءُ
لئن تواصَوْا بمَنْع الحقّ بينَهُمُ
وقصـدُهُمْ بيَ إضـرارٌ وإرْداءُ
فبالرّئيس أبي يحيى بْنِ عاصِمَ لي
على جميعِهِمُ نصـرٌ وإعـداءُ

هو المؤمّلُ بعـدَ اللَّهِ ينْصُرُني
لو كانَ من نحوه بالنصرِ إهداءُ
لهُ بما نالَني أصبحتُ مشتكياً
وإن عدتْ عنه للمظلوم بَيْداءُ
عساه يأخذُ حقّي منْهُمُ عجلاً
فلم يَزَلْ منهُ لي بالفضلِ إسْداءُ

ثم ختم القصيدة بأبيات في مدح الرجل، ويتضح من قول الشاعر:

لَهُ بِما نالَني أَصْبَحْتُ مُشْتَكِياً
وإن عَدَتْ عَنْهُ لِلْمَظْلُومِ بَيْداءُ

أنه أرسل القصيدة من بسطة إلى المذكور في غرناطة.

ولما استخلف أبو عبد الله محمد بن مالك الأليري على قضاء غرناطة فرح شاعرنا بذلك لأنه صديق الشاعر ورفيق دراسته، وقد عبر عن فرحه في أشعار هنأه فيها بالخطة السامية وذكره بحقّه المهضوم، وهو يختتم قصيدة في تهنئة القاضي المذكور قائلاً (88):

وعجّـلْ سَيّدي نَصْـري فَحقّي
كَمـا تَـدْري وتَعْلَمُ والسَّـلامُ

وقال في آخر قصيدة أخرى (51):

ومَهْـرَهـا اجْعَلْهُ بِـلا مـانـعٍ
إنْفـاذَ مـا مِنْ قِصّتـي تَعْـلَمُ

ولا نعرفُ تاريخ تولّي هذا الفقيه قضاء الجماعة. ويظهر أن ولايته كانت قبل ولاية ابن عاصم لأن هذا ينقل عنه في شرح التحفة.

ولا يشير الشاعر في شعـره الـذي هنأ فيه القاضي ابن منظور بقضاء

الجماعة إلى قصته وإنما يذكر أن دولته أفضل من دولة ابن جماعة، وقد ولي ابن منظور قضاء غرناطة خلال 864هـ ـ 870هـ وكانت صلة الشاعر به متينة، وقد يكون أفتى في قضيته لصالحه كما سنرى، ولكنّنا لا نجد في شعره ما يدلّ على إنصاف مطلبه، وإنما نراه يستمرّ في شكواه، فمن ذلك تخميسٌ يذكر فيه أخلاق صنفه المعاصرين له، المتحزّبين ضدّه، من خطباء وشيوخ وقضاة، ونورده هنا على سبيل التوثيق قال: (69):

إساءةُ الصّنفِ في ذي النفس قد فَجَعَتْ
والقلبَ قَدْ صدعَتْ والظهرَ قد قَطَعَتْ
وقائلٍ قال لو أقوالُه سُمِعتْ
قابلْ أخي سقطاتِ الناس إنْ وقَعَتْ
يوماً بعفوٍ وإغضاءٍ وإغماضِ
فقلتُ والنفسُ لم تجنحْ لمذهبِهِ
وقد رأتْ ما رأتهُ من تجنّبِهِ
يا قلبُ صبراً لصنفٍ في تحزّبِهِ
فلستَ تبصرُ ما ترجو السرورَ بِه
لا مِنْ خطيب ولا شَيْخٍ ولا قاضِ
حسبتُهُمْ عُدّةً من أفضل العُددِ
واستمسكتْ بهمُ دونَ الأنامِ يدي
حتّى انجلَى أنّهمْ مِنْ كثرةِ الحَسَد
إذا رأوا نِعمةً لاحتْ على أحَد
أضحى الجميعُ وما منهمْ بها راضِ
كبيرُهم بالحشا من حقْدِه مرَضٌ
بالشرّ منبسِطٌ بالخير منْقَبِضُ

وإنّ أصغرَهُمْ بالسّوءِ معترض
فهجرُهم واجبٌ عَلَيّ مفترَضَ
والحقّ إنْ يُلْتَقَوْا يُلْقَوا بإعراضِ

ومما قاله مخاطباً حابس مرتّبه (78):

ماذا تقولونَ لي يومَ الحساب إذا
طلبتُ حقّي لكُمْ في واجبِ الطّلَبَهْ
واللّهُ سبحانَهُ ما بينَنا حَكَمٌ
يقضي عليكُمْ بهِ بالقَهْر والغَلَبَهْ
فاجلُبْ لنَفْسِكَ ما ترجو الخلاصَ بهِ
من الأداءِ فيا توْفيقَ من جَلَبَهْ
وحظَّ نَفسِك دَعْ لله مُحْتسِباً
قَبْلَ المماتِ وأعطِ الحقَّ من طَلَبَهْ
فليس يرضَى بمنعِ الحقِّ صاحبَه
ظُلْماً له مَنْ يَرَى لِلَّهِ مُنْقَلَبَهْ
وقد نصحتكَ نُصحاً إن عملتَ بهِ
عُصمتَ إذ لفظهُ حصنٌ لمن قَلَبَه

ويشير في البيت الأخير إلى أن مقلوب نصح هو حصن. وحين أعيته الشكوى إلى ذوي السلطان لجأ إلى سلاح الدّعاء والابتهال إلى الله عزّ وجلّ كي يأخذ له الحق ممن اهتضم حقه وحبس عنه واجبه، وهذا ما تفصح عنه هذه القصيدة (48):

أيا ربّاً إذا يُدْعى يُجيب
دعوتكَ فاستجبْ لي يا مُجيبُ

فــإنّي لاهـتـضــامي واحـتـقــاري
بحبسِ مــرتّـبـي مُـضـنـىً كئيـبُ
أكــادُ لـفــرطِ مــا ألْقــاهُ أفْـنَى
وللشّكــوَى الـتي أشـكــو أذوبُ
فـدَمْعِي في الخدودِ لـه انسكابٌ
وقــلبي لــلأُوارِ بــه لــهــيــبُ
ولــيــلي لــلكــآبــةِ مُــدْلَــهِــمٌّ
ويَــومي للذي أشـكــو عَصيبُ
وقَـدْ أصبحتُ في كـرْبٍ عـظيم
وعــيشٍ لا يَــلَذّ ولا يَــطيــبُ
وأحـبسَ واجـبــي رجـــلٌ ظـلوم
غَـشــومٌ لا يـتــوبُ ولا يـنـيـبُ
يجــور بـحبسِـهِ جـوراً عـظيمــاً
ولا يخشى مكــانَــكَ يــا رَقيبُ
ولا أحـــدٌ ســواكَ بـــه انتصـاري
عليــه يــا مهـيمـنُ يــا قَــريبُ
فخُــذْ لي يــا إلّهي الحقَّ مِنْــهُ
وخفّفْ من خُــطوبٍ مــا أُصيبُ
فــأنـتَ الـلّهُ تـعـلمُ مــا ألاقـي
وحــالي عن عِيــانـكَ لا يَغيبُ

وبعد هذا يذكر ـ مرة أخرى ـ تواطؤ المتمتّعين بمرتبات الأحباس من صنفه وطبقته على إبطال حقه وإنكار نصيبه، ويهجوهم هجاء مرّاً فيقول:

وَلَا تُشْمِتْ بيَ الأعــداءَ ربّي
فشأنُ الكلِّ في أمري عجيبُ

وَقالوا لَيْسَ في أحباسِهم لي
إذا عَدُّوا نفوسَهُمُ نَصيب
وقَدْ كَذَبوا وما إنْ ذاكَ بِدْعٌ
فما فيهمْ إلّا فتىً كَذوبُ
بطيءٌ في اكتساب الحمْدِ لُؤْماً
وفيما ذُمّ سَبّاقٌ نجيبُ
عَلَى ظلْم الورى أبداً مُصِرٌّ
وفي إبداءِ عورتِهم دَءُوبُ
فدونَ صغيرِهمْ في اللُّؤم كلبٌ
ودون كَبيرهم في الظُّلْم ذيبُ
علَى وَجَناتِهمْ للخُبْث وَشْمٌ
فكلُّهُمُ لشُهرَتِهِ مُريبُ

ويختم القصيدة بالتشفع بالرسول والتوسل بجاهه عند الله فيقول

وقد صيرتُ جاهَ محمّدٍ لي
إليكَ وسيلتي فَحشا أخيبُ

وانتهى أمر هذه الحادثة البارزة في حياة صاحبنا بتعطيل الوظائف التي كان يقوم بها في الجامع الأعظم ببسطة، وفي هذا يقول (151):

تركتُ كلامي والقراءةَ والفُتْيا
ببَسْطةَ واخترتُ الخُمولَ بِها رأْيا
فلستُ إليها ما حييتُ بعائدٍ
ولوْ أنني أُعْطَى على حَمْلِها الدنيا

وهكذا أخلد الفقيه الشاعر مكرهاً إلى الخمول والابتعاد عن هذه الوظائف الدينية التي كالَفَحَ كفاحاً مريراً من أجل استمرارها والبقاء فيها،

وقد توجع لتداعي دين الهدى ووهْيـهِ في بلده بسطة ووصم أهلها بالجهل والبغي وقال فيهم:

مناهم مدى الأيـام ذلّ إمامهمْ
وذلُّ إمامِ القَوْمِ من أقْبَح الأَشْيا

وفي ديوان الشاعر أشعار أخرى خاطب بها ناظر الأحباس البياني في طلب آخر لم يلق لديه القبول أيضاً على ما يظهر، فقد كتب إليه مَرّة راغباً في كراء ملك للأحباس بجوار ملكه (119):

سَيّــدي لي رغبـةٌ في حُبُسٍ
بجواري في اكتراءِ الإغْرِش(1م)
لأذىً مـن أجْلِهِ يـلحَقُـني
كلّما يُسْقى ضُحىً أو بالعَشِي
والْكِــراءُ انصَــرَمَـتْ مــدّتُــهُ
والمُكاري الأخذُ منْهُ قَدْ خُشي
بـانَ لي ذا مِنـهُ إذْ قُلْتُ لَـهُ
نَقِّ مَسْقــاكَ زمــانَ الْعَــطَش
فَعَسىٰ بـالقَصْـدِ تُلْفَى مُؤْنسي
لا تكُنْ بـالردِّ تُلْفَى مـوحِشي

وأتبع هذا بمدحه مدحاً أطنب فيه، ولمّا تباطأ ناظر الأحباس كتب إليه الشـاعـر يـذكّـره بهـذه الأبيـات (122):

يا سَيّدي الحبسُ الّذي خاطَبْتُكُمْ
في شَأْنِهِ، أمـدُ الكِرا فيـهِ انْتَهى
وأنــا عَلَى مـا كنتُــهُ مِنْ رغبتي
في أخـذِهِ لَمْ أنْتَقِـلْ عمّـا مَضَى

فَعســاكُمُ أن تُبْـرمــوا فيـهِ مَعي
عَقْدَ الكراءِ عَلَى الذي الحُبُّ اقْتَضَى
ولمــدةٍ شِئْتُـمْ بمــا قَــدْ شِئْـتُمُ
إنّي جعلتُ إلَيْـكَ ذاكَ مُفَـوّضــا

ويبدو أن ناظر الأحباس لم يلبّ رغبته في ذلك ومن ثم فسد ما بينه وبين الشاعر، وها هو يقول مخاطباً إياه في شأن خراجة حكم عليه بتعطيلها جوراً وظلماً كما يقول (148):

عطّلتَ خراجة[2] الدار التي قَدُمَتْ
جَوْراً وظُلْماً كما قد شاءه القَدَرُ
ولم يكُنْ في حِسابي ذاكَ مُعْتَبَراً
حتى بدتْ ليَ من تعطيلِها عِبَرُ
فأذْهلَ النفسَ حتّى عن مَراشِدِها
واستقبَلَتْني به الأشجانُ والغِيرُ
فالهطلُ عند نزولِ الغيثِ واكفُهُ
قد ضرّني ضَرَراً ما مثلُه ضَرَرُ

ولعلّ مما يتصل بكراء الحبس السابق قوله مخاطباً بعض أصحابه (111):

يَا مَنْ عَلا قَدْراً على نُظَرائِـهِ
ببـدائعٍ قَـدْ أعجـزَتْ نُـظرَاءَه
إنفــاقُ منْ تـدريــهِ زادَ وإنّـهُ
ليـوَدُّ مِنْ حُبُـسٍ إليـكَ كـراءَه
فابعثْ بِهِ مَعْ واصلٍ، أَوْصِلْ بِهِ
متفضّــلاً تُـذْهِبْ بــه ضَـرّاءَه

فلقَدْ غَدا من حاجةٍ حلّتْ به
في مِصـرِه ساوَى بِهَـا فُقَـرَاءَه

وقوله مخاطباً آخر في شأن مغرم حبس (115):

أصخْ لذكر مُحبّ لم يزل أبداً
يرعى لك الحبَّ رعْياً غيرَ مُلْتَبسِ
جاء ابن عمِّك من تلقاء وجهته
فأين ما قُلتَه من مَغْرَم الحُبُسِ

ولما مُنع من حقه واشتدت عليه وطأة الحاجة وكثرت مطالبه ومطالب عياله خاطب القاضي الرئيس أبا حامد ابن الحسن المالقي بقصيدة طريفة يمتزج فيها الجد بالهزل، وقد بدأها بالشكوى فقال (23 - 24):

مَنْ لخَطبي مَنْ لِغمّي
مَنْ لكَرْبي مَنْ لهمّي
مَنعَ الأعداءُ حقّي
منعَ عُدوان وظُلْمِ
قد مضى عام ونصفٌ
لم أصلْ منه لقَسْم
وأنا في كلّ يومٍ
ربُّ إنفاقٍ وغُرْم
رُبّ بيتٍ أكتريه
لعيالي مع كرم
ودقيقٍ أشتريه
مع ملح ثمّ لَحْم

ثـم زَيْـتٍ لـوقـودٍ
مـع حـطْبٍ ثـم فَـحْـم
ثـم عَـسْـلٍ مـع سـمْـنٍ
وخـلـيـعٍ مـع شَـحْـم
ثـم أبـزارٍ لإصْـلا
حِ مـطاعـيـمـي وأدْم
ثـمّ تـمْـرٍ مـع تـيـنٍ
وزبـيـب دون عـجْـم
ثـم فَـخّـارٍ لـطَبْـخٍ
ثـمّ شُـرْب ثـم طـعْـم
ثُـمّ صـابـون لـغـسـلٍ
ثـمّ أزهـارٍ لـشـمّ
دَعْ غِـطائـي ووِطـائـي
وثـيـابـي دُونَ ضـمّ
وَسِـوى ذلـك مـمّـا
نَـوْعَـه لَـسـتُ أسـمّـي
وَرَدَ الـنّصّ بـه فـي
غـيـر مـا ديـوانِ عـلْم
مـن أتـاهُ لـم يـصـفْـهُ
أحـدٌ قطّ بـظُلْم
لَـمْ أحـصّـل مـنـه شيئـاً
لافـتـقـاري مـع عُـدْمـي

وهذا سردٌ لقائمة النّفقة التقليدية الحضرية في الأندلس والمغرب التي كانت تعُدّ شراء الأزهار من جملة نفقة البيت.

وفي هذه القصيدة حديث طريف عن الدرهم هو بالغزل أشبه منه بالمديح، وهو يذكرنا بشعر الحريري فيه، وفي آخر القصيدة مدح للقاضي المذكور.

والقصيدة في نسيجها تذكرنا بقصيدة هزلية لابن الأزرق معاصر شاعرنا وأخرى لأبي عبد الله العُقيلي[3].

ولا نعرف من هو كاتب سر هذا القاضي الذي يصفه في هذه القصيدة قائلاً:

وَلَهُ كاتبُ سِرٍّ لم يَصُنْ سِرّاً بكَتْمِ
أصْفَرُ اللونِ ضَئيلٌ يَفْعَلُ الْفِعْلَ كَضَخْمِ
مَنْ تَعَرّى ما كَساهُ وَهْو ذو أنْفٍ أشَمِّ
يَحْسِمُ الداءَ إذا ما كانَ مُحْتَاجاً لحَسْمِ
قَدْرُهُ خُصّ بِرَفْعٍ أمْرُه خُصّ بِجَزْمِ
ثم أعْلاهُ خَطِيباً وإماماً دونَ حَجْمِ
فَشَفى الناسَ بِوَعْظٍ جامِعٍ للْخَيْرِ جَمِّ
وتأدّى خَلْفَهُ المفـ ـروضُ للفَضْلِ الأَتَمِّ

ولعلّه نائبه ابن مُفضّل الذي قال فيه في بعض أشعاره إن علمه أمضى من السّمر الرقاق وأشار في رثائه إلى أنه كان إماماً مقرئاً واعظاً، وكل هذا تلمّح إليه الأبيات ولا سيما الأخير. وقد يكون يعني بها نفسه.

وهو يذكر فقره واحتياجه في أبيات يداعب بها أصحابه كقوله:

إذا ما لحا أهلي وطالَ اعتراضُهم
على قلّة الإدْراكِ أَوْ ظُلمةِ البَيْتِ
أقولُ لهمْ مهلاً عَلَيّ فسيّدي
أبو جعفرٍ ذو الفضل يُنْعم بالزّيْتِ

ويبدو أن صاحبه أبا جعفر الذي طلب منه هنا الزيت هو أبو جعفر أحمد القصّار الذي طلب منه كتاب صحاح اللغة في هذين البيتين (67):

ثَوْبي من اللّغةِ الّتي أحتـاجُها
عِنْدي لنَقْصِ كَمالِهِ اسْتِقْصَارُ
وعليكُمُ تكميلُهُ بصَـحـاحِكُـمْ
نَقْصُ الثّيـابِ يُـزيلُه القَصّـارُ

ولعلّ من مظاهر فقره أنه كان يستعير الكتب من أصحابه كما في هذا المثال وكما في قوله شاكراً بعض الأصحاب على إعارة بهرام وهو فقيه مالكي معروف غلب اسمه على كتابه (82):

جزاكمُ اللّهُ خيراً عن أخي ثقةٍ
جُـدْتُم عليـه وأنعمتمْ ببَهْـرامِ
وكانَ إكرامُـهُ في ذاكَ متضحاً
لا زلْتمُ الدّهْرَ في بِـرٍّ وإكرام

ويقول أيضاً في شكر بعض الأصحاب الذين أعاروه كتاب الصيب والجهام، وهو ديوان شعر لابن الخطيب (105):

إني لأقطعُ مدّتي منْ ذكـركمْ
يـا أهلَ ودّي بـالثّنـاء الـطيّب
فلقَـدْ قضيتُم لي مآربَ جَمّـة
لمّـا أعرتُمْ لي كتـابَ الصّيِّب

وكان يبيع كتبه وهي آخر ما يباع من المتاع كما قال بعضهم، فقد كتب على ظهر كتاب اضطر إلى بيعه هذين البيتين (108):

قسمـاً لـولا معـاداةُ الـزّمنْ
واحتيـاجي من كتـابي للثّمن

مـا بـهِ نفْسي لبيـعٍ سمحتْ
ولو اعتضتُ بهِ مُلْك اليمَنْ[3م]

وقد باع نفائس كتبه ليجمع ما يفتدي به نفسه من الأسر، قال في مخاطبة أبي حامد ابن الحسن النباهي(34):

أعلاقَ عِلْمي بعتُ في الخَطْب الذي
هـو ظاهـرٌ للمبْتَدي والشّـادي
والجبْرَ أرجو إنْ عَلَيَّ عـطفتُم
بـرسالـةِ التنبيـهِ والإرشـادِ

إن الاهتضام الذي تعرض له الفقيه الشاعر في بلده كان له انعكاس على رأيه فيه، فقد كان في شبابه يتغنى بطبيعة بَسْطة الجميلة، وله في ذلك شعر رأينا بعضه فيما سبق، ولكنه عدلَ عن هذا الرأي بسبب تفريط أهل بلده في حقه وأصبح يقولُ أشعاراً في ذمها وهجو أهلها فمن ذلك قوله (152):

أيُّهـا الصّبُّ بسُكنَـى بَسْـطةٍ
يَبْتغي العِـزَّ بِهـا والشّـرَفـا
انصـرِفْ عَنْها لسُكْنى غيـرِهـا
فَكِـلا الأَمْرَينِ عَنْهـا انْصَـرَفـا
لا تُؤَمِّـلْ نيـلَ شَيْءٍ مِنْهُمَـا
مـا عَلَيْهـا المَلَـوانِ اخـتلَفـا
بَلْدةٌ فيـهـا الهَـوا مُـنْحـرِفٌ
كمـزاجِ النّاسِ فيهـا آنْحَرَفـا
حَسـدٌ صـاحبَـه البَغْيُ بهـا
ذَا عَلَى هـذا بِهـا قَـدْ وُقفـا

أكثرُ النّاسِ بها مَنْ تُلْفِهِ
بِكلا الوَصْفينِ فيها عُرِفا

ويبدو أن أهلها كانوا يؤثرون الغريب على القريب وفي هذا يقول (93):

قالُوا غَدا البَرَّانِي في غُلَّيْرَةٍ
في الوقتِ صَدْرَ صُدورِها الأَعيانِ
فأجَبتُهم لا تُنكِروا فَبِبَسْطةٍ
مَا زَالَ صدرَ صُدورِها البرّاني

(غليرة بلد من أحوازِ بسطة. انظر نازلة شراء أموال أهل غليرة من الروم في المعيار 2 :110).

وقال في التعريض بها وبأهلها «لموجب أوجب ذلك» (103 - 104):

لَا رَعَى اللَّهُ بَسْطةً وأُناساً
بِحِماها أضْحَوْا مِنَ السّكّانِ
فلقَدْ أكرَموا اللّئامَ افتخاراً
وأهانوا القُرّاءَ للقُرْآنِ
لَمْ يكُنْ في وقتِنا ذَا بلْ عَلَيْهِ
لَمْ يَزالُوا في سالِفِ الأَزْمَانِ

وقال في الغرض نفسه (104):

الكلبُ صارَ ببَسْطَةٍ أَعْلَى وأَشْرَفَ مِنْ فَقيهْ
أَنّى فقيهٌ يَعْتَلِي لِمَحلِّه أوْ يرتقيهْ
الكلبُ مالكُه بها مِن كلِّ ما يخشى يقيهْ
وفَقيهُها مِنْ أهلِها ما ساءَ منهُمْ يتّقيهْ
فتراهُ عندَ خُروجه يَرْتاع ممّنْ يَلْتقيهْ

أفعـاقـلٌ يـرضَى بهـا وطنـاً لـسكْنـى يَنْتَقِيـهْ

وقال أيضاً (104):

عَجَباً لمادح بَسْطَةٍ مِنْ جاهلٍ
عمّا بهِ في النّاسِ عِيَبتْ لاَهِ
وعَزيزُها [ذو الفسقِ] عَزّ لفسقِهِ
وذَليلُهـا تـالـي كتـابِ الـلَّهِ

إن هذه الأشعار التي يشكو فيها الشاعر خالية من التاريخ كما هو الأمر الغالب في دواوين الشعراء الأقدمين، ولكن الشاعر كما رأينا يشكو تارة من حبس حقّه في واجب الطلبة، ويشكو تارة أخرى من نقص مرتبه ثم من إيقافه، كما يشكو من عزله ومنعه من خطة العدالة وإحراق حانوته، وقد بدا لي بعد إمعان النظر فيها أنّها تتعلّق بثلاث حوادث في حياة الشاعر:

فالحادثة الأولى هي التي يطلب فيها حقه «في واجب الطلبة» حين يقول:

ماذا تقولونَ لي يومَ الحِساب إذا
طلبتُ حقّي لكم في **واجب الطَّلَبة**

وينبغي أن تكون هذه الحادثة في آخر مرحلة الطلب وكان فيها الشاعر ـ على ما يظهر ـ ما يزال يعيش في كنف والده، وكان يستفيد من الأحباس المحبسة على الطلبة الضعفاء في مدينة بسطة، ويبدو أن الشاعر لم يعد يواظب على حضور مجالس العلم وأخذ يشتغل بتأديب الأولاد وكتابة العقود وغير ذلك، فحبس عنه ناظر الأحباس ما كان يأخذه بحجّة عدم المواظبة على الدروس والاشتغال بالتأديب والوراقة، وهنا رفع الشاعر عقيرته بالشكوى في القصيدة المشار إليها وغيرها، ويبدو أن ناظر الأحباس استند في موقفه على فتوى مفتي الحضرة (غرناطة) يومئذ أبي عبد الله محمد المواق، وقد وقفنا على هذه الفتوى التي لعلها تعني صاحبنا، وإذا كان لم

يذكر فيها بالاسم فإن القرائن تدل على أنه المقصود بها في الغالب، وها هو نص الفتوى كما وردت في المعيار للونشريسي (7 :124 - 145):

«وسئل المواق[10] عن أحباسٍ ببسطة محبّسةٍ على الطلبة الضعفاء وعندنا من يحضر مجلس العلم في وقت من الأوقات وهو مؤدّب يقطع جل أوقاته في التأديب وآخر يشتغل جل أوقاته بصناعة من الصنائع يتعيش منها فأشكل علينا، هل يعطى من هو على هذه الحالة من الأحباس المذكورة؟ فإن ظاهر الأمر أنّ الإعانة من مقصد المحبّس فيها أن تكون إعانة لمن يهتم بالطلب ولا يتكلّف معيشة غيرها لكون أوقاته يعمرها بطلب العلم. أما من يحضر مجلس العلم في وقتٍ مّا من الأوقات مثل ما يحضره العامّي فبعيدٌ من المحبس قصد إعانته، وكنا نسمع من أصحابنا مدة الإقامة أن من بَرَزَ للشهادة مع الموثقين لاحظّ له مع الطلبة في مرتب الطالب، فأردنا منكم الإتحاف بما عندكم في هذه المسألة.

فأجاب: من تلبّس إبليس أخذ حبس الطلبة لمن وقف عند غايةٍ لا هو ينمو في نفسه ولا ينمي في غيره. قال الشاطبي في موافقاته في مثل هذا: إنه من باب العبث بالنسبة للمصلحة المجتلبة ومن تكليف ما لا يطاق في حقّه، وكلاهما باطلٌ شرعاً فلا يأخذ من الوقف على طلبة العلم إلّا من جاد فهمه وحسن إدراكه وطابت سجيته، وتجرد لأن ينتفع وينفع، وأما إن كان خبره بالقراءة لا يتجاوز عتبة بابه فليطلبْ أجره من ربّه وليخل الوقف لأهله أو يصرف فيما هو أعود نفعاً لِلْعامّة، لأنه لمصالح العامة، وما ذكرتم أن من سرحت شهادته منع من مرتبه على الطلبة، فشيخنا أبو القاسم ابن سراج كان هذا مأخذه، سرّح شهادة بعض أصحابنا وشرط عليه إن ارتفع لحانوتٍ أنه يمنعه المرتب».

وله فتوى ثانية في هذه النازلة مع تعديل في صيغة السؤال هذه المرة، ونظن أنها مثل الأولى تتعلق بموضوع شاعرنا، وها هو نصها كما في المعيار (7 :130).

وسئل (أي المواق) عن قرية حبست على مصالح قشتال[5] وطلاعِه عين لذلك ربع فائدها [وربع] على ضعفاء الفرسان ببسطة، وعين للضّعفاء من طلبة العلم ببسطة ربع آخر، وعين الربع الرابع للناظر، فظهر للناظر الآن فيها أن في طلبة العلم بها من هو غني بمال أبيه لكونه تحت إنفاقه وكسوته وأحب مطالعة سيادتكم بذلك، وهل يعدّ من كان قد بلغ وخرج من حجر أبيه ـ إذا كان لا شيء أو له شيء يسير ـ غنياً بسبب كونه ساكناً مع أبيه وتحت إنفاقه وكسوته، أو هو ضعيف يعطى من هذه الأحباس مع جملة ضعفاء الطلبة.

ومن سؤال الناظر أن الأرض المحبسة لها جبّ وقرار مفتقران للإصلاح وفيها أرض غامرة عليها مساقي لسواها من أرضها العامرة تفتقر لمن يعملها، هل له أن يأخذ من جملة غلّتها ما يصلح به ما ذكر أو لا؟.

فأجاب أما أن الطالب المذكور ليس له شيء فلا يشك أنه فقير، لكن غيره يستعين بما يعطى في سد جوعه وستر عورته، وهذا الطالب قد كفي هذه المؤنة يستعين بما يعطى في ترفه.

وهذه المسألة فيها نظر قد يكون مرجواً أكثر من غيري وهو يحتاج لكتب وغيرها.

ولكن الفقيه ابن منظور، وهو أبو عمرو ابن منظور الذي استنجد به الشاعر كما رأينا كان له رأي مخالف لرأي المواق في هذه النازلة، وإذا كان المواق أفتى بمنع الطالب في حالتي النازلة من حقه في الحبس المذكور فإن ابن منظور أفتى بخلاف ذلك، وها هي فتواه كما أوردها الونشريسي أيضاً في المعيار بعد إعادة السؤال المذكور (7 :124).

«فأجاب بأن القرية المذكورة يتبع فيها قصد المحبس الذي يفهم من ألفاظ رسم التحبيس ولا يخالف في شيء منه، فما كان للقشتال فيما ذكر فهو كذلك ولا يغير، وما كان لضعفاء الفرسان ممن ذكر فلهم، وما كان

لضعفاء الطلبة فلهم، ولا فرق في الضعفاء بين من هو ضعيف ولا والد له أو له والد ضعيف، وبين من له والدٌ غني لأنّ غنى الوالد لا يوجب وصفاً للولد أنه غني لا سيما مع بلوغ الولد، فقد خرج على إيجاب النفقة عليه من أبيه، وأن أرفق الوالد ولده فالله يشكره، فقد يجدي ما يعطيه الأب لشراء كتابٍ أو كاغط، وله سهمه في الحبس إن شاء الله، وكذلك سكني الولد مع الأب لا يحرمه حظه إن شاء الله، والطلبة الساكنون في البلد المستوطنون وإن لم يكونوا في الأصل من البلد إذا كانوا ضعفاء يعطون إلاّ أن يكون في الرسم نص على إخراجهم، وأما من غير نص فلا، وأما تصريف فائد الحبس في جب أو قرار فليس ذلك له، وإنما يصلح ما يعود بمصلحة للحبس غالباً إلاّ أن يُكْري القرار فيعود بمنفعة، فقد يقال بجوازه، وهذه المنفعة للحبس لا لغيره».

وإذا صحّ أن هذه الفتوى هي في نازلة صاحبنا البسطي فقد تكون هي «الحكم» الذي أشار إليه في قصيدة سابقة له في الموضوع إذ يقول متحدثاً عمن منعه حقّه من قصيدة (47):

ودانَ بِمَنْعِ الحقِّ والحقُّ واجبٌ
وهَيَّجَ وجْداً في الحشا وغَليلا
ولو أنّهُ أمْضَى مرفّعَ حُكْمِه
لأَلْفى إلى إمضاءِ ذَاكَ سَبيلا

ولعله يشير إلى أن ناظر الأحباس كان يلتمس السبل إلى عدم تنفيذ الحكم بتعلات مختلفة ـ كما رأينا ـ مع أنه كان في وسعه أن يجد سبيلاً ومخرجاً إلى تنفيذ الحكم بالاستناد إلى فتوى ابن منظور.

وقد عبّر الشاعر في أوّل هذه القصيدة عن عزمه على الرحيل عن بسطة وذلك في أبيات ذكرناها سابقاً، ويقول في آخر القصيدة (48):

لعلّ الذي ألقاه يذهبُ جُملةً
وأبصرُ وجها للسّرورِ جَميلا

بِلُقْيا رجالٍ في مواطنَ طالَما
بنَت وبَنَوْا فَخْرَ الرجالِ أثيلا
وَيُلْفِي لديهمْ من أتاهُمْ بأرضِهِمْ
من الفضلِ حظّاً في النفوسِ جَزيلا
وظلاً ظليلاً في رياض تنعُّمٍ
يُطيبّ مثوىً للفتى ومَقيلا
وسعداً بما يهوى الفؤاد مساعداً
وأنساً وصَولاً بُكْرةً وأصيلا
هنالِكَ ما بي من خُطوبٍ عظيمةٍ
يَخفُّ عن القلْب القريحِ قليلا

فهل كان الشاعر يفكر في برجة وأهلها الذين قصدهم واشتغل عندهم إماماً ومدحهم في شعره، بمثل ما مدحهم ابن الخطيب في نثره، ولقي عندهم ما أمل في الأبيات الآنفة فاستراح خاطره وطابت نفسه كما يقول:

فطابت نفوسٌ طالما قد تغيّرت
وصحّتْ أنوفٌ تشتكي بزُكَام
أمثّلُ شخْصي عندهُمْ في حديقةٍ
سقاها سحابُ الجَوْد صَوْبَ سِجام
فجادتْ بما تَهْوَى النّفوسُ وتشتهي
فما شئتُه أجْنيهِ دون مَلام

وأغلب الظنِّ أن رحيلهُ إلى برجة كان بعد هذه الحادثة، ولعل مما يدل على ذلك أنه يشير إلى صغر سنه في هذه القصيدة:

فقد شيّبَتْ هذي البُشَرّاتِ مَفْرِقي
وسِنّي كما تَدْرونَ سِنُّ غُلام

وقد قدّرنا فيما سبق أن محنة أسره جاءت في أعقاب هذه المرحلة من حياته، والأشعار التي قالها وهو في الأسر تشهد بهذا.

أما الصنف الثاني من شكاوى الشاعر ـ حسب تقسيمنا السابق ـ فيتعلق بمرتّبٍ كان يأخذه من الأوقاف لقاء عملٍ مّا، وقد أشار الشاعر كما سبق إلى أن هذا المرتّب كان «ستين» وأصبح «خمسين» وكان خائفاً من أن يصير «عشرين» ثم حبس عنه، فشكا من ذلك وأكثر من الشكوى، ولجأ إلى القضاة والمفتين علّه يستنصر بفتواهم، ويبدو أن الفتوى في هذه النازلة طلبت من فقهاء فاس فأفتى فيها مفتي المغرب عبد الله العبدوسي والفقيه ابن املّال.

وقد وردت النازلة مرتين في المعيار للونشريسي (7 :12 - 14، 297 - 298) وننقلها فيما يلي:

«وسئل (العبدوسي) رحمه الله عن مرتّب **القيسي** الذي كان يأخذ من الأحباس نحواً من خمسة أعوام ثلاثين ديناراً في الشهر وهو لم يكتب قط في الحبس يوماً واحداً ولا جلس فيه ولا شهد فيه لا في داخل ولا في خارج، هل يجب عليه رد جميع ما أخذ أو يسوغ له؟ ما حكم الله في ذلك؟ بينوا لنا ذلك مأجورين والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

فأجاب: الحمد لله تعالى وحده دائماً. الجواب، و الله سبحانه المرشد للصواب بمنه أنه إن جعل له المرتّب المذكور على القيام بمصلحة من المصالح، من نظر أو إشراف أو شهادة أو غير ذلك من مصالحه فلم يقم بها فأخذه ما أخذ باطل يجب عليه رده لأنه أخذه من غير عوض ولا يجوز للناظر في الحبس السكوت عنه، بل يجب عليه طلبه واستخلاصه منه فإنه مطلوب بضم أموال الأحباس واستخراجها من يد مغتصبها أو آخذها بغير حق، **وقد كان الآخذ المذكور استفتانا في ذلك فأفتيته بأنه لا يجوز له أخذ المرتب إلاّ بشرطين**: أن يكون عن أمر من ولاه الله سبحانه النظر في مصالح المسلمين على حسب ما اقتضاه اجتهاده في ذلك وأن يقوم

بالمصلحة التي جعل له المرتب عليها وإلّا فلا يجوز له أخذه وبالله سبحانه التوفيق.

وأجاب عن السؤال المذكور الفقيه أبو عبد الله محمد بن علي المديوني الشهير بابن أملّال بما نصه: الجواب، والله الهادي إلى الصواب أن يرد ما تحصل بيده من مال الحبس، لأنه أخذه بغير حق ولا وجه شبهة، وهو متعدّ في أخذ ما أخذ من ذلك لأنه لم يغن عن الحبس شيئاً والواجب على من تعين للنظر في الحبس أن يقوم بذلك ويطلبه بذلك ولا يسعه ترك القيام في ذلك، لأن ذلك حق من جملة حقوق الحبس وهو دين متعلق بذمة آخذه من غير شك في ذلك ولا ارتياب والله الموفق للصواب بمنه.

وتقيد بعقبه ما نصه: أشهد الشيخ الفقيه المعظم العلم الشهير الصدر الأوحد الخطير القدوة الفقيه المدرس أبو عبد الله محمد بن أملال المذكور مجيباً فوقه يليه أن الجواب فوقه هو وتقيد بعقبه ما نصه:

الحمد لله أشهد الشيخ الفقيه المعظم العلم الشهير، الصدر الأوحد الخطير، القدوة الحجة المفتي المدرس الأجل الأفضل الأكمل أبو محمد عبد الله بن الشيخ الفقيه المعظم الصدر المعتبر الأشهر المفتي المدرس الأحفل الأفضل أبي عبد الله محمد بن محمد بن موسى بن معطي العبدوسي على نفسه أن الجواب على السؤال المذكور فوقه الذي في أوله: الحمد لله تعالى وحده دائماً وآخره: وخار له بمنه وفضله. جوابه عن المسألة المذكورة الذي تقلده فيها من غير شك في ذلك بمن علم خطه، قيد عليه شهادته في أوائل شوال عام ثمانية وثلاثين وثمانمائة. عرفنا الله تعالى قدره.

جوابه، وبخط يده في النازلة المتضمن لها السؤال أولاً أعلاه جواب ارتضاه، وقال به في النازلة المذكورة. شهد عليه أكرمه الله تعالى بذلك وهو بحال كمال الإشهاد وعرفه وفي رابع شوال عام ثمانية وثلاثين وثمانمائة عرفنا الله خيره».

وجاءت صيغة السؤال عن هذه النازلة في موضع آخر من المعيار مغايرة للصيغة السابقة وهذا نصها: «وسئل سيدي عبد الله العبدوسي عن مرتب القيسي الذي كان يأخذ من الحبس وهو لم يكتب ولم يُحضر متجملاً لا حصيراً ولا زيتاً ولا بناءً ولا أخذاً ولا إعطاء، هل يسوغ له وهل يرد، وهل يجب طلبه؟».

إنّ عندنا من القرائن هنا ما يجعلنا نقدر أن المقصود في هذه النازلة هو صاحبنا، وأول هذه القرائن ذكر القيسي وهي الشهرة التي عرف بها الشاعر، وممّا يؤسف له عدم ذكر اسمه، وثانيها ذكر مرتب الأحباس، وثالثتها تاريخ النازلة فهو ملائم لزمن الشاعر، ورابعتها الإشهاد على الفتوى مما يشعر بأنها للاستظهار بها في غير البلد الذي صدرت عنه، ويستفاد من جواب العبدوسي أن سؤال الفتوى جاء من جهة القيسي ومن جهة ناظر الأحباس معاً.

ويبدو أنه بناءً على هذه الفتوى قطع المرتّب عن الفقيه الشاعر، وقد شكا من ذلك كثيراً.

والحادثة الثالثة التي رأيناه يشكو منها كثيراً أيضاً هي تأخيره عن خطة العدالة والتوثيق، والظاهر من شعره أنه اشتغل بالتوثيق زمناً وكان له حانوت يجلس فيه لذلك، وفي شعره ما يشير إلى هذه الفترة، فمن ذلك قوله يخاطب بعض القضاة (121):

برعي عدول الوقت غيباً ومشهداً
تحلُّ من الفردوس أعلى **الأرائِك**
وقد ساءهم أن يُحْرَموا كل فائـدٍ
لديكَ اغتدى حتّى حضور الترائكِ

فهو هنا يدافع عن حقوق العدول، ومن هذا قوله مخاطباً بعض القضاة أيضاً (113):

بذلُ النّصيحةِ واجبٌ لـكَ سيّدي
فأصِخْ فعنـكَ نصيحتي لَمْ أخْزن
إنّ العـدولَ منَ الشّهودِ يسـوءُكم
جعـلُ المبـرّز منهمُ كـالمَـخْزَني

وكذلك قوله (113):

رأيت عـظيمـة أشفقـتُ مِنْهـا
وشيمـةُ سيّـدي دفـعُ العـظائم
عـدولـكَ في حـوانِتِهمْ قعـودٌ
وغيـر العـدلِ بـالتحليف قـائم

وله في مخاطبة هذا القاضي الذي لم يسمه (73):

يَـا قـاضيـاً يَعْـدِلُ في حُكْمِـهِ
وغَيْـرُهُ في حُكْمِـهِ قَـدْ يجـورْ
مَـالِي بمـا تقضيـهِ إلاّ الـرِّضى
قَضَيْتَ لي بـالحُزْنِ أو بـالسُّـرورْ

وله فيه أيضاً (77):

سِـواكَ إذا يَقْضي يَجـورُ ويَـظْلِمُ
ويرْضَى بهَتْكِ العِرْضِ وهو مُحَرّمُ
وغَيْرُكَ يُعْطي العَوْنَ خَمْسينَ دِرْهماً
ولي ثُلْثُهـا أَوْ دونَـهُ حينَ يَقْسِمُ
أعِـدْ نَـظراً فيمـا أتيتَ بـهِ فَقَـدْ
بَـدا أَنّ هذا الفِعْـلَ مِنْـكَ تَحَكُّم
وبادِرْ زمانَ الحكْمِ مِنْ قَبْلِ فَوْتِهِ
فَما كُلُّ وَقْتٍ أنتَ تَقْضِي وَتَحْكُمُ

وأَحْسَنُ مكْسوبِ الفَتى في زمانِهِ
ثَناءٌ جميلٌ مُنْجِدُ الذكرِ مُتْهِمُ

ويبدو أن طول لسان الشاعر الفقيه وميله إلى النقد اللاذع لبعض قضاة بسطة ومشاكسته لبعض عدولها كانت من أسباب تأخيره عن العدالة ومنعه من التوثيق، وما نظن أن السبب يرجع إلى عدم الكفاءة والأهلية للخطة فقد كان كما يدل شعره عارفاً بالفقه بصيراً بالوثائق، وقد كتب على ظهر نسخته من وثائق ابن سلمون التي كانت عمدة الموثقين في الأندلس والمغرب يومئذ ما نصّه (92):

جـواهـرُ أحكـامٍ ودرُّ وثـائقٍ
بترتيبِها جمعاً أجادَ ابنُ سَلْمونِ
تضمّنَ ذا الديوانُ منها فرائداً
من ابتاعَها بالرّوح ليسَ بمَغبون
تقودُ إلى التحقيقِ مستمسكاً بها
وتصلح للدنيا اقتناءً وللدّين
بها كلّ قاضٍ يكتفي وموثّقٍ
وملكُها يُغْني عن جميعِ الدّواوين(؟)
فخذْها لحكمٍ أو لعَقدِ وثيقةٍ
على ثقةٍ منها بشرحٍ وتبيين
ولا تلتفتْ فيها إلى قول قائلٍ
وكن بالذي جاءتْ به جدَّ مفتون
وطالعْ مَعَ الأيامِ منها حديقةً
من العلمِ بالأحكامِ ذاتَ أفانينِ
ووجهَ الإلَهِ اقصِدْ بفعلِكَ دائماً
تنلْ منه أجراً عاجلاً غيرَ ممنون

كما أنه كان يفتي ويجيب على المسائل الفقهية نثراً ونظماً، فمن ذلك قوله مجيباً بعض الأصحاب (90):

نَحْمَدُكَ اللهُمّ يا خبيرُ
يا مَنْ لهُ في ملكِهِ التدْبيرُ
أَبْدأُ نَظْمي ها هُنا مُجيبا
خِلاًّ صَفِياً طالباً نَجيبا
فيما غَدا بالنظمِ عنهُ سائلي
إذ ذاكَ للودِّ من الوسائِلِ
وذاكَ قسمُ قُلَلٍ ثمانٍ
مِنْ زيتِ زيتونِ مَدَى الزّمانِ
بينَ شريكَيْنِ على المَعْرُوفِ
بما لَدَيْهِما من الظّروفِ
وهْيَ ثلاثةٌ كبيرُها اجْتَمَعْ
فيهِ جميعُهُ وذاكَ ما يَسَعْ
ويسَعُ الثاني ثلاثاً عدداً
والثالث اثنتينِ لَيْسَ زائدا
وقسمُه على السّواءِ دان
وفيهِ للقاسمِ صورتانِ
إحداهُما تعلم دون مَيْنِ
بِمَلْئِنا الصَّغيرَ مرّتينِ
والصورةُ الأُخْرَى بمَلْءِ الأوسطِ
ثمّ بمِلءِ أصغرٍ منْهُ آضْبِطِ
وردِّ ما يَبْقى إلى الكَبيرِ
ثُمّ للأوسطِ من الصّغيرِ

وامْـلاَ الصغيـر بعـدَهُ وهـذِي
تـعـودُ لـلأولَـى بـلا انـتبـاذِ
وصـورةُ ثـالـثـةٌ فـي الـقَـسْـمِ
ظـاهِـرَةٌ يـعْلَمُـهَـا ذو الفَـهْـمِ
تـركتُهـا لِعَـودِهـا لِمـا مَضَى
فـافْهَمْ حَباكَ اللَّهُ منـهُ بـالـرِّضى
فيـا أَخي هـذا جَـوابـي عَمّـا
سَـألتَ عنـهُ لاَ عَـدِمْتَ نُعْمى
والـلَّهُ يُـبْـقـيـكَ خَـلِيَّ الـبـالِ
مِنْ مَضَضِ الأوصـاب والأوْجَـالِ
والـحـمْـدُ لـلَّهِ إلَـهِ الـخَـلْقِ
عَـلَى الهِـدايـةِ لـديـن الـحـقّ

ومهما يكن الأمر فإنّ مستوى شاعرنا في الكتابة والتوثيق كان فوق مستوى بعض الموثقين في بسطة وغيرها يومئذ ، وبين أيدينا صور من عقودهم، بل إن شاعرنا الفقيه كان يسخر من جهل بعضهم وعجزهم، ويبدو أن هذا الصنف من العدول هم الذين تحزّبوا ضده وكادوا له حتى أخّر عن التوثيق كما تسببوا قبل ذلك بالاستحواذ على حقه في الأحباس كما يقول شاكياً في صدر رسالة كتبها إلى بعضهم (93):

إلى اللَّهِ نشكو ما نلاقي من الأَذَى
فمنهُ على الأعداءِ نلتمِسُ الضرّا
فقدْ أفْرطوا في ظلمِنا واهتضـامِنا
وجـاءوا بأمـرٍ لا نطيقُ لَـهُ صَبْرا
قـرأنـا وبـالتـوثيق رُمْنـا معيشـةً
فقدْ عطّلوا التوثيقَ واطّرحوا الإقْرا

ومن قبلُ في الأحباسِ واجبَنا حَوَوْا
ليستجْلِبُوا قصْداً بذاك لنا الضرّا
ومـا عُـذْرُهمْ إلّا تحقّق فَضْلِنـا
وأنّهمُ حسـادنـا إن جلَوا عُـذْرا

وللشاعر قصيدة نظمها عند إحراق حانوته في بسطة ظلماً وعدواناً وذلك بتحريض من خصومه ذكرنا طرفاً منها فيما سبق وقصيدة أخرى طويلة في تعطيل التوثيق ببسطة، وهو يشير في هذه القصيدة على الخصوص إلى فقيهين كانا وراء هذا التعطيل (94):

إلّا فقيهَيْنِ لا كـانـا ولا وُجـدا
في الناسِ لم يجدا مثلَ الذي وَجَدوا

سُرّا لمِصْرِهمـا بعدَ الـظهور بمـا
لِمِصْرِه في الوَرى لَمْ يَرْضَهُ أحَدُ
سُـرّا لهُ وهُـوَ في البلدانِ نُخْبتُها
بـأنْ يُـرى ضُحْكـةً مـا مِثْلُهُ بَلَدُ
سُـرّا لَـهُ بَعْـدَ مـا التـوثيق زَيّنَـهُ
بـأنْ يُعطَّلَ منـهُ الهَدْيُ والـرَّشَـدُ

ونحسب أنه يقصد نفسه حين يقول:

زكّى العـدولُ العـدلَ في بَسْـطَةٍ
لكن سـوى العدلِ بهـا جـرّحَـهْ
فـأُمْـضِيَ الـحكْـمُ بتـجـريحـه
رغمـاً على أنف من استقبَحَـهْ
فاعجبْ لحكمٍ باطـلٍ قَدْ مَضَى
بِهـا وقـاضٍ بِـالهَـوَى صحَحَـهْ

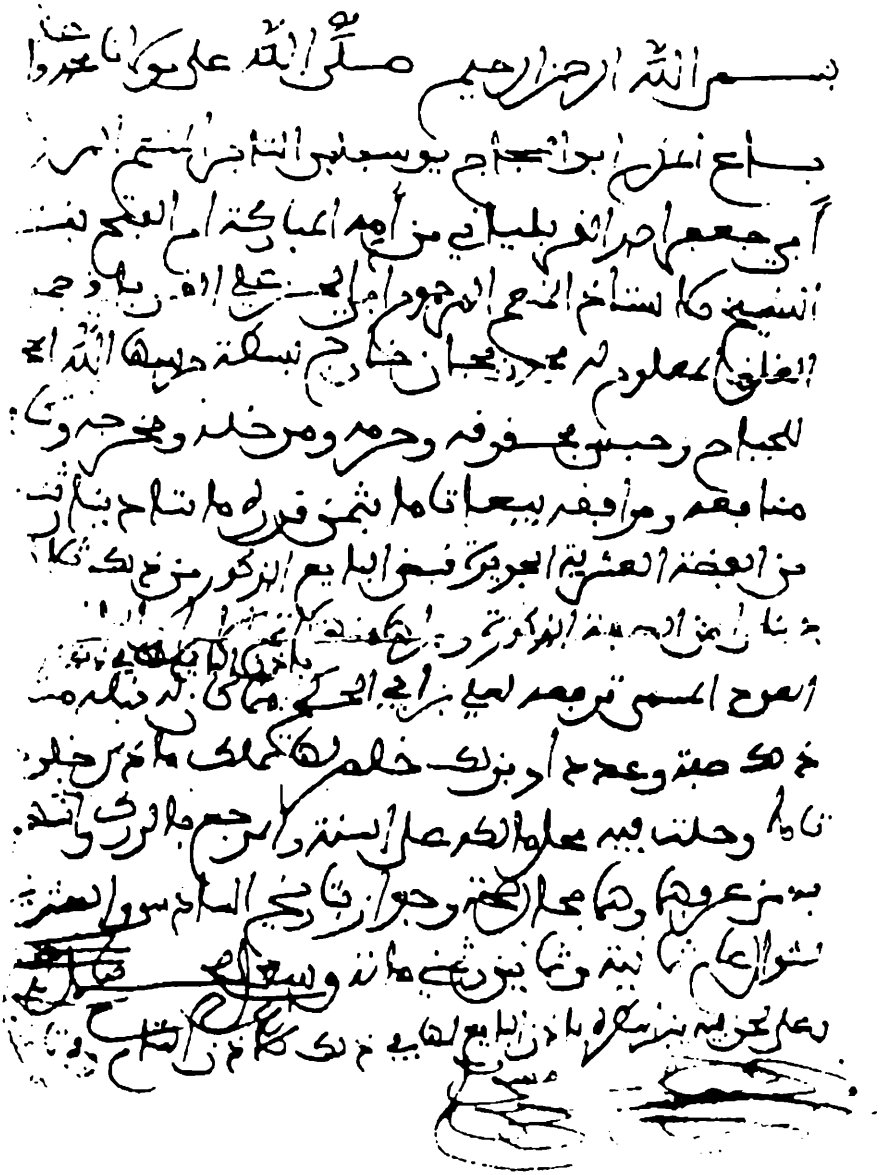

صورة عقد بيع مؤرخ في 888 هـ لعدلين من بسطة عن كتاب وثائق عربية غرناطية : 90-91.

ولا نعرف ما هي الجرحة التي اتهم بها كذباً وبهتاناً وبغياً وحسداً كما يقول (95):

وأصْـلُ ذاكَ على التحقيقِ سبّبَـهُ
ـ فيما فشا عنْهُمْ واستحكم ـ الحسَد

وفي نهاية المطاف قنع صاحبنا بالإمامة والخطابة، وقد زوحم عليهما من صنفه وأهل طبقته كما رأينا مما سبق، ورثى كثيـراً لحال المسـاجد وَإهمالها وشكا من تأخير مرتبات أئمتها والقائمين عليها كما سنشير إلى ذلك فيما بعد.

إن هناك سبباً عامّاً يمكن أن نرجع إليه شكاوى الشاعر زيادة على ما ذكرناه ألا وهو كثرة صنف العدول والأئمة وما يكون بينهم في العادة من تنافس وتزاحم على المناصب في مدينة صغيرة كبسطة مع ظروف هذا البلد الذي كان ثغراً على حدود مملكة غرناطة مهدداً بالسقوط في كل حين.

وقد أشار القلصادي، وهو معاصر القيسي وبلديـه إلى كثرة أهـل الطلب والعلم وتنازعهم على المناصب في بسطة والقرى المجاورة لهـا فقال: «وكان هذا وقت كانت بسطة وسوق العلم فيها قائمة، وكذلك كانت الحصون التي ببسطة، الغالب على أئمتها أن يكونوا من أهل العلم، وقد كان يقع التنازع بين أهل الموضع فيمن يكون الإمام منهم، وقد أدركت من ذلك وشاهدته في حصن شوجر وقنالش... وأما الآن (851هـ):

فقد هَزُلَتْ حتى بدا من هَزالِهـا
كلاها وحتّى سامَها كلُّ مفلس[6]»

وإشارة القلصادي إلى ما أصبحت عليه الحالُ في بسطة والتي أوجزها بإنشاد البيت المذكور سنجدها مبسوطة في شعر القيسي الذي ينتقد فيه بعض القضـاة والعدول والأئمـة والمقـرئين في الفتـرة التي أشـار إليهـا القلصادي.

ولعلّ من أسباب محنة الشاعر هذه تلك الأزمات الإدارية والمالية المتعاقبة بتعاقب الدول وتتابع الفتن، وقد لا نستبعد الأسباب السياسية نظراً لمواقف الشاعر وآرائه الجريئة التي سنشرحها فيما بعد.

ومهما يكن الأمر فقد كان لما لقيه فقيهنا الشاعر من أهل بلده على العموم ومن الصنف الذي ينتمي إليه على الخصوص انعكاس على شخصيته ونفسيته، فبعد أن كان في شبابه يتغنى ببسطة أصبح يذمها ويذم أهلها كما رأينا فيما سبق، وبعد أن كان اجتماعياً يكثر من مخالطة الناس واتخاذ الاخوان ومكاتبتهم والوفاء بحقوقهم صار في آخر حياته ـ بعد أن ناله الأذى من بعضهم ـ يدعو إلى العزلة والحذر من الأصدقاء، وله بيتان طريفان صور فيهما حاله مع الأصدقاء وهما قوله (93):

حصَلتُ من الإخْوانِ إخْوانِ جِيرتي
ببسْطَةَ مِنْ علْمِ الحِسابِ عَلَى شَرْح
ففي الجَمْعِ دهراً لم أزلْ من حُقوقِهِمْ
وهم دون ذنب من حقوقيَ في الطّرْح

وممّا قاله في التحفّظ من الأصدقاء (144):

إنْ شئتَ من دُنْيَاك حسنَ تخلّصِ
لا تطمئنّ إلَى صديقٍ مُخْلِص
وإذا تخالِطُهُ [كَثِيراً] عُدّهُ
في الناسِ كالمجذومِ أَوْ كالأَبْرَص

والزَمْ سكوتَكَ عندَهُ وإذا اقْتَضَى
منكَ الكلامَ بما اقتضاهُ تربّصِ
وانظُرْ محاسنَهُ التي يزهو بها
ويتيهُ إعجاباً بعيْنِ الأحْوصِ

إنّ الصـديقَ ليستحيـلُ تغيّـراً
فيجيءُ من عُـدْوانِـهِ بـملخَّصِ
كَمْ مِنْ صـديقٍ سَرّني بتعـظّم
لـمّـا تغيّـرَ سـاءني بـتنقُّصِ
فوددتُ لو أن الصـداقةَ لم تكُنْ
ولـو آنني أحداً بهـا لم أخْصُصِ
وعلى الوفاءِ بشـرطِها لم أعْتمِـدْ
وعلى القيامِ بحقِّها لَمْ أحْـرِصِ

وقال في المعنى نفسه (144):

لا تلتفِتْ لصـديق سَـرّ ظـاهِـرُه
فسـوءُ بـاطنِـه لا شـكّ يعكسُـهُ
واحـذرْ توهُّمَـه منـكَ الـودادَ لَـهُ
أو أن يشاهدَ يـوماً منـك يونسُـهُ
وذاكَ تُـدرِكُـه بـالقُـرْب تَقْـطَعُـه
عنـهُ كمـا مِنْـهُ بـالإبعـادِ تُؤْيسُـهُ
فالأصلُ يُغْرَسُ قربَ الأَصلِ تُبْصِرهُ
يكـونُ دونَ الذي بـالبُعْدِ تَغْـرِسُهُ

وقد شكا من جحود الأصدقاء وتأسف على الغبن والانخداع فيهم (145):

وَدِدْتُ أناساً لم يراعوا الودادَ لي
ومـا سمْتُهمْ بالسّـوءِ حبّةَ خَـرْدَلِ

وَعَـابـوا وفـاءَ العَهْـدِ مني لوُدِّهم
عَلَى مُقْتَضى طَبْعِي وفاء السَّمَوألِ

وقــال (135):

أسـفـاً لِـصِـدْقـي فـي هَـوى
مَنْ فِي هَـوَايَ جهلتُ صـدْقَـه
وبـذَلْـتُـه مَـحْض الـودا
دِ وكـانَ مـنْـهُ البـذْلُ مـذقَـهْ

إذْ مـذْهـبي مـذْ كـنـتُ مَـنْ
لـم يَـرْعَـنـي لـم أرْعَ حـقَّـهْ

وفي معنى البيت الأخير يقول في موضع آخر: (139):
ارعَ الـودادَ لمَنْ رَعَى لـك وُدَّهُ
ولتَجْـزِهِ مِـنْـهُ بِمـا هُـو جـازِ

ويقـول أيضاً (138 - 139):
إذا الـمـرءُ أكـرمْتَـه دائـمـاً
وقـابـلَ ذلـكَ منـكَ بعَـكْسِـهْ
فـدعْـهُ ومـا اختـارَ من فـعلِهِ
ففيـه دليـلٌ على خُبْثِ نَـفْسِـه

وقال في المعنى نفسه (149):
صافِ الصديق وكن منه على حذرٍ
وعَدّه مثل ما قد عِفْتَ من قَـذَرِ
أقلِلْ [كَلامَكَ] لا تُكْثِر بحَضْرتِـهِ
وصمَّ سمعَكَ عمّا قـال مِنْ هذَرِ

إنّ الصـــديقَ إذا أَبْـــدَى تـغيّـــرَه
لم يُبْقِ ممّـا بـه يـأتي ولم يَـذَرِ

وقال في بعضهم (74):

وُجُـومُ وَجْهِكَ إن ألقـاكَ يُخْبرني
عمّا بقلبكَ مِنْ حقْـدٍ ومِنْ حسَدِ
سَرائرُ القلبِ وجْهُ المرءِ يُظْهِرُهـا
إلى الوُجودِ فلا تَخْفى على أحدِ

وله أبيات قالها مرغّباً في العزلة كقوله (79):

ولمّا رأيتُ البغيَ في الناسِ ظاهِراً
ولم أرَ منهمْ جـانحـاً لمَتـاب
وكنتُ خَصَصْتُ البعضَ منهم بخُلّةٍ
عتبتُ عليهـا النفْسَ أي عِتـاب
رغِبتُ بنفسي عن مـراعـاة وُدّهِم
وأَصْبحـتُ عنـهم أمّـةً بـكتـاب

وقـولـه (75):

والـلّهِ مـا يـصِـلُ الـفَـتـى
فـي ذا الـزمـانِ إلـى مُـرادِه
إلاّ إذا تـرك الـوَرَى
طُـزّاً وآنَسَ بـانـفـراده

وما نحسب الشاعر الفقيه نَظمَ في هذه المعاني بوحي من الأدبيات المعروفة في الصداقة والصديق، ولكنّه قال ما قال بعد محنة شديدة وعن تجربة مريرة أو علم بالناس كما يقول (101):

إذا أحببْتُ أو أبْغَضتُ شخصاً
فَعَنْ علمٍ بهِ حبّي وبُغْضِي
على أنّي حقيرَ القوم أرْعَى
وأنّي عنْ عظيمِ الذنب أُغْضِي

على أن ديوانه حافلٌ بالإخوانيات وما يتصل بها من معاني حفظ الوداد ورعي الوفاء، وكان في شبابه يذكرُ عَهْد الدراسة وصحبة الرفقاء كما رأينا من نماذج سابقة، وكان يتغنى بمجامع الأصحاب وأيام الأنس كقوله (71):

رَعَى اللَّهُ يوماً طالَ عَهْدٌ بمثلِهِ
وعهدي بأيام السرور طويلُ
سقانا كُؤوسَ الأُنْس في فَحْص بَسْطةٍ
إلى أن دنا مِنْه وحانَ رَحيلُ
وما بَعْضُنا للبعْض عندَ اعتبارِنا
لَصِدْق الهَوى إلاّ أخٌ وخَليلُ

وقوله في وصف نزهة أخرى بحمّة صالحة (149):

لِلَّهِ لَيْلَتُنا بحَمّةِ صالحَهْ
والنَفْسُ فيها بالتنعّمِ فارحَهْ
بتْنا بِها في فِتْيةٍ مِنْ حُسنِهم
في روضِةٍ منّا اللواحِظُ سارِحَهْ

أنا مدنفٌ مِنْ عهدِها مُضْنيٍ الحشا
عـانٍ أُشبّـهُ ليلَتي بـالبـارحَـهْ

وقال يذكر ليلة فرح وأنس اجتمع فيها شمل الأحباب (62):

ماذا جَنَيْتِ على قَلْبي من الترَحِ
ومنْ عُموم الهوى يـا لَيْلَةَ الفرح
حينَ اغْتَدى الشّملُ بالأحباب مُجْتَمِعاً
والأُنْسُ منّـا قَـريبـاً غَيْـرُ مُنْتَـزِح
وَقَدْ شَرِبْنـا شمولاً هَيّجَتْ شَغَفـاً
مِنْ خَمْرة الوصلِ لا مِنْ خَمْرَةِ القَدَح
عَلَى بِسَـاطٍ بَسَـطْنَـاهُ لِكُـلِّ مُنىً
محبـوبَـةٍ وَهَـوىً للنّفسِ مُقْتَـرَحِ
وَمُنْشِـدُ الشّعْـرِ يُغْـرينـا بنَغْمتِـهِ
إذا شَـدا بسـريـع أو بمُنْسَـرِحِ

وتجدر الإشارة إلى جانبٍ مهم في علائق شاعرنا بإخوانه وأصدقائه ألا وهو حرصه على مكاتبتهم ومخاطبتهم ومعاتبتهم إذا تأخرواعن مكاتبته، ونلاحظ أن عدداً من قصائده ومقطعاته خاطب فيها أصدقاءه أو صدّر بها رسائله وكتبه إليهم، ولعلّ هذه ـ لو حفظت ـ كانت تفيد في إلقاء مزيد من الضوء على حياته.

ونريد أن نطرح في آخر هذا الفصل جملة أسئلَةٍ وهي: لماذا لم يرحل الشاعر من بلده بسطة إلى العاصمة غرناطَة كما فعل القلصادي بعد رجوعه من رحلته المشرقية، وكما فعل جاره أحمد الوادي آشي وأبوه وغيرهما من الأعلام الذين كانت تجتذبهم الحضرة ودار الملك؟ ولماذا كانت محاولاته في الخروج من بسطة تقتصر على الاتجاه إلى جهات أُخْرى

كبرجة وبرشانة والمرية ومالقة؟ فهل كانت أدواته العلمية والأدبية تقعد به عن مزاحمة قُصّاد غرناطة أم ثمة أسباب أخرى؟.

نطرح هذه الأسئلة لأنا لم نجد في ديوانه ما يشعر بأي وجود له في غرناطة، وهو أمر غريب حقّاً، ونحسب أنه من أسباب خمول ذكره وعدم اشتهاره، وإلاّ فإنه في فقهه وأدبه لم يكن دون عددٍ ممّن ذكرتهم كتب التراجم من أهل زمنه.

وقد وجدناه في بعض شعره يتشوق إلى الحج ويحن إلى الديار المقدسة، ويحلم بذلك قال: «رأيت في المنام، كأني دخلت المسجد الحرام. فقلت من غير روية (93):

يا بُقْعَةً شرَّفَها اللَّهُ
ماذا بحُبّي فيكِ أَلْقاهُ
بالقُرْبِ مِنْ مَغْناكِ يَبْغِي الشِّفا
مُتَيَّمُ القلْبِ بِشَكْواهُ»

فلماذا يا ترى لم يحج أو يرحل إلى المشرق أو المغرب شأن كثير من الأعلام يومئذ، أم أن شروط الاستطاعة والرّحلَة لم تَكُن متوفّرةً لديه؟.

مهما يكن الأمر في هذا كله فإن القرائن تدلّ على أنه ظل مقيماً في بسطة إلى أن وافاه الأجل المحتوم في تاريخ لا نستطيع تحديده.

الحـــواشي

(1) توجد نازلة في المعيار تنطبق على ما يذكره الشاعر هنا وهي: «وسئل القاضي أبو عمرو ابن منظور عن إمام مسجد وأضيف لذلك المسجد المذكور محضرة يقرىء فيها الأولاد، وصدر أمر مولانا السلطان بدرهمين في اليوم ليتقوى راتب ذلك المسجد وانفتحت فوقها محضرة ثانية فتفرقت الأولاد ونفرت أفيجوز له أن يؤاجر على ولدين أو ثلاثة أو أقل أو أكثر أو يتركها؟ فأجاب: يجوز للإمام أن يبقى في محضره يقرىء كتاب الله وإن لم يبق إلاّ واحد أو اثنان ويأخذ من عين له السلطان، فهذا جواب ما سئل عنه بمحوله» المعيار 7 :156 ومما يؤكد هذا الافتراض التوافق في المبلغ وإشارة الشاعر إلى أمر السلطان.

(1م) كذا في الأصل، ولعلها الأحرش شهرة شخص.

(2) الخراجة: ربما يقصد بها بوابة صغيرة أو مسرَباً للماء.

(3) انظر قصيدة ابن الأزرق في نفح الطيب، وكذلك قصيدة العريبي.

(3م) قول البسطي يشبه قول أبي الحسن الفالي الذي اضطُرّ إلى بيع نسخة من كتاب الجمهرة بخط مؤلفها:

أنِستُ بهـا عِشرينَ عـاماً وبِعْتُهـا ... وقَـدْ طـالَ بي وَجْـدي بِهـا وحنيني
ومـا كـانَ ظَـنّي أنّـني سَـأبيعُهـا ... وَلَـوْ خلّدتْني في السّجـونِ ديـوني
ولـكنِ لـعـجْـزٍ وافـتـقـارٍ وصِبْـيـةٍ ... صِـغـارٍ عليهم تـسـتـهـلّ شؤونـي
فـقلتُ ولـمْ أملِكْ سـوابقَ عَـبـرةٍ ... مـقـالـةَ مكْـوي الـفـؤاد حـزيـن:
وقَـدْ تُخرجُ الحـاجاتُ يـا أمّ مـالـكٍ ... كَـرائـمَ من رَبٍّ بـهـنّ ضنيـنِ

وقول الحدّاد المهدوي:

قـالـتْ وأبْـدَتْ صـفـحـةً ... كـالـشّمسِ مِـنْ تَـحْـتِ الْـقِـنـاعْ
بـعـتَ الـدفـاتـر وهـي آ ... خِـرُ مـا يـبـاعُ مِـنَ الْـمَـتـاعْ
فـأجـبـتُـهـا ويَـدي عـلى ... كـبـدي وهـمّـتْ بـانـصِـداعْ
لا تـعـجـبـي مـمـا رأيْـ ... ـتِ فـنـحـنُ في زمـن الـضّـيـاعْ

(4) من فقهاء هذا العصر ومفتيهم. ترجمته في نيل الابتهاج: 324 وشجرة النور الزكية: 262.

(5) القشتال كلمة عجمية معناها الحصن أو برج الحراسة والمراقبة.

(6) رحلة القلصادي: 91 - 92.

(7) حمة صالحة من الحمّات التي كانت تقصد للنزهة والاستجمام والاستشفاء وكان بها حصن وقد استولى عليها النصارى في شهر رمضان من عام 890هـ. انظر أخبار العصر: 382 في ذيل آخر بني سراج وانظر كذلك في حمّة صالحة «مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب: 93 والمعيار 7 :94.

الفصل الثالث

صلاته بمعاصريه

ممّا يلفت النظر أن شاعرنا البَسطي ـ الذي لم نعثر على ذكره أو شعره في المصادر الموجودة ـ لم يكن نكرة في عصره أو مجهولاً بين أعلام وقته في الأندلس، والدليل على هذا ديوان شعره، فهو حافلٌ بأسماء الأعلام الذين عرفهم في مختلف أطوار حياته، ومنهم بعض شيوخه، ورفاقه زمن الطلب والدراسة، ومعاصريه من القادة والقضاة والأئمة والعدول وأهل الأدب، وجلّ الذين سماهم في ديوان شعره لهم ذكر أو إشارة في كتب التراجم والتاريخ، وإنّ من شأن هذا كله أن يعوّضنا في الجملة عن فقدان ترجمته، ويعرفنا بظروف عصره، ويحدّد لنا بعض التواريخ مِنْ حياته.

ومع أنه قضى معظم عمره في بسطة ولم يخرج منها إلّا قليلاً كما يبدو من ديوانه فقد كانت له صلات كثيرة بأهل عصره في بلده بسطة وجارتها وادي آش وغرناطة وبرجة وبرشانة والمرية والمنكب وغيرها.

ويرد ذكر الاعلام في الديوان في معرض مخاطبة الشاعر إياهم بشعره

في مختلف الأغراض والمناسبات؛ ومن هنا يمكن عد ديوان البسطي في المصادر التاريخية واعتبار شعره شعراً وثائقياً.

ـ إن أول الأعلام الذين نصادفهم في ديوان البسطي هو «الشيخ الأستاذ أبو عبد الله البياني» وللشاعر في مدحه ومخاطبته في أغراض مختلفة نحو اثنتي عشرة قصيدة ومقطوعة، وقد أشرنا إلى بعضها فيما سبق، ورأينا أنها تعرّف به أكثر من ترجماته القصيرة في رحلة القلصادي والضوء اللامع ونيل الابتهاج، كما رأينا من خلال بعضها تطور العلاقة بين الرجلين، بعد أن حُبس عن الشاعر الفقيه مرتبه من قبل البياني ناظر الأحباس، (والغالب أنه هو نفسه شيخ الشاعر وممدوحه).

وفيه ـ على ما يبدو ـ يقول مشيراً إلى سبب ذلك التطور من مدحه إلى الشكوى منه (76):

أصبحَ الأستاذُ عنّي معرضاً
وغدا باطنُه لي قد فَسَدْ
فأطلتُ البحثَ عنْ موجب ذا
كَ فلم ألْفِ له غير الحسَدْ

وقال فيه أيضاً (76):

أيّها المُعْرِض عَنّي ما الّذي
جئْتُ حتّى صرتَ عنّي مُعْرِضا
لَسْتُ ذِمّياً ولا مُبْتدِعاً
فَلِماذا أيُّها العَدْلُ الرِّضى

ولعلّه أعْلنَ ندمه على ما مدحَهُ به قديماً في قوله (76):

أقيلوني فَقَدْ أخطأْتُ فيما
مَدَحْتُكُمُ بِهِ خِطْأً كَبِيراً

وإنْ مِلْتُمْ إلَى الإعْـرَاضِ عَنّـي
فبـالإعْـرَاضِ تُلْفـوني خَبيـرا

وفي قوله (76):

جُـرْتَ فـي الإعْـرَاضِ عَـنّـي
أيّـهـا الـشـيـخُ الـذّمـيـمُ
بَـعْـدَ مَـدْحـي لـكَ جُـهْـدي
إنَّـكَ الـخَـبّ الـلئـيـمُ

ـ وإذا سرنا في ترتيب الاعلام على حسب ورودهم في الديوان فسنجد ـ بعد البياني المذكور ـ «الوزير الحاجب أبا إسحاق إبراهيم بن عبد البر»، وأخباره مذكورة في المصادر المسيحية[1]، إذ كان رجل الدولة في عهْد أبي عبد الله محمد بن نصر الملقب بالأيسر حيث سفر له لدى ملك قشتالة، وقاد الجيش في عدد من الوقائع، ودبر أمور الدولة، وكانت له مواقف معلومة.

وفي ديوان البسطي قصيدة في مدحه «أيام ولايته بسطة» وقطعةٌ جعلها صدر رسالة كتب بها إليه، أما قصيدة المدح فيفهم من مطلعها أنها أنشئت في مناسبة عيد (20):

بشائرُ هـذا العيدِ بـالعَوْد تُفْصـح
لتدبيرِ أمـر الملك إذْ بكَ يصْلحُ

والمطلع يشير إلى الأمل في عودة الوزير الحاجب إلى تدبير أمر الملك في غرناطة، والظاهر أن القصيدة قيلت بعد خروجه من غرناطة، ويمكن أن يكون ذلك بعد خلع الأيسر سنة 1445م، وفي آخر القصيدة إشارة إلى شيءٍ من ظروف إبعاده عن غرناطة وولايته بسطة:

ولـكنَّ لـلأيـام شـيمـةَ غـادرٍ
إذا حسَّنتْ حـالاً تعـودُ تُقبِّـحُ

فغـارتْ عليـه لا لنقصٍ ووصمـةٍ
ولكِنْ طبـاعٌ ليسَ عنهـنّ تبـرَحُ

إن هذه القصيدة تؤكّد ما جاء في المصادر المسيحيـة التي تشيد بشجاعة الرّجل ودهائه وحسن سياسته وتدبيره:

ومَنْ كابن عبدِ البَرّ ربّ فضائلٍ
بها الدّهرُ يُزْهى والطروسُ تُوشّحُ
وزيـرُ أميـرٍ شـدّ بـالمُلْكِ أزْرَه
وحاجِبُ سُلْطَانٍ له الحَجْبُ يَجْنَحُ

وقد أفاض عليه الكثير من صفات الكمال وقال إنه جمع فضائل شتى يكل اللسان عن وصفها، ونقتبس من القصيدة قول الشاعر وقد يكون فيه شيء من الصدق:

يمينـاً لمـا أَبْقَى الجـزيـرة غيْـرُه
يُقَـدَّسُ في أرجـائهـا ويُسَبَّـحُ
بحفظٍ ولحظٍ واحتيـاطٍ وعـزمـةٍ
تـطيبُ لنا أخبـارُهـا حين تُشـرَح

وتذكر المصادر المسيحية أنه قاد الجيش مراراً قبل توليه الوزارة وفي أثنائها، وهذا ما يؤيّده قول الشاعر:

فسَلْ عـن جُموعٍ للعِدى قد أبادَها
تَجدْ مُخْبِراً في كلِّ قُطرٍ يُصـرِّحُ
عِـظامٌ وأشْـلاَءٌ وهـامٌ كـريهـةٌ
لَها الأَرْضُ مَرْمىً لا تزالُ ومَطْرَحُ
يَضيقُ بِمَـا مِنْهَا أُتِيـح لَهُ الْفَضَـا
فَتَمْـلأُهُ أَنْـوَاعُهَـا وَهْـوَ أَفْيَـحُ

فللّهِ عينـا مَنْ رآهُ لَـدَى الْـوَغى
يُجـدِّلُ أبـطالَ الأعـادي ويَجْـرَحُ
عَلَى ظهرِ مركوبٍ يُباري إذا جَرَى
لخفّتِـه ريـحَ الصَّبـا حينَ تَنْفَـح
رعَتْ عينُـه الإسْـلامَ واللَّهُ عـالمٌ
لِيَحْفَـظَهُ يَـومَ السّـرائـرُ تُفضَـح

وفي الديوان قطعة مهّد لها الشاعر بما يلي: «وقلت أيضاً مخاطباً ابن عبد البر وصدّرت بذلك رسالة كتبت بها إليه»: وهو يعرب فيها عن شوقه إليه وحبه له (67):

وحبُّ ابنِ عبد البرّ منْـذُ غرستُـه
بقلْبي جنيتُ الجاهَ والعزَّ من غرسي

ونحسب أنه ابن عبد البر الوزير، وقد يكون الشاعر قال هذه القطعة بعد رجوع المذكور إلى الوزارة في غرناطة إثر مبايعة مخدومه السلطان الأيسر من جديد سنة 1448م.

وقد تحدثت المصادر القشتالية عنْ نهاية هذا الوزير المفجعة في غرناطة بعد هزيمته المنكرة في كائنة لورقة التي يسميها المسيحيون Al Porchones ووقعت يوم الجمعة 25 صفر سنة 856هـ (17 مارس 1452) واستشهد فيها خيرة المجاهدين مِنَ المغاربة وغيرهم، وقد رثاهم شاعرنا بتخميس مؤثر سنذكره فيما بعد.

ولسنا نعرف هل ثمة دلالة سياسية في مدح الشاعر هذا القائد الوزير الذي ينتمي إلى عائلة غرناطية كان لها ـ طوال قرن ونصف تقريباً ـ دور سياسي بارز، فقد كان جده أبو إسحاق إبراهيم بن فرج ابن عبد البر وزيراً ليوسف الأول، كما أن ولد هذا القائد خدم دولة محمد الأخير (بوعبدل)، ويذكر المؤرخون القشتاليون أن إبراهيم ابن عبد البر كان زعيم حزب بني

سراج أصحاب الأدوار المعروفة في آخر العهد النصري.

ـ وبعد إعدام إبراهيم ابن عبد البر في السنة المذكورة أسند الأيسر مقاليد حكومته إلى أبي يحيى محمد بن عاصم ولد القاضي المشهور ابن عاصم صاحب التحفة وغيرها من المؤلفات، وهو العلم الثالث الذي نجده حين نتصفح الديوان بالترتيب، وهذا نص ما فيه (22):

«وقلت مخاطِباً بعض الأصحاب ومادحاً الشيخ الرئيس الكبير أبا يحيى ابن عاصم» ويبدو من التحلية أن القصيدة قيلت بعد توليه الوزارة أي بعد سنة 856هـ وترجمة أبي يحيى الذي كان ينعت بابن الخطيب الثاني موجودة في نفح الطيب وأزهار الرياض ونيل الابتهاج وغيرها وأخباره مبثوثة في شرحه المخطوط على تحفة الحكام لوالده والمعيار للونشريسي، وغيرهما، ومن مؤلفاته تقييد في التعريف بأهل بيته، وكتاب جنّة الرضى، وكتاب الروض الأريض وغير ذلك، وذكر في ترجمته أنه «تولّى اثنتي عشرة خطة في وقت واحد من القضاء والوزارة والكتابة والخطابة والإمامة وغيرها»[2] وفي ترجمته أيضاً أنه «توفي على ما قيل ذبيحاً من جهة السلطان»[3].

أما قصيدة البسطي فتتألف من 30 بيتاً ومطلَعها (22):

ما كنتُ أحسبُ أن الحسنَ يلعَبُ بي
حتّى انجلَى كَتَبُكُمْ للعينِ منْ كَثَبِ

وهو يخاطبُ بها بعض أصحابه المتصلين بالرئيس ابن عاصم ـ ولعله ابن الأزرق الشاعر لا الفقيه الذي له شعر في مدح الرئيس المذكور ـ ويبدو أنه بعث قصيدته من بسطة إلى صاحبه في غرناطة، وفي قسمها الأول وصف ومدح لكتابة صاحبه، وتذكر لزمن المعاشرة:

ذكّـرْتَني زمنـاً قَضّيتُ فيـه مُنىً
منْ قُرْبِكم ذكرُها بالقلبِ لم يَغب

وأما القسم الثاني فأوله إشارة إلى رغبة الرئيس في شعر الشاعر

البسطي ليدرجه ـ على ما يظهر ـ في كتابه ««الروض الأريض» الذي ذيل به «الإحاطة» لابن الخطيب، قال مخاطباً صاحبه المذكور

أشرتَ فيهِ إلى قصدِ الرئيس أبي
يحيى بْنِ عَاصِمَ أعلى السّادةِ النُّجُبِ

وبعد هذا مدحٌ مسهب للرئيس، وخاتمتها تشرح الموضوع

وما أشار بهِ من بعْثِ شعريَ قَدْ
وافـاهُ مـا بينَ وحْشِيّ ومخْشَلَبِ
ولـو قـدرتُ على درٍّ أتيتُ بـهِ
إلى حِمـاهُ وما يمّمتُ بـالحَصَبِ
لكنّ طـاقـةَ مثلي غيـرُ خـافيـةٍ
والـذَّر نعـذرُه في خسّـة الجَلَبَ
وقـد تردّدْت في إرسـالـهِ خجـلاً
منه وعُذْري لديه واضـحُ السببِ
وقلتُ حـاشاه حـاشـاه يشينُ بـهِ
ديوانَ علمٍ أتى من أعجب العجبِ

وهذه القصيدة تؤكد أموراً أربعة سبقت الإشارة إلى بعضها، أولها أن الشاعر عاش في بلده بسطة لا في غرناطة، وثانيها أنه كان مشهوراً لدى معاصريه، ومعدوداً من شعراء وقته. وثالثتها أن له ترجمة في كتاب الروض الأريض لابن عاصم، ولا نعرف منه الآن إلّا مقتبسات في نفح الطيب وأزهار الرياض وغيرهمَا، ورابعتها تواضع الشاعر البسطي ورأيه الصريح في شعره وهُو الرأي الذي عبر عنه في مقدمة ديوانه فقال: «إن شعري منحط عن الدرجة المتوسطة، ومع انحطاطه عنها فنفسي به مغتبطة، تكثر دائماً من إنشاد أبياته، وتوثر استجلاء باهر أنوار إياته، وتردِّدُ على السمع رجاء النفع عجائب آياته، وترفع باليمين منشور راياته، كَلَفا بمحاسنه الأدبية

وإعجاباً، وشغفاً بما تحمله للنفس من الارتياح والأنس وتوجبه إيجاباً».

ولشاعرنا قصيدة أخرى قالها أيضاً «مخاطباً الرئيس الوزير الحاجب أبا يحيى ابن عاصم المذكور من قبل» ومطلعها (62):

أنتَ الـدّواءُ إذا ما أعضـلَ الداءُ
ورامَ هَـضْمِـيَ حُـسّــادٌ وأَعْــدَاءُ

وقد رفعها إليه من بسطة مستنصراً به على خصومه في بلده، وقد أوردنا بعضها فيما سلف.

ـ أما الشخصية الرابعة في الديوان فهي شخصية «القاضي الرئيس أبي حامد ابن الحسن»، وللشاعر في مخاطبتهِ ومخاطبة ولده أبي جعفر أحمد أكثر من عشرين قصيدة وقطعة، ويستفاد من شعر البسطي أن أبا حامد المذكور كانَ قاضياً في بسطة، وفي هذا يقول مخاطباً إياه (29):

لمّـا حللتَ بقُطرِ بسـطةَ قـاضيـاً
أضحتْ معـالمُه بعـدْلِكَ مُشْـرِقَـهْ
وكسـوتَـه ثَــوبَ الفَخـارِ تفضّــلاً
فملكتَ مغـرَبَـه كمِلْككَ مَشْــرِقَـهْ

وتدلّ لهجة أشعاره فيه وفي ولده على نوع من الصلة الوثيقة بهما، فقد كانت بين الشاعر وبين الرجلين مجاوبات شعرية، ويدل على ذلك قوله لما توصّل بقطعة شعرية من أبي حامد (28):

تنشّقْتُ مـنهــا لـلودادِ نــواسمــاً
يفوقُ شذاها المسكَ خالطه النَّدُّ
يمينـاً لقدْ أعجـزتَ قسّاً بنـظمها
فليسَ لـه فخرٌ بنـظم ولا وخْدُ؟

وعـذراً لِمنْ رامَ الجوابَ ففـاتَـه
فجـاءَ بنـظمٍ ضعفُـه مـالـه حَـدُّ

ولعلّ مما يدلّ على المداخلة ورفع الكلفة بينهما مخاطبتـه بهذه الأبيات التي ذكر في عنوانها أن لها حكاية (34):

مــولايَ إنّــيَ أَهْــوَى مبيتَ نَجْـلكَ عنــدي
ورغـبتـي مـنــك أن لا تخصّ بــالـردّ قَصْــدِي
لا زِلْتَ في خفضِ عيشٍ ووصــلِ عــزّ بسَعْــد

ويبدو أن نجل القاضي هذا كان من أقران شاعرنا أو أكبر منه وله فيه قصائد ومقطعات «على سبيل التغزّل فيه» ومنها قصيدة ضمن أوائلَ أبياتها حروف كنيته واسمه وما به يعرف أي أبو جعفر أحمد بـن الحسن[4].

وبعض هذا الغزل صريح، ومنه هذان البيتان (34):

أنْــتَ رُوحي وراحَــتي ثُــمَّ راحي
ومُحيّــاكَ في الـدُّجى مِصْبــاحي
إن صَحا مِنْ شراب سِحْرِ هواكُمْ
مَنْ هَــواكُمْ فـإنّني غَيْــرُ صـاحِ

وبعضهُ الآخر إعجاب بجمالِه وحُلْو شمائله وباهر أدبه، كقوله من قصيدة مطلعها (32):

أهــلاً بيـومِ ســرورٍ رائق حسن
نعِمتُ فيه بظبيٍ من بني الحسنِ
ما شئتَ من أدبٍ غضّ ومن حسبٍ
قَدْ لُزّ مَعْ شُهُبِ الأفلاك في قَرنِ
الحِفْظُ حِلْيتُــه والفَهْـمُ شيـمتُـه
والفَضْل وصفٌ له إن بان لم يَبنِ

يستحضرُ الشعرَ عن طبعٍ يزَيّنه
أقولُ إن دامَ في الإنشادِ يقتلني
أذابَ روحي بما أملاهُ منْ أدبٍ
وشاهدي لعَذولي صفرةُ البدَن
إني اختبرتُ معانِيهِ التي بهَرت
فلم أجدْ مثلَه في اللّبّ والفِطَن
مدّ الإلَهُ لَهُ في العُمْر منفسحاً
حتّى يَحُلَّ محلّ الجَدّ ذي المِنَنِ
ويجتنِي وهو فذٌّ كُلَّ مَكْرُمَةٍ
تُقِرُّ عينَ أبيهِ فاضلِ الزّمَن

أريد أن استنْتج من هذه الأبيات أن أبا جعفر أحمد بن الحسن هذا هو حفيد القاضي أبي الحسن النباهي قريع ابن الخطيب المعروف الذي عاش حتى متم القرن الثامن، ويبدو أن حفيد النباهي وولد القاضي أبي حامد المذكور قال الشعر وهو صغير، فقد أوردَ مؤلف مظهر النور الباصر ثَلاثَ قصائد لمن اسمه «أبو جعفر أحمد بن الحسن النباهي»[5] في مدح يوسف الثالث الملقب بالناصر الذي ملك حتى سنة 820[6]هـ. وممّا جاء في إحداها (ص: 98):

وَلَكَمْ أيادٍ جَمّة أسْلَفْتُمُ
أسْلافُنا قدماً بها قَدْ مُتّعوا
وَحَياةُ قَلْبي في «ظهيرِ» عِنايةٍ
يُعْلي مكاني في الفَخار ويرفَعُ
وَمَعيشةٍ تُغْني وتُرْغِدُ عيشتي
أشْفي الغَليلَ بما تُفيدُ وأنْقَعُ

وفي هذا بعض الاشكال حيث إن والده ـ إذا كان ـ عاش حتى سنة 888هـ إلاّ إذا فسّرنا الأمر بالتقارب الذي يكون أحياناً في السن بين الآباء والأبناء وبالنبوغ المبكّر لهذا الولد، أو يكون مادح يوسف الثالث عمّاً له سمي باسمه وكني بكنيته.

وأغلب الظن أنه هو صاحب البسطي هذا كما يدل على ذلك التماثل في الاسم والقرائن الواردة في الأبيات المذكورة آنفاً، وقد نجد ما يشهد لذلك أيضاً في هذه القصيدة التي وطأ لها الشاعر بقوله: «وقلت أيضاً مخاطباً ابنه [أي ابن أبي حامد بن الحسن] أبا جعفر وقد بلغني أنه طلب مِنْهُ بعض الأدباء أن ينظم له أبياتاً يهجوني بها، وذلك لما كان طُبع عليه من الشغف بحفظ الهجاء» وأول القصيدة (30):

هجاؤُكَ لي مدحٌ فزدْني من الهَجْو
لعلّكَ تشفيني من البثّ والشجوْ
وجدِّد به تذكارَ أيامِ أُنْسنا
ببسْطَةَ مجموعَيْنِ في مجلس اللهْوِ
نُديرُ كؤوسَ الوَصْل في كلّ ساعةٍ
ونخطو إلى لذّاتنا أوسعَ الخَطْو
فنقْطفُ أزهارَ المَسرَّات غضّةً
وطرْف الردى حيرانُ في سِنة السّهو

وبعد أن يشكو من هجر صاحبه وإصغائه لواشٍ أراد أن يكدر صفو العلاقة بين الصاحبين، ويهجو هذا الواشي يقول ـ وهو محل الشاهد هنا ـ:

ولستُ أُرى من سُكْرِ حبّك صاحياً
إذا ما أَرَى غَيْري يميلُ إلى الصّحْوِ
لأنّكَ أحرزتَ الفضائلَ كلّها
فصرتَ بها تَرْقى على المرقبِ العُلْويْ

ورثْتَ المعالي عن رجالٍ أعـزّةٍ
قضـاةٍ كرامٍ قُلّدوا لأمـة الزّهْـوِ
لهمْ دانتِ الـدُّنيا بنيـل مَـرامِهم
فـأرْوَتْهـمُ عِـزّاً وللغيـر لم تُـرْوِ
أتت كتبُ التاريخ تـظهرُ فَضْلَهم
فعَنْهَا أخي الفخرآروِ إن شئتَ أنْ تروي
وفي غيرِ ما نظمٍ تضمّنَ ذكرَهم
موفّىً بما حازوا قَديماً من السّرْوِ
فقـل للئيمٍ رامَ طيّاً لسَـرْوِهم
توق فسَرْوُ القومِ يَنْشرُ ما تَطوي

ويقول من قصيدةٍ في مدح أبي حامد والد المذكور (71):

شبَّ في حجْـر أبيـه فـارْتـقى
قُـنَنـاً لـلعِلْم مـن أعْـلـى القُـنَنْ
وأبـوهُ حـلّهـا مـن قـبـلُ مَـعْ
جَـدِّهِ فخـرِ القُضـاة المُـؤْتَمَـنْ

وهذا الشعر كلُّه يَحمل في طيّهِ إشارات تاريخية إلى أصالـة بني الحسن النباهيين الذين رجحنا أن يكون هذا الممدوح ووالده منهم، ولعلّ من المستحسن معارضتَهُ بكلام أبي الحسن النباهي الذي يردّ فيه على ابن الخطيب:

«وقلتم في كتابكم: «أين الخطط المتوارثة عن الآباء والأجداد». وقد أذهب الله عنا ببركة الملة المحمّدية عيبة الجاهلية في التفاخر بـالآباء، ولكني أقول لكم على جهة المقـابلة لكلامكم: إن كـانت الإشارة إلى المجيب بهذا فمن المعلوم المتحقّق عند أفـاضل النـاس أنه من حيث الأصالة أحد أماثل قطره. قال القاضي أبو عبدالله ابن عسكر وقد ذكر في

كتابه من سلفي فلان بن فلان، ما نصه: وبيته بيت قضاء وعلم جلالة لم يزالوا يرثون ذلك كابراً عن كابر، استقضى جدّه المنصور ابن أبي عامر، وقاله غيره وغيره، وبيدي من عهود الخلفاء وصكوك الأمراء المكتتبة بخطوط أيديهم من لدن فتح جزيرة الأندلس وإلى هذا العهد القريب ما تقوم به الحجة القاطعة للسان الحاسد والجاحد والمنّة لله وحده». وجاء في ظهير تولي أبي الحسن النباهي من إنشاء ابن الخطيب: «ولما كان له الحسب الأصيل الذي شهدت به ورقات الدواوين، والأصالة التي قامت عليها صِحاح البراهين، والآباء الذين اعتد بمضاء قضائهم الدين، وطبق مفاصل الحكْم بسيوفهم الحق المبين، وازدان بمجالسة وزرائهم السلاطين، فمن فارس حكم أو حكيم تدبير، وقاض في الأمور الشرعية ووزير، أو جامع بينهما جمع سلامة لا جمع تكسير».

ولعلّ ممّا يؤكد هذا استعمال الشاعر عبارة «بني الحسن» وبشهرة «ابن الحسن» يعرف النباهي القاضي، وكذلك قول الشاعر مخاطباً القاضي أبا حامد مورّياً بابن الحسن ومشيراً على ما يظهر إلى كتاب «خلع الرسن» لابن الخطيب (29):

قلت لمّـا لامني في الحبّ مَنْ
قَـدْ رآني فيـهِ مَخْلُوع الـرَّسَنْ
مَنْ أحبَّ المُصْـطفى مَـعْ آلِـهِ
لَيْسَ نُكْراً أنْ يُحبّ ابنَ الْحَسَنْ

وإنما احتجنا إلى كل هذا لأن نسبة النباهي ـ أو الجذامي مثلاً ـ لم ترد في الديوان ولأننا لم نقف على ترجمة لهذا القاضي أبي حامد أو ولده وإنما وجدنا اسم هذا الأخير ـ مع زيادة النباهي ـ في مخطوط مظهر النور الباصر، كَما وجدنا اسم «السيد الشيخ أبي حامد بن الحسن» في فتوى فقهاء الأندلس فيمن نبذ بيعة السلطان أبي الحسن النصري[7].

فإذا صحّ ما ذكرناه فإن ديوان البسطي يقدّم لنا بذلك فائدة في استمرار النباهيين في القضاء وخدمة الدولة حتى نهاية غرناطة.

ويبدو أن القاضي أبا حامد المذكور ولي القضاء في المرية أيضاً فقد كتب إليه الشاعر من بسطة (29):

لعمرُكَ ما استحالَ الحبُّ عِنْدِي
ولا أنّي لعهْدِ هواكَ ناسِي
أزورك بالمريةِ كلَّ يومٍ
وما سافرتُ عنْ أهلي وناسي

وكرّر هذا المعنى في قوله (81):

وفارقْتُ أبنائي وأهْلي ووالِدِي
وسِرْت لِلُقْيا مَنْ وَهَبْتُ له قَلْبي
وَلي قائِدٌ يطْوي الْمراحِلَ دائباً
لزورة مَثْوَاه ولكنَّ من حُبّي

كانت صلة الشاعر بهذا القاضي متينة كما ذكرنا وقد رأيناه فيما سبق يخاطبه في استعارة بعض الكتب بعد خروجه من الأسر، وفي شأن مرتبه الذي حبس عنه، ويبدو أن القاضي الذي كان يقول الشعر أحياناً كان مولعاً بشعر الجناس والتورية ولهذا وجدنا الشاعر يخاطبه كثيراً في هذين الغرضين، فمن ذلك توريته باسم القاضي قائلاً (29):

فتنتُ بمِشْكاة الأنوار مِنْ
كِتابِكمُ بغيةِ القاصِد
وليسَ عجيباً به فِتْنتي
فمصدَرهُ عن أبي حامِد

ورّى هنا بأبي حامد الغزالي وكتابه مشكاة الأنوار، وقد رأينا الشاعر يشكو إلى ولد القاضي من بعض الوشاة، وها هو يشير إلى الأمر نفسه في بيتين خاطب بهما القاضي نفسه (34):

إليكَ اشتياقُ القلبِ في كلّ لحظةٍ
وأنتَ محلُّ الحبّ حقّاً بلا شكٍّ
فـأيّ لئيمٍ جـاءَ يـزعمُ غيـرَ ذا
فقدْ جاءَ بالبُهْتانِ والـزُّورِ والإفْكِ

ولعلّ الشاعر سمع مرة خبراً بتعيينه أو ترقيته في منصبٍ ما بسعي من صديقه وممدوحه فخاطبه بهذه الأبيات (28 - 29):

فَـدَيْتُكَ عَـرّفني حَقيقَةَ ذا الخَبَـرْ
ولا تُخْفِ عنّي مِنْهُ عَيْناً وَلَا أَثَـرْ
وَنَفِّسْ عن الصّبِّ المعَنّى كـآبَـةً
وُقيتَ منَ الأَوْصابِ في الوِرْدِ والصَّدَرْ
فَنَفْسِي وَحَقّ الله طـارَتْ لسَمْعِـهِ
وهذا لَدى الإخْوانِ مِنّي قد اشْتَهَرْ
ولِمْ لا وَقَـدْ أَصْفَيْتُمُ لي طَـوِيّـةً
تجلّتْ لأرْبـابِ البصـائـرِ والنَّظَرْ
وفاضَتْ أياديكُمْ سِجـالاً بِساحَتي
فَحُزْتُ بِها فَخراً عظيماً على الْبَشَرْ

على أنّنا وجدناه من جهة ثانية يشكو اهتضام صاحبه حقه وتأخيره وتقديم غيره عليه وسبق أن أوردنا في فصل سابق ما قاله في ذلك.

هذا ولم نجد ما نعتمد عليه في تحديد التاريخ الذي كان فيه أبو حامد ابن الحسن هذا قاضياً في بسطة ثم في المرية ولا نعرف من هو

السلطان النصري الذي ولاه حسبما يشير إليه الشاعر في قوله (25):

عَـلِمَ الـسُّـلْطانُ مِـنْـهُ
فـي هـواهُ صِـدْقَ عَـزْمِ
فـآصـطَفـى مِـنْـهُ رَئِـيـسـاً
رَبَّ فَـخْـرٍ رَاقَ فَـخْـمِ
عَـضَـدَ الْـمُـلكَ بِـعَـزْمٍ
أيّـدَ الـحَـقَّ بِـحَـزْمِ

وكل ما نعرفه أنه كان حياً سنة 888هـ ووصف يومئذ بالسيد الشيخ.

ـ وبعد هذا نصل في الديوان إلى قصيدة طويلة مَهَّدَ لها الشاعر بقوله: «وقلت مخاطباً الصديق المخلص أبا عبد الله ابن رجاء وكتبت بذلك إليه من أبذة وأنا في حكم الأسر» وتشتمل القصيدة على 50 بيتاً وفيها تذكير لصديقه بما كان بينهما من إخاء وزمالة أيام الدراسة، وشكوى من قيود الأسر، وحنين إلى بسطة، ورجاء فضل الله سبحانه في أن يفك قيود الأسر عنه وعن من بأبذة من الأسراء، وقد استشهدنا فيما سلف بأبيات من هذه القصيدة.

أما صاحبه هذا فلم نقف على ذكره في المصادر التي رجعنا إليها.

ـ ومن أصدقاء الشاعر الذين تردّد ذكرهم في شعره أبو عبد الله محمدن بن مالك الأُلْيُري، وفي الديوان سِتُّ قصائد في مخاطبته، ومطلع القصيدة الأولى (38):

رعيُ الـوِداد لأفضـلِ الأصحـاب
مـتـأكِّـدُ الإلْـزامِ والإيـجـابِ

وقد اقتصر في توطئتها على تحلية صاحبه بالفقيه الطالب مما يدل على أنه كان من أقرانه ونظرائه، وهذا ما تؤكده الأبياتُ التي يتحدث فيها عن أيام الطلب وقد سبق إيرادها في موضعها من هذه الدراسة، وليس فيها ما يعين البلد الذي جمعهما. وكتب إليه مرة رسالة من بسطة إلى المنكّب

حيث كان إماماً ومقرئاً، وجعل في صدر الرسالة هذين البيتين (100):

ودادَكم أرْعى وإن طـالَ بعـدكُمْ
وعُـوِّضْتُمُ مـن بسْـطَةٍ بـمنكَّبِ
وإن نكّبَ الأصحابُ عن رَعْيِ وُدِّكمْ
فلستُ أرَى عنْ رعيـهِ بـمُنَكِّبِ

وقد خاطبه هذا الصاحب من المنكب بقصيدة يشكو فيها وضعه[7م] فأجابه البسطي عنها بقصيدة مطلعها (110):

لَكَ اللَّهُ من جَمّ الفَضائِلِ معلوم
بسبقٍ لإدراكِ العُـلومِ وتقـديـمِ

ثم يسرد بعض فضائله ويقـول:

وأُقسمُ لم تدْعَ الإمامَ ابنَ مالكٍ
سِوَى لجَنَى ملْكٍ سَتَحويه مَحْتوم

ويستدلّ على ذلك بخطابه الذي يشتمل على شعر رفيع ونثر بديع ويقول في هذا الخطاب:

تلوتُ لـه «والتين» لمـا لَمَحْتُـه
وعاينْتُ مِنْ مَعْناه أحسَنَ تَقْـويمِ

ثم يتوجع لفراقه وبعاده فيقول:

ولكِنْ شَجى نَفْسِي وأمْرَضَ مُهْجتي
وصَيّرني في النّاس أذهلَ مهْمومِ
بعـادُكَ عنْ عيْني وكونُـكَ ثـاويـاً
بمعْقلِ شرٍّ في المعاقِلِ مذْمومِ
تـطابقَ تحقيقـاً مسمّـاهُ واسمُـهُ
مطابَقةً أضحتْ دليلاً على الشّومِ

وهذا المعقل هو حصن المُنَكّب الذي سمّاه في البيتين السابقين، والتشاؤم باسم المنكّب معروف عند الأندلسيين، قال ابن الخطيب في معيار الاختيار يصف بلدة المنكّب: «إلاّ أن اسمها مظنة طِيَرة تشْتَنَف، فالتنكيبُ عنْها يؤْتَنف».

أما القصيدة الثالِثة فهي مصدّرة بما يلي: «وقلت مخاطباً القاضي الفاضل أبا عبد الله محمد بن مالك الأَلْيُري» وتتكون من 60 بيتاً، وقد حبّرها في مدح صاحبه ورفيق دراسته الذي أصبح قاضياً في بسطة، وبدأها بالغزل ثم تخلص إلى المدح فأطنب في وصف علمه وعدله (50):

بــه انجلَى عن ســاكني بســطة
ليــلٌ من الــظّلْم بــهــا مُــظْلمُ
بــه غــدا الشّــرْعُ بهــا ظــاهــراً
والــديــنُ فــي أرجــائــهــا قــيِّــمُ
بــه بــدا الحقُّ بِــهــا مشــرقــاً
وأمــرُه مــنــعــقِــدٌ مُــبْــرَم

ثم يعود بعد أبيات إلى مثل هذا قائلاً:

بــه غَــدَتْ في نِعْــمَــةٍ بســطةٌ
بِهــا حَبــاهــا البــاسِطُ المُنعِـم

ويبدو أن الشاعر ضيّفَ صديقه القاضي أثناء توليه قضاء بسطة وقال في ذلك (51 - 52):

تقبّــلْ فــدتــكَ نفــوسُ البشــرْ
وبُــلِّغْتَ فــيــمــا تــرومُ الــوطَــرْ
طــعــامَ مــحــبٍّ مُــقِــرٍّ بِــمــا
لَــدَيْــكَ مــن الأدواتِ استــقَــرْ

أتى منْـهُ بـالـنّـزْرِ لا جـاهـلاً
بـحـقّ سـيـادتِـك الـمـعـتَـبَـرْ
ولـكـنْ إلـيـهِ آنْـتَـهَـى وُسْـعُـهُ
وذا عـنــدكُمْ أمـرُه قَـدْ ظَـهـرْ
ومـا الـمـنُّ يـبـعـثُ مـع تـلْوِهِ
لـمَـجْـدِكَ إلاّ غـدا يُـحْـتَـقَـرْ
فـعـفـواً فمثلُـكُمُ مَـنْ عَـفـا
وعُـذْراً فـمـثـلُكُمُ مَـنْ عَـذَرْ
وقـد جـاءَ فـي مثـلٍ سـائـرٍ
طعـامُ الأحِبّةِ مـا قَـدْ حَضَـرْ

وهكذا يرى أن المنّ والسلوى قليلتان في حقه.

ولمّا نقل صديقه من قضاء بسطة، وأصبح قاضي الجماعة في غرناطة كتب إليه الشاعر رسالة يهنّئه بها وصدّرها بقصيدة في الموضوع نفسه، وقد اختتمها بهذا البيت (88):

وَعَجِّـلْ سيّـدي نَصْـرِي فحقّي
كـمـا تَـدْري وتَعْـلَمُ والسّـلامُ

كما ختم قصيدة أخرى في مدحه بقوله:

ومهـرَهـا اجعـله بـلا مـانـعٍ
إنـفـاذَ مـا من قـصـتي تـعـلم

ولعلّه يشير بها إلى قصّة المرتّب المحبوس السالفة.

والقصيدة الخامسة يعاتِب فيها الشاعر صديقه على بخله بالكتابة إليه وأولها (88):

يا ابنَ عبدِ المليكِ يا خَيْرَ خِلٍّ
ذكْـرُهُ منْـذُ غَـابَ عنّيَ شُغْلي

وآخــرها:

عُـدْ لِرَعْي الـوِداد واشـدُدْ بكتْبٍ
حبـلَ رَعْي الـوِدادِ مِنْــكَ بِحَبْلِي

ويبدو أن صديق البسطي هذا الذي سماه بابن مالك تارة وبابن عبد الملك تارة أخرى هو الذي ترجم له أحمد بابا السوداني في نيل الابتهاج وقال: «محمد بن علي بن عبد الملك الأُلْيُرى الغرناطي شهر بابن مليح، قاضيها (غرناطة)، وقع النقل عنه في شرح التحفة لابن عاصم، وكان حياً عام اثنين وثلاثين»[8].

وذكر القلصادي في رحلته أنه لما رجع من الحج إلى بسطة سنة 855هـ أقام بها «برهة من الزمان متأنّساً بالشيخ الفقيه الإمام الخطيب سيدي جعفر وكذلك سيدي الفقيه الإمام الصدر الخطيب المقرىء أبي عبد الله محمد بن عبد الملك حفظه الله، وبالفقيـه النبيه الخـطيب أبي عبد الله محمد بن عبد الكريم، وكذلك بغيرهم من الأوداء والأصحاب»[9].

وأرى أن أبا عبد الله محمد بن عبد الملك هذا هو صاحب شاعرنا أما أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم فقد يكون والد الشاعر أو هو نفسه بناء على ما ذكرته في أول هذه الدراسة.

وجاء في المعيار (10 :309) ما نصُّه: «كان القاضي أبـو عبد الله الأليري أيام استخلافه قضاء الجماعة بحضرة غرناطة يغلظ على من فَهِمَ منه اللَّدَدَ من اليهود...». والخبر هنا يتعلّق بالفقيه المذكور أيضاً. ويبدو أنه كذلك هو صاحب شرح البردة الذي توجد منـه نسخ مخـطوطة في الخزائن المغربية، وفي هذا الشرح شيء من شعره وشعر ابن الخطيب وشعر أبي البركات البلفيقي وغيرهما.

ـ وفي ديوان الشاعر البسطي مدح لثلاثة أعلام من شيوخ الغزاة بمدينة

بسطة وهو أبو عبد الله محمد بن عثمان وأبو الحسين الشريف وعبد الله بن عمران.

فقد مدح الأولَ بقصيدة من 56 بيتاً وكلها إشادة بمواقفه في الجهاد، ومنها (52 - 54):

يا صارخـاً جعلَ الصُّـراخَ شِعارَهُ
فـي مُلْتَـقَى الأَقْـرانِ بـالأَقْـرانِ
قُـلْ للعِدَى جَهـراً بأرفـعِ مَنْـطِقٍ
إن الـرَّدَى مـن داركُـمْ مُـتـدانِ
مُـذْ أَمَّكُمْ شيـخُ الغُـزاة محمّـدٌ
نجـلُ المُجاهدِ ذي التّقَى عُثْمـانِ

ومنـهـا:

بشْـرى لبَسْـطةَ بـالهُمـامِ محمّـدٍ
ولأَهـلِهـا قـاصيـهـمُ والـدّانـي
وَلَهـا الهَناءُ كمـا الهنـاءُ لَـهُ بِهـا
إذْ حلّهـا فـي أسـعـدِ الأزمـانِ
يبني منـارَ الأمنِ في أرجـائهـا
بصَـوارمِ الإخـلاصِ والايمـانِ
والويلُ ثمّ الويلُ للعـاصي الّذي
تـركَ الـرّشـادَ ودانَ بـالعِصْيـانِ
لا بُدَّ أن يلْقى الذي كسَبَت يدا
هُ منَ الخنـا والـزَّيْـغ والخِـذلانِ
ويـؤُمّـه بكـتـائبٍ مِـنْ جُـنْـدِه
تَـذَرُ الـدّيـارَ بغيْـرِ مـا سُكّـانِ

وفيها يقول مهدّداً أعداء الإسلام:

واسْتَبْشِـرُوا بحلولِ كـلِّ مصيبـة
مشفـوعـةٍ بـالـويـلِ والخُسْـران
تـأتي عليكُمْ أجمعينَ بـعَـزْمـةٍ
مِنْ فارس الفُرْسـانِ في الميدانِ
مَنْ لا ينـامُ عن الإغـارةِ قَلْبُـه
حَـزْمـاً إذا مـا نـامت العَيْنـانِ
حتّى يُـجَـدِّلكُـمْ بكـلِّ مـهنّـدٍ
ويـراكُمُ صَـرْعى بكـلِّ مَكـان
ويُـعيـدَ ذَلاً عـزَّكـمْ بـهـزا ئـم
تُفْني شيـوخَكـمُ مـعَ الـشبّـان
ويَحيقَ مكـرُكمُ بكمْ في عاجـلٍ
تَنْعى بـهِ الغِـربـان في الأوطـانِ

ويبدو أن شيخ الغزاة وقائد بسطة هذا ما هو إلا النصريّ الذي كان ينبز بالأحنف. .

وفي المصادر المسيحية معلومات عن هذا القائد النصري ممدوح الشاعر، فهي تذكر أنه كان على رأس الجيش الذي استرجع غرناطة لحكم محمد IX الملقب بالأيسر سنة 1432م وكافأه هذا بتعيينه قائداً على المرية، كما تذكر أنه كان قائد جيش الأيسر في معركة Higveruela سنة 1432م وأنه ثار عليه في سنة 1445م إذ تحرك من المرية حيث كان قائداً عليها إلى غرناطة فاستولى عليها وظل سلطاناً عليها نحواً من سنة ـ وهو المعروف بمحمد X الأحنف ELCOJO ـ ثم ضاق به الغرناطيون فأخرجوه.

ولا تذكر هذه المصادر وجهته بعد ذلك ولكنّها تـذكر ظهـوره في المعارك التي وقعت خلال 1446 - 1447 والتي استرجع فيها المسلمون عدداً من المواقع

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أنّ ابن عثمان الأحنف هذا توفي

ـ حسب تقديره ـ خلال الشهور الأولى من سنة 1448[10]م. ولكنّنا نجدُ رسالة وجهها بوصفه صاحب الأندلس إلى السلطان جقمق صاحب الديار المصرية وبلاد الشام وهي مؤرخة بجمادى الأولى عام 855هـ ـ 1451م[11].

هذا هو شيخ الغزاة ابن عثمان ممدوح شاعرنا.

ولعل من المناسب هنا أن أثبت نصَّ سؤالٍ كان وجّهه إلي فقيد البحث الأستاذ لويس سيكو دي لوثينا في موضوع هذه الشخصية التاريخية سنة 1965 وهو: هل في ديوان عبد الكريم القيسي ذكر لشيخ الغزاة أبي عبدالله محمد بن عثمان الذي ثار بالمرية على ملك غرناطة، وهذه صورته بخط يده:

a t-il dans le dīwān de
cAbd al-Karīm al-Qaysī un
Šayḫ al-Ġuzà qui s'appelle
Abū cAbd Allāh Muḥammad
ibn cUṯmān ?

ـ وله في مخاطبة شيخ الغزاة ببسطة أبي الحسَيْن الشريف قصيدتان إحداهما في مدحه، والثانية في الإعراب عن أشواقه إليه، وقد أطال الغزل في الأولى (25 بيتاً) وخرج منه للمديح قائلاً (54 - 57).

كأن ضياء الشمس من وجنتي أبي الـ
ـحسين إذا تملى عليه المدائحُ

وهو يمدحه بالشرف الثابت الواضح، والعقل الراجح والكرم الفياض، والشجاعة الفائقة، ويقول في ولايته:

تـولّى على الأجنادِ شيخـاً ببَسْطةٍ
فأوْلاَهُمُ جوداً على الغيث كاسِحُ

ويخاطبه قائلاً:

حميتَ حِمانا من عدوٍّ أرادنا
فليسَ لنا في ذا الزمانِ مُكاشِحُ

ويقول في وصف شجاعته:

كأنّ النّصارَى حينَ يلْقَونَ خيلَهُ
ظباءٌ إذا ما يمّمَتْها الجوارحُ

ويبدو أن أبا الحسين هذا هو الذي خاطبه الشاعر في مكان آخر مرحّباً بقدومه على بسطة (73):

عم السرّور جميع الناس إذ قدما
أبو الحُسَين الذي فاق الورَى هِمَما
فأشرقت بَسْطَةٌ من نور غرّتِه
كليلَة البدْر جلّى نورُها الظّلَما
وقرّت العينُ إذ حطّ الركابَ بها
يومَ الخميسِ وأضحى السعدُ قد لزِما

وللشاعر أيضاً قطعة في مخاطبة ولد أبي الحسين هذا أولها (57):

ستبلغُ في دنياكَ أعْلى المراتب
وتسْمو بكَ العلياءُ فوقَ الكواكب

ولم نصل بعد البحث إلى شيء حول هذا الشريف أبي الحسين شيخ الغزاة ببسطة وليس في شعر البسطي زيادة في التعريف به على ما ذكرنا.

ـ أمّا الثالث من شيوخ الغزاة ببسطة فهو عبد الله بن عمران، وقد طلب بعض إخوان الشاعر منه أن يقول على لسانه قصيدة في مخاطبة شيخ الغزاة هذا فأنشأ قصيدة مطلعها (89 - 90):

مُحَيّاكَ يا عبـدَ الإله بنَ عمـرانِ
بحبّكَ مذْ أبصرتُ شخصَكَ أغراني

وفيها يشكو صاحب الشاعر بتأخيره بعد أن كان مقدّماً في خدمة الشيخ المذكور، وهو يشكرُ تفضّله وجوده الذي صار به في السابق غنياً بين الأهل والجيران.

ثم يقول الشاعر على لسان صاحبه:

فكيفَ يكـونُ الآنَ حـظّيَ منكمُ
بقـوليّةَ مـوصوفـاً بنحسٍ وخسران
وقـد علمت تلكَ السيـادة أنّني
لخِدْمتها أُصْبـو هوىً منـذ أزمان
وأنّي بذلتُ الجهدَ فيما حصرتُـه
منَ آعْشارها والحزمُ في ذاك من شانِي
فمنُّوا بـإحسـانٍ على قدْر خـدْمتي
وخُصّوهُ لي منكمْ بفضل ورجحان

قولية المذكورة هنا حصن من إقليم بسطة (نفح الطيب 4 :66 والروض المعطار: 113):

وقد أوردت المدونات المسيحية اسم عبد الله بن عمران هذا كالآتي: Abd allah Ambran.

ونعرف من هذه المدوّنات أنه كان قائداً على بسطة خلال 1455 - 1456م (859 - 860هـ) ونعرف منها أيضاً أنه كان شجاعاً قوياً أبياً، ومما ذكرته أنّه لَمّا تمت هدنة موقتة بين غرناطة وقشتالة في عهد سعد من بني نصر سنة 1455م (859هـ) طالب القشتاليون ببعض الحصون التي كانت في حوزة المسلمين، واشترط قومس قبره التنازل عن حصن Solera مدّعياً أن قائد بسطة عبد الله استولى عليه بعد عقد الهدنة، وتواردت رسائل

القشتاليين على سلطان غرناطة فأكد لهم رغبته في بقاء الصلح وأنه سيبعث تعليماته إلى القائد في شأن التنازل عن الحصن ولكن القائد ابن عمران لم يمتثل لذلك ورفض التنازل عن الحصن[12].

ونستفيد من شعر البسطي في شيوخ الغزاة أنهم كانوا ذوي نفوذ وسلطة يقومون بالجهاد ـ وهو وظيفتهم الأولى ـ ويؤدّبون العصاة ويجمعون الأعشار من الفلاحين لتمويل الجهاد، ونستفيد منه كذلك أن مشيخة الغزاة ظلت قائمة حتى زوال مملكة غرناطة ولم يعف رسمها كما ذهب إلى ذلك بعضهم أخذاً من قول ابن خلدون: وأغفل صاحب الأندلس هذه الخطة من دولته ومحا رسمها من ملكه، وصار أمر الغزاة إليه يباشر أحوالهم بنفسه ويعمهم بنظره ويخص القرابة المرشحين منهم بمزيد تكرمته وعنايته» (العبر 7 :788) وكل ما في الأمر أنها أصبحت في أولاد ملوك غرناطة وأقاربهم، وممن وليها منهم كبير أولاد محمد الخامس أبو الحجاج يوسف وأخوه سعد وغيرهما.

ولكن المغاربة استمروا في التطوع للجهاد بالأندلس وظل الريفيون والغماريون يفدون عليها بنية الرباط وكانت لهم أيام مشهورة ومقامات محمودة.

وقد ذكر المؤرخون المغاربة ـ ومنهم الناصري في الاستقصا ـ أن المولى عليا الجد الأعلى للأشراف العلويين «دخل عدوة الأندلس برسم الجهاد مراراً وأقام بها مدةً طويلة» ولما رجع إلى سجلماسة بنية التوجه إلى الديار المقدسة «كاتبه أهل الأندلس يطلبون منه العود إليهم ويحضون على الاعتناء بأمور الجهاد ويشكون إليه ضعف أهل الأندلس عن مقاومة العدو وأنها شاغرة ممن تجمع عليه القلوب، وقد كانوا راودوه وهو مقيم عندهم على أن يبايعوه ويمّلكوه عليهم والتزموا له الطاعة والنصرة فرغب عن ذلك ورعاً وزهداً وعزوفاً عن الدنيا وزهراتها»[13]. وقد وقف اليفرني على رسائل عديدة بعث بها إليه علماء غرناطة في الموضوع وذكر أسماء أصحابها، وساق قصيد أبي فارس ابن أبي الربيع الغرناطي في الاستنجاد به[14].

وقد كانَ لعرقلة بعض النصريين للغـزاة المجاهـدين وضيق بعض الأندلسيين بهم وَحَساسيتهم التقليدية في الخوف الوهمي منهم دور في نهاية الأندلس المفجعة.

ـ وتسلك في عداد شيوخ الغزاة المذكورين أحد القواد من ممدوحي الشاعر ـ وهو القائد حامد ـ ولعله حامد بن محلى البطوي ـ وقد مدحه الشاعر بقصيدة من أطول قصائده (73 بيتاً) بدأها بلوم نفسه بعد ذهاب قوته وشيب عذاره، وأعلن رغبته في التوبة وزيارة قبر الرسول الكريم، ووصف فيها ركب الحجاز الأندلسي من ذهابه إلى إيابه وهذا كله في 27 بيتاً ثم تخلص إلى مدح القائد قائلاً (140 - 143):

وعادوا وقَدْ حازوا من الأجر مثْلَما
بوادي الأشى مِنْ أجْرِه حازَ حامِد
أجـلُّ ولاةِ الـوقتِ قَـدْراً ومنصبـاً
وأمجـدُهُم مهمـا يُعَـدُّ الأمـاجِـد

وقد أطنب في عدّ مآثره في الجهاد والمجد وآثاره في إحياء الدين وحياطته وتعهّده لأهل العلم ورعايته لأولى الآداب ورفقه بالرعية وإغداقه على الغزاة المجاهدين الوافدين عليه من أنحاء الأرض وإعداده إياهم لغزو الروم وقيادته لهم بنفسه. ونقتطف من هذه القصيدة قوله:

تـولّى فـأحيـا للجهـاد معـالِمـاً
بـأمثـالِهـا عهـدُ الـوَرَى مُتبـاعِـد
وقـامَ بهـا لا الجُبْنُ يَثْني عِنـانَـه
ولا الخَـوَرُ المذمـومُ عنهُ يُبـاعِـد

وقـولـه:

لـذاك أتتـهُ الـرّومُ تطلبُ سلْمَـه
تـردّدُه لا تـنْـثَـني وتـعـاوِدُ

فسوّغَها منهُ المرادَ ولو أبى
لباتتْ لها رَوْعٌ على الحَدِّ زائدُ
أليةَ برٍّ في اليمين، بمثله
تُحاطُ وتُحمى منْ عِداها القواعِدُ

والمراجع القشتالية تسمي القائد حامداً هذا وتنعته بلَدَدِ العداوة للنصارى وشدّة البأس وصعوبة المراس هو وجنده من غمارة. وتذكر مواقفه في الدفاع عن مالقة وبسطة وغيرهما[15]، أما المراجع العربية التي نقل عنها المقري فتشير إلى صاحب وادي آش ولكنها لا تسمّيه[16] ولعلّه هو حامد هذا.

إن مدح شاعرنا البسطي لشيوخ الغزاة وعدم مدحه لأمراء زمنه من بني نصر ـ باستثناء ابن عثمان الأحنف ـ قد يكون فيه دليل على موقف معيّن، وسيتبين لنا هذا الموقف في فصل آخر، ولعلّ مما يتصلُ بمدح هؤلاء الغزاة المجاهدين ـ وجُلُّهم من المغاربة ـ ما ورد في قصيدة له في مدح أهل مالقة، فقد ذكر بالخير فعل أمرائها الأقدمين من بني اشقيلولة في استدعائهم أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق ومنابذتهم لأصهارهم وأقاربهم من بني نصر، كما نوه بمآثر السلطان المريني، قال ـ والضمير في أمرائها يعود على مالقة ـ:

وأندلسٌ بالحزْمِ من أمرائِها
غدا ناكصاً عنْها كفورٌ ومُلْحِدُ
وهمْ حفِظوا الإسلامَ فيها وإنّه
لبغي عِداه كادَ يطويهِ مَلْحَدُ
وفعلُ ابْنِ إشقيلولةٍ في دعائِه
أبا يوسُفٍ بالحقّ والصدق يَشْهَدُ
دعاهُ لنَصْرِ الدّينِ فيها مُبادراً
فلبّاهُ منه ناصِرٌ ومؤيّدُ

وجـازَ إليهـا في جُمـوعٍ كثيـرةٍ
يفـوقُ الحَصَى تعدادُهـا إذْ تُعَدّد
فشنّ على أعـدائهـا كـلّ غـارةٍ
وكاليومِ في الغاراتِ أَضْحَى بِها الغَدُ
وأمضى على مَن أمَّ منهم هزائما
وسجـلَ مـا أمضـاهُ سيفٌ مهنَّـدُ
فمنهم قتيـلٌ بـالصعيـدِ مجـدّلٌ
ومنهم أسيـرٌ في القيـودِ مصفَّـدُ
ولـولا الذي وافَى بـه من فَعالِـه
لَمـا كـانَ فيهـا لـلإلـهِ مـوحِّـدُ
وحَسْبُكَ فخراً في التصانيف وارداً
بتقييـدِهِ فيهـا اعتنَى من يُقَيِّـدُ

ـ ونصل الآن إلى علم من أعلام عصر شاعرنا وصديق من أعز أصدقائه الذين خاطبهم كثيراً بشعره وهو الكاتب الشاعر أبو عبد الله محمد الأزرق أو ابن الأزرق، وعندنا في هذا العصر اثنان يعرفان هكذا، وأمرهما يختلط حتى على الحذّاق من المتأخّرين والمحدثين[17]، وذلك لما بينهما من المعاصرة والمشابهة في الاسم واللقب، والواقع أن التفرقة بينهما أمر ميسور، فأحدهما أبو عبد الله محمد الأزرق الوادي آشي الكاتب الشاعر، والثاني أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد ابن الأزرق الأصبحي المالقي ثم الغرناطي وهو الفقيه شارح الشيخ خليل ومؤلف بدائع السلك وغيره من المؤلفات، وقد تأخرت وفاته عن الأول وكان من أصحابه وقد ذكره في كتابه روضة الأعلام وترحّم عليه[18].

أما شاعرنا فقد عرف الرجلين معاً ولقب الوادي آشي بالأزرق، ولقب

الآخر بابن الأزرق، وكانت صلته بالأول أكثر من صلته بالثاني وبينهما مخاطبات شعرية حُفظ بعضها في ديوان البسطي، وكان هذا متعلّقاً بصاحبه مغالياً في الإعجاب ببلاغته يدل على ذلك قوله (60):

قالوا البلاغةُ خَلّدتْ آياتُها
لابْنِ الخطيبِ مآثراً لم تُلْحَق
فأجبتُهم إن البلاغَةَ بعدَه
آياتُها منسوبةٌ للأزْرَقِ

وله فيه قصيدة طويلة مطلعها (57):

أشِعْرُك أم عِقدٌ على لبّة النّحْر
جواهرُه أغلى من الجَوْهر الْبَحْري

كلها إعجاب بشعر صاحبه وبلاغته، وفيها يقول:

وبالأزرقِ الفتّان أصبحتُ مغرماً
أُنَظِّم في أوصافِه رائقَ الشّعر
إمام أولي الآداب عنْدَ استباقِهِمْ
إلى الغايةِ القُصوى من النّظْمِ والنثر
وفائزهم فيما جَنَوْا مِنْ بلاغةٍ
متمّمة التجويد بالحمْدِ والشّكْر
إذا استقرأ النقادُ في الفضل مَنْ مَضى
فما مثلُه في الفضلِ يلْفيه مُسْتَقْرِ
فقَدْ أدركَ الماضينَ مجداً وسؤدداً
وقَدْ أعجزَ الآتين في آخِرِ الدّهرِ

وأبياتها كلها ناطقة بالإعجاب الشديد ببلاغة الأزرق وأدبه، ومثل هذا نجده في قصيدة جوابية مطلعها (58):

يا سائراً للعُلَى في أرفع الطرُق
فقتَ الوَرَى بكمالِ الذّات والخُلُق
وافَى كتابُك والإعجازُ يَصحَبُه
فكلّ مَنْ رامَهُ في العصر لم يُطقِ
فكانَ روضاً به الأزهارُ مونقةً
أنوارُها تزدري بالبدرِ في الغسقِ

وقد جمعتهما بسطة تارة ووادي آش تارة أخرى وكانت لهما ذكريات أنس يشير إليها البسطي قائلاً (60):

كَمُلَ الأُنسُ لَنا في بَسْطةٍ
بأبي عبد الإلهِ الأَزْرَقِ
واجتلَيْنا طُرَفاً من نظمِه
نحنُ [مِنْهُ] في مغاني الأَبْرَقِ

ولما انتقل الأزرق إلى غرناطة كتب إلى صديقه البسطي فكان من جواب هذا قوله (58):

ذكّرتَني يا أبا عبدِ الإلهِ به
أيامَ أنسٍ بغيْرِ القُرْبِ لم تَرُقِ
تخالُني عندما يَجْري تذكّرُها
بالقلب ثُكْلَى من الأشواقِ لم تُفقِ
فلستُ واللّهِ أنسى عهدَهَا أبداً
ما دامَ في جسدي شيءٌ من الرّمَقِ

أما الأزرق فيعبر عن تعلّقه ببسطة قائلاً على ما نُرَجّحه:

فِي بسطةٍ حيثُ الأباطحُ مُشْرِقَهْ
أضحتْ جُفوني بالْمحاسنِ مُعْلقَهْ[19]

وهو القائل على الأرجح أيضاً مورّياً:

قُلْ لِمن رامَ النّوَى عَنْ وطنٍ
قَوْلةً ليسَ بها مِنْ حَرَجِ
فرّج الهمّ بسُكْنى بسْطةٍ
إن في بسطةٍ بابَ الفَرَجِ[20]

وكأنه خاطب بهما صاحبه البسطي لما ازدحم عليه الهم وقال (152):

أيُّها الصبُّ بسُكْنى بسْطةٍ
يبتغي العِزَّ بها والشّرَفا
انصرِفْ عَنْها لسُكْنى غيرها
فكِلا الأمْرينِ عنْها انصَرَفا

وقد خاطب الشاعر صديقه على طريقته وطريقة شعراء ذلك العصر بشعر استعمل فيه التورية فمن ذلك قوله مورّياً بلقب صاحبه (59):

يا هائماً أخفي الهُيامَ وإنّه
بادٍ عليه كالصّباحِ المشرق
إنْ هِمْتَ بالطّرْفِ الكحيلِ وحسنه
فأنا أهيمُ صبابةً بالأزْرَقِ

وقوله مورّياً بكتاب البيان للجاحظ (59):

إنّ البيانَ المستحيلَ الرُّؤى
مملوكُ فكرِ الأزْرق الحافِظِ
وهْو الذي أبْدَى لنا طُرْقَه
فعَنْهُ يُروَى لا عنِ الْجاحِظِ

ولما توفي هذا الشاعر الكاتب الأزرق رثاه صاحبه البسطي بقصيدة جيدة نثبت منها ما يلي (132 - 134):

قلمُ البلاغةِ بعد موت الأزْرق
في مأتمٍ من حزنِه كالمُهْرق
هذا لما يلْقى عبوسٌ واجم
حزناً وهذا كالكئيب المُطرِق
فَكِلاَهُما يتجارَيانِ من الأسى
للغايةِ القُصوى التي لم تُلْحق

وبعد أن يذكر ما رُزِق من بلاغة وسحر بيان كما تشهد بذلك قصائده التي تردّدها الرواة وكتابته التي أغنت الملوك عن الكتائب يقول متفجّعاً عليه:

لَهْفي عليهِ لا أزالُ أُعيدُه
حتّى به منْ بعدِ موتى ألتقي
في جَنّة الخلدِ التي هيَ منزلٌ
للمؤمنِ الخاشي المُطيع المتقي
لو كانَ يُمكنني الفداءُ فديتُه
بالنّفْسِ محتسباً فِداء المُشْفق

ثم يترحمُ عليه بعد أبيات في الحكمة والموعظة:

يا رحْمَةَ اللَّهِ التي نفحاتُها
في الطيبِ فوقَ المسكِ للمُستنشق
خُصّيه منك بزورة ترضي بها
من مات من إخوانه أو من بقي

وليس فيْ هذه المرثية ومقدمتها ما يشير إلى تاريخ وفاته أو مكانها، ومهما يكن فإنها في رثاء الأزرق الكاتب الشاعر. وليست في رثاء ابن

الأزرق الفقيه القاضي المتوفى بالمشرق، كما ذهب إلى ذلك صديقنا الدكتور محمود مكي، ونحن نعتمد في هذا على تفرقة صاحب الديوان بينهما كما مر وعلى عدم الإشارة في المرثية إلى القضاء والعلوم والمؤلفات والرحلة إلى المشرق والوفاة به وغير ذلك مما عرف به ابن الأزرق، وقد عرفنا من طريقة الشاعر في المدح والرثاء أنّهُ يعرض لكل ما يتصل بالممدوح.

وفي هذه المرثية إشارة إلى أن المرثي كتب عن الملوك، ويبدو لي أنه صاحب القصيدة السينية في مدح الرئيس أبي يحيى ابن عاصم:

خضعتْ لمِعطَفه الغُصون المُيّس
ورَنا فهامَ بمقلَتَيْه النّرجس[22]

وهي قصيدة تبرهن على ما قاله البسطي في بلاغته وشعره، وقد شك المقري في نسبتها بعد إيرادها قائلاً: «وعندي الآن شك في صاحب هذه القصيدة، هل هو قاضي الجماعة بغرناطة محمد ابن الأزرق أو ابن الأزرق الثاني..»[23].

وإذا ثبت أنها للأزرق فقد تدل على أنه كان تولى الكتابة في عهد ابن عاصم الممدوح الذي أسندت إليه رئاسة الحكومة سنة 856هـ.

لقد ضاعت ترجمة هذا الأزرق الذي ترحم عليه صاحبه ابن الأزرق في كتابه روضة الأعلام ونعته بالكاتب الأبرع وأورد نتفاً من شعره الذي كان آية في علو الطبقة كما يبدو مما بقي منه وكما يصرح بذلك الشاعر البسطي، وأنا أذهب إلى أن معظم الشعر المنسوب إلى القاضي ابن الأزرق في نفح الطيب وأزهار الرياض ـ ومنه تلك النونية المجونية ـ هو لهذا الشاعر إذ هو به أشبه ونسبته إليه أليق، ولو وصل إلينا كتاب الروض الأريض لابن عاصم لعرفنا من شعره وأخباره ما يزيد على ما عرفناه من ديوان البسطي.

ونقرأ في الديوان في معرض تورية الشاعر بأسماء الكتب ما يلي (75):

«وقلت أيضاً في مثل ذلك (أي مورّياً):

مرضتُ لطول البعدِ عنّيَ سيّدي
وأصبحتُ من شَوْقي إليكُمْ عَلى شَفا
ولو جدتُمُ لي بالمُنى من كتابِكمْ
لجدتُمْ على مُضْناكم منهُ بالشِّفا

وقلت أيضاً (75):

صِلوني بروضِ المحاسنِ منْ
كِتابِكُمُ إنّهُ معجِبُ
فإنّي من الأُنْسِ في بسطةٍ
فقيرٌ لوصلكَ مستوجِبُ

جواب البيتين لصاحبنا أبي عبد الله محمد بن الأزرق:

فَدَيْتُ قَريضَكَ عِقْداً بِهِ
لآلِئُ مِنْهنَّ يُسْتَغْرَبُ
وَمِنْ عَجَبٍ أنَّ تلكَ اللآلي
يَتامَى وأنتَ لهنّ أَبُ

وهذا هو ابن الأزرق الفقيه القاضي المؤلف، والشاعر ـ فيما أفهم ـ يورّي في البيتين الأولين بكتاب «شفاء العَليل، في شرح مختصر خليل» ويورّي في البيتين الأخيرين بكتابه «روض أو روضة الإعلام، بمنزلة العربية من علوم الإسلام». وقال فيه إنه كتاب عجيب وهذا صحيح.

أما بيتا ابن الأزرق فقد ورّى فيهما بكتاب اليتيمة للثعالبي وأشار إلى قول ابن قلاقس:

أبـيـاتُ أفْـكـارِ الـيَـتـيـمَـهْ
أَبْـكـارُ أفـكـارٍ قـديـمـهْ
مـاتُـوا وعـاشـتْ بَـعْـدَهُـمْ
فَـلِذَاكَ سُـمِّـيَـتِ الـيَـتـيـمـهْ

وقد عنّت لي هنا ملحوظات أذكرها فيما يلي:

1 ـ زيادة على تفرقة الشاعر بين الرجلين حيث يقول في الأول «الأزرق» وفي الثاني «ابن الأزرق» فإنه يحلي الأول هكذا: «وقلت مخاطباً الفقيه الكاتب» أو «وقلت في رثاء الكاتب»، بينما اقتصر في تحلية الثاني على كلمة «صاحبنا» ويبدو من التحلية والشعر أن الأول أي الأزرق الوادي آشي كان أكبر منه سناً ورتبةً وأن الثاني أي ابن الأزرق الأصبحي الغرناطي كان في درجة أقرانه.

2 ـ يستفاد من تورية الشاعر بكتاب الشفاء لابن الأزرق أن اسمه شفاء العليل بالعين لا بالغين وهذا يقطع الخلاف الذي أورده المقري في النفح والأزهار بخصوص اسم الكتاب[24].

3 ـ من الغريب أن ابن الأزرق لم يشر في كتابيه «روضة الأعلام» و«شفاء العليل» إلى أبيات صاحبه البسطي في التورية بهما ولم يُجْر له ذكراً مع عنايته في الكتاب الأول بسرد الحكايات الأدبية والفوائد المتعلقة ببعض شيوخه وأصحابه.

4 ـ جميع الذين «اكتشفوا» ابن الأزرق بـأَخِـرَةٍ وكتبوا عن كتـابه «بـدائع السلك» لم يتنبهوا إلى «الأزرق» والتفرقة بينه وبين «ابن الأزرق» ووقعوا في خلط شديد، وعلى كل حال فإن ديوان البسطي يلقي بعض الأضواء كما رأينا على هذين العَلَمين من أعلام هذا العصر الذي ضاعت جلّ معالمه. هذا وقد جاء في ثبت البلوى الوادي آشي (ص 184) عند تعداد شيوخ والده ما يلي: «ومن شيوخه ببلده (وادي آش) الأستاذ

الحاج الفقيه الخطيب المتكلم القاضي العدل الصارم الأمضى المدرّس المقدس المرحوم أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد بن يحيى بن قاسم بن خلف الغساني الشهير بالأزيرق رحمه». وهو فيما يبدو غير الأزرق الوادي آشي الشاعر.

ـ ونلتقي بعد هذا بسليل البيت المالقي النبيه القاضي الخطيب أبي عمرو ابن منظور الذي يشتمل الديوان على ما يفيد من أخباره وأحواله، فقد لقيه الشاعر في بسطة وسافر للقائه في مالقة وكانت بين الرجلين مكاتبات، وأول ما نجده من شعر الشاعر فيه قصيدة يهنئه فيها بقضاء الجماعة في غرناطة ويقول في أولها (65 - 66):

بـأيمنِ وقتٍ وأسعـد سـاعـه
وليتُمْ فـزِنْتُمْ قَضَـاءَ الجَمـاعَـهْ
ولحتمْ بغـرنـاطـةٍ بـدْرَ سعـدٍ
جلا العَدْلَ فيها وأبدى شُعاعَهْ
وسُكّـانُهـا اغْـتَبـطوا مـنكُـمُ
بأفضلَ مِنْ دَولَـةِ ابن جَماعـهْ

ويبدو أن الشاعر بعث بالقصيدة من بسطة فهو يقول:

فَكَمْ منْ سُـرورٍ لقينـا غداة
الحـديثَ بذاك البشيرُ أشاعَهْ
وَلَـوْ كنتُم حـاضِـرين رأيتم
بدارَ الْوَرَى يَقْصِـدُونَ سَمَـاعَـهْ

وقد أشار في هذه القصيدة بشيء من المدح إلى سلطان غرناطة فقال:

وَفَـرْضٌ عَلَيْنـا لِـمَـوْلىً رآك
أهلاً لَها إنْ شَكَرْنا اصْطِنَاعَـهْ

فَقَــدْ قلّدَ الـقــوسَ بــارِيَهــا
وَأَضْفَى على الدّينِ مِنْكُمْ شِراعَهْ

وينبغي أن يكون هذا السلطان هو الأمير سعد المستعين بالله.

والبسطي يمدحُ القاضي بالعلم والعدل وَيُشيرُ إلى بيته ومن أنجب من الأعلام فيقول:

وبـيتُـكمُ فَـخْـرُهُ ذو الحِـجى
غَـدا مُعْـظِمـاً بُعْـده واتّسـاعَـه
وأعلامُه كـل طــالـبِ عـلمٍ
بهم في الورى كم أشاعَ انتفاعَه

وقد رجعنا إلى المصادر لمعرفة تاريـخ ولايته قضـاء الجماعـة فوجدنا في نيل الابتهاج أنه «كان قاضياً بغرنـاطة سنـة أربع وستين وثمانمئة»[25] كما وقفنا في كتاب «وثائق غرناطية» على إعلامه وتوقيعه على رسمين مؤرخين بعام خمسة وستين وثمانمائة[26]. ويبدو أنه مكث مدة طويلة على رأس قضاء الجماعة فقد لقيه بها الرحالة المصري عبـد الباسط سنة 870هـ وأثنى عليه[27].

أما ابن جماعة الذي لمزه الشاعر فهو الوارد في حكاية ذكرها أحمد بابا والمقري وهي أنه لما صرف الفقيه أبو الفضل ابن جماعة عن رئاسة الكتابة بغرناطة إلى قضاء الجماعة بها وولي مكانه أبو عبد الله الشرّان لقي بعض رؤوساء الدولة ابن جماعة يوماً فقال له إن السر الذي عهدناه في الحضرة قد غاب عنها بغيبتك، فقال له: وكيف لا وقد تركتم الفضل المجموع وأخذتم الشر المكرر»[28]. ولكن الشاعـر البسطي حسب قوله كان يرى فيه غير ما رأى في نفسه:

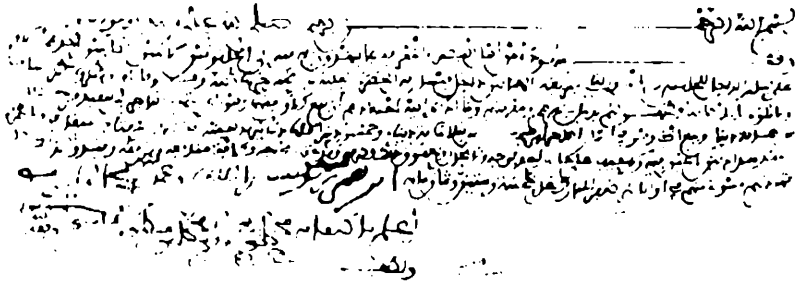

توقيع القاضي ابن منظور على رسم مؤرخ في فاتح عام 865هـ وصيغته: أعلم باكتفائه محمد بن محمد بن محمد بن منظور القيسي وفقه الله تعالى ولطف به. (عن وثائق عربية غرناطية).

ومن جهلت نفسه قدرَه
رأى غيره منه ما لا يرى

وفي الديوان أبيات أخرى في تهنئة ابن منظور بالقضاء قدّم لها هكذا: «وقلت في صدر رسالة (143):

لِلّهِ نُعْمى أتى مِنْها البشيرُ بما
عمَّ السرورُ بهِ والأنْسُ والفَرَحُ
وافَتْ على طولِ مطْلٍ وامتدادِ مَدىً
لأَهْلِ بسطةَ إسعافاً بما اقْتَرَحُوا
وهْيَ القضا لابن منظورٍ أقيمَ به
فالعدلُ معتمدٌ والجَوْرُ مطّرَحُ»

فهل هي كالقصيدة السابقة في تهنئة المذكور بقضاء الجماعة بغرناطة أم أنها في تهنئته بقضاء بسطة؟ مهما يكن الأمر فالنصان يعبران عن ابتهاج أهل بسطة لما وصل إليهم البشير بخبر توليه القضاء، وفي النص الأخير أن هذه الولاية كانت باقتراح من أهل بسطة وترضية لرغبتهم وإسعافاً لطلبهم. وقد يكون في ذلك أيضاً إشارة إلى نفوذ

الحزب الذي كانت تؤيده بسطة في هذه الحقبة.

وقد عاش ابن منظور إلى ما بعد سنة 887هـ وعاصر الأحداث النازلة بالأندلس في ذلك التاريخ، وكانت له مواقف في الدفاع عن مالقة، ومن ذلك ما يذكره البسطي في ديوانه قال: «وقلت أيضاً مخاطباً القاضي الخطيب أبا عمرو ابن منظور لما ورد بسطة ووادي آش يطلب من أهلهما إعانة بلده مالقة بما تيسر من المال والطعام لِما صحّ من خروج طاغية قشتالة لحصارها،وعمل قصيدتين محرّضاً بهما على ذلك وكتبهما وكتبت بعدهما أبياتاً» ثم ساق هذه الأبيات أو القصيدة ومطلعها (60):

أزعيمَ آدابٍ وعدلٍ في القضا
قاضي الهَوى بثُبوتِ حبّكَ قد قَضى

وقد أشار بعد مدحه إلى قصيدتيه الحماسيتين وأطراهما وقال إنه أثنى فيهما على وادي الأشى وبسطة:

وكساهُما بُرْد الفَخارِ محبّراً
ومفَوّفاً ومذهّباً ومفضّضا

ليس في كلام البسطي السابق أو قصيدته ما يستشف منه تاريخ خروج طاغية قشتالة لحصار مالقة المذكور هنا، ويبدو أنه الخروج الذي كان في سنة 888[29]هـ وخبره مشروح في نبذة العصر، ونقول هذا لأن الوادي آشي يذكر في ثبته أن ابن منظور توفي «سنة ثمان أو تسع وثمانين وثمان مائة ودفن خارج باب إلبيرة»[30] كما يفهم من القصيدة المذكورة أن الشاعر قالها في كبره:

أَذْكَرْتَني زمَنَ الْقَريض وأُنْسِهِ
والدَّهْرُ ثوبَ الأُنْسِ عنه قَدْ نَضَا

ويفهم من شكر ابن منظور لأهل بسطة ووادي آش المشار إليه في القصيدة السابقة أنهم استجابوا لدعوته وأمدوه بما تيسر لهم من المال والطعام

لإعانة إخوانهم في مالقة خصوصاً بعد تحريضه إياهم هو والشاعر البسطي.

ولما عزم على الرحيل إلى مالقة بعد ذلك خاطبه الشاعر قائلاً: (61).

كيفَ مُقامي بـعـدَكُـمْ سيـدي
والقلبُ منّي معَكمْ فـي ارتحالْ
وحـالتي للبيـن قـد حُـوّلتْ
مـالِيَ بعـد البين واللّهِ حـالْ
والموتُ عندي بعدَكمْ حاصلٌ
والعيشُ قطعاً من قبيل المحالْ
فلتحفَـظوا يـا سَيّـدي عهـدَنـا
فعَهـدُكم نحـفَـظُه لا نـزالْ
بلّغتُم المـأمـولَ من قصْـدِكُمْ
في وقتِنا الحاضِرِ أو في المآلْ

ورجا منه أن يتفضّل بمكاتبته فقال مورّياً بكتاب اليتيمة (61):

تفضّـلْ يـا ابن منـظورٍ بكَتْبٍ
يكـونُ لداءِ شـوقي كـالتّميمَـهْ
فـإن الـكـتـبَ لـلكـتّـابِ دُرٌّ
وكتبُ عـلائكم منه اليَتيـمَـهْ

وخاطبه بعد أن عاد من سفره هذا وحلّ بمالقة قائلاً (61):

هنيئـاً بها داراً حَلَلْتُمْ بِـرَبْعِهـا
على عزّةٍ كالبَـدْر حلّ بـأَسْعُدِ
وإلّا حلولَ البرءِ في الجِسْمِ والضّنَى
أتى مَعْ طبيب السقْم منكم لمَوْعِدِ

وفي الديوان أيضاً قصيدة مشفوعة برسالة في تهنئة أبي عمرو ابن منظور بتولّيه ديوان الإنشاء ورئاسة كتاب الحضرة، وهذه وظيفة سامية وليها من قضاة هذا العصر أبو يحيى ابن عاصم وأبو عبد الله الشرّان وابن منظور هذا وغيرهم، ولا نعرف متى ولي ابن منظور هذه الخطة الرفيعة، ويبدو أن هذه الولاية كانت في الفترة الأخيرة من مملكة غرناطة ومهما يكن الأمر فقد أطنب الشاعر في مدح صاحبه بهذه القصيدة التي مطلعها (84):

ما للرياضِ أنيقةَ الأثواب
مأنوسةَ الأرجاءِ والأبواب

وبعد أبيات في معنى احتفال الطبيعة وابتهاجها بهذه البشرى يقول في سبب ذلك:

ما ذاكَ إلّا للسّرور بنعمةٍ
من مُنْعمٍ متفضّلٍ وهّابِ
بِولايةِ القاضي ابنِ منْظورٍ أبي
عَمْرٍو رئاسةَ جُمْلَة الكُتّابِ

ومن هذا وغيره في القصيدة نفهم أنه ولي هذه الخطة بعد القضاء، والشاعر يعتبر هذا ترقية له ويقول:

فيحقّ أن يُدْعَى الرئيس ويَرْتَقِي
حتّى ينالَ مراتبَ الحجّاب

ومرتبة الحاجب في الأندلس هي أعلى المراتب كما هو معلوم. ولقد أطنب الشاعر في وصف بلاغة الممدوح وكتابته وغير ذلك من أدواته كما أثنى على سلفه وأهل بيته الذين أَلّف فيهم كتاب «الروض المنظور في أوصاف بني منظور»[31]. ومما قاله في وصف بلاغته:

فَمنِ ٱبْنُ عاصِم أو منِ ابنُ خطيبها
ومن الرئيسُ فتى بني الجيّابِ

ومَنِ ابْنُ عمّارٍ أو ابنُ خِصالِها
ومَنِ العراقُ وما الرّئيسُ الصّابي

ولا تقلّ الرسالة ـ وهي الوحيدة في الديوان ـ عن القصيدة من حيث تعداد أوصاف الممدوح وإظهار السرور بولايته، ويستوقفنا فيها قوله: «فلّله الحمد على إسداء هذه النعمة العميمة التي ببركتها إن شاء الله نرجو منه سبحانه رفع هذه الشدة العظيمة النازلة بهذا الوطن الغريب، الآخذة بمخنّق البعيد من أهله والقريب، فهي مقدمة للصلاح إن شاء الله منتجة، ولنفوس الأولياء بإفاضة النعماء مبهجة، ولمحذور غلاء الأسعار وطلب أعداء الله الكفّار مزعجة»[32]. وفي هذه الفقر ما يدل على الفترة التي أنشئت فيها هذه الرسالة كما أنها تكشف عن مبلغ صلة الشاعر بابن منظور وتعلقه بأذياله. وما حلّاه به من حلى وأضفاهُ عليه من نعوت في القصيدة والرسالة المذكورتين نجد مثله عند الوادي آشى في ثبته، قال: «ومنهم رضي الله عنهم قاضي الجماعة وخطيب منبري الحضرة ورئيس الكتاب صاحب القلم الأعلى الإمام الأستاذ العلامة الخطيب المصقع المتكلّم الراوية المقرىء المدرس العالم العلم الإمام المشاور الكبير الخطير المقدس المرحوم أبو عمرو محمد ابن القاضي العدل الإمام الراوية الحسيب الأصيل المقدس المرحوم أبي بكر محمد بن محمد بن محمد بن عبيد الله بن منظور القيسي المالقي، بيته بيت علم ونباهة وأصالته مشهورة رحمه الله[33]».

ويخبرنا الشاعر في مكان آخر أنه ورد على ابن منظور مرة بمالقة وخاطبه بقصيدة مطلعها (83):

مالي أستّر وجداً غير مستور
وأكتم الحبّ في حلٍّ وتسيير

ولعله قالها فيه لما كان قاضياً بمالقة، ويذكر في قصيدة أخرى أنشأها في هذه المناسبة أيضاً أن الباعث على توجهه إلى مالقة هو مشاهدة هذه المدينة الجميلة وزيارة عالمها الكبير ابن منظور، وقد شكا

من التفريط في إنزالِهِ منزلاً يليق به فقال مخاطباً «فخر القضاة» كما نعته (83 - 84):

مـاذا تَـرى في واردٍ مِنْ بَسْـطةٍ
بـلِقـاءِ مثـلِك تَنْـقضـي آمـالُـهُ
أَضْحَى بفُنْـدُقِ[34] إبْـنِ سـالِم نـازِلاً
مَـعْ مُنـزلٍ لا يُـرتضَى إنـزالُـهُ
وافَى يُشـاهِدُ حسنَ مـالقـةَ الّتي
رسْمُ الجمالِ بها انجلَى استقلالُهُ
ويـزورُ منكمْ عالِمـاً شَهـدَتْ لَـهُ
بـالعِلْم إعـلانـاً بـه أعمـالُـهُ
فلَقَـدْ سَمِعْنَـا والعِيـانُ محقِّقٌ
أنّ ابـنَ منْـظورٍ يـعـزُّ مِثـالُـهُ

ويبدو أن هذا الشعر في ابن منظور مما قاله فيه في بداية صلتِه به، وللشاعر قصيدة طويلة يظهر أنه قالها قبل زيارته لمالقة هذه، وهو يذكر أنه أنشأها «جواباً عن كتاب وصل للمَرِية مستفتحاً بقصيدة طويلة في الروي والعروض» ومطلعها (123 - 126):

أَفيكُمْ عَـلَى وَجْدي مُعـينٌ ومُنْجِدُ
فَوَجْدِي بكمْ دَهْري مُغيرٌ ومُنْجِدُ

وفيها يخاطب الأحباب بمالقة:

أأحْبـابَنـا مِنْ أهـلِ مـالقـةَ التي
محـاسِـنُهـا شتّى إذا مـا تُـعَـدَّدُ

ويعبر عن رجائه في زيارة مالقة وسكناها:

فـإنّا لنـرجو عنـدَكم جمعَ شملِنـا
ببلدتكم فـهْـوَ الشّـتيـت المُبَـدَّدُ

ونقصـدُ منهـا بالزّيـارة حضـرةً
بـزَوْرَتِهـا حَـرَّ الضّلوعِ نُـبَـرِّد

ويقولُ في محاسن هذه المدينة ومآثرها وشهرتها بالتين الذي كان يوسَقُ منها إلى البلدان:

مـدينـة أعـلام كبـارٍ أفـاضـلٍ
بـآثـارِهِمْ كُتْبُ التّـواريـخ تَشْهـدُ
ومنْبِت مـا قَدْ أَقْسَم الله بـاسمِـهِ
وسُـورتُهُ في الـذّكْـر تُتْـلَى وتُسْـرَدُ

ويسترسلُ في وصف مصانعها وقصورها التي تقيد الأبصار ومحرثها الذي هو جنة الدنيا ومسجدها الجامع الذي ما مثله مسجد وصلحائها وعلمائها وعلى رأسهم أبو عمرو ابن منظور قاضي البلد وإمامه وخطيبه كما يصف دار الصنعة التي اشتهرت بها، ويمدح ساحلها ومتنزّهاتها وطيب هوائها الذي ينفي الكسل والتبلّد،ويشيد بفرسانها وحماتها ومآثرهم التي دونها التاريخ، ثم يصف قلعتيها وميناءها والفلك الذاهبة والآيبة، ويختم بذكر تجارها الأجواد ويمدح منهم صديقاً له اسمه عبد العزيز لعله هو الذي كتب بالقصيدة التي أجابه عنها بقصيدته هذه، وأجدني مدفوعاً إلى اقتطاف قول البسطي في وصف دار الصناعة بمالقة:

وحيّتْ بها ريحُ الصّبـا دار صنعةٍ
بـأكنـافِهـا شتّى المحـاسن تُحْشَـد
بناءٌ بديع الشكلِ سامٍ إلى السّما
قـواعـده بـالأرضِ تُبنَى وتُعقَـدُ
لحسنِ حنـايـاهُ بـأعـلاهُ منـظرٌ
يـروقُ محيـاه العيـونَ ومشْهَـدُ

بِهـا تمَّ من مبناه أعجب هيكـلٍ
يشـير إلى عِظْمِ الفخـار ويـرشِـدُ
أُعِـدّ لإنْشَـاءِ الأسـاطِيـل عُـدّةً
لهـا حبُسٌ منـه عليهـا مـؤَبّـدَ
لغزو العِدَى في البحرِ أُحكمَ صَنعةً
وأَبْـدَعَ مبنـاه البـديـعَ المشيّـدُ

وقوله في وصف قلعتي مالقة:

ولـلَّهِ فـيـهـا قـلعـتـانِ تجلّتـا
بنـاؤُهمـا راقَ العيـونَ مشَـيّـدُ
حكتْ شُرُفاتُ السّور من قلْعتَيْهما
ثُغُـورَ الغـواني الـدرُّ فيهـا منضّـدُ
علتْ منهما الأبراجُ في حال قربها
عُلُوّاً وقـربـاً مثلُه ليسَ يـعْهَـدُ

إن هذه القصيدة في وصف مالقة تذكرنا بكلام ابن الخطيب والفقيه عمر المالقي في وصف مالقة[35]، ولم يكن هذا الكلام غائباً عن البسطي حين نظم هذه القصيدة.

وقد ختم الشاعر قصيدته هذه مفتخراً بنظمه وملمحاً إلى قصده في سكنى مالقة إذ يقول لصاحبه إبراهيم التاجر المذكور:

ومـا القصـدُ إلاّ أن أمَهّـدَ حُبّـه
عسى غرضي ألْقى وما أنا أقصِدُ

ولكن هذا القصد لم يتحقق وظل الشاعر في بسطة يخاصم أهلها ويشكو أحوالها، وهو يخبرنا أنه كتب إلى صديقه عبد العزيز التاجر رسالة افتتحها بهذين البيتين (139):

إلى النّـائي بمـالـقـةٍ وقـلبـي
لـهُ مثـوىً أخي عبـدِ العـزيـز
أجـلّ أخٍ مجـيرٍ مَـن يُـواخـي
مـنَ الجُـلّى وبـالحُسْـنى مُجيـزِ

ومّما قاله مرة «مخاطباً الرئيس القاضي الماجد أبا عمرو بن منظور في شأن الأحباس» (91):

يـا أيها المـاجـدُ المـأمـولُ جـانِبُـه
لحفظ الأحباس من عادٍ ومفترِسِ
اللَّهَ فيها فقد ضاعتْ وقد خربَتْ
وأصبحتْ في عِدادِ الأرْبُع الدّرسِ
وللمسـاجدِ يَسْـرِي أمـرُ ضَيْعتهـا
إنْ حقُّها دونَ أحباسِ البلادِ نُسِي
وقـد أتتكَ بمـا تلقـاهُ شـاكيـةً
معْ أنّها وُصفتْ بالعيّ والخَـرَسِ
ومُشْـرِفـاً وشهيـدَيْنِ انـظرنَّ لَهـا
وناظراً طاهرَ الأعراض منْ دنَسِ
لا زال جانبُ ذاك المجد مـرتفعاً
مبلَّغَ القصـدِ منـه كـلُّ مُلْتَمِسِ

وسنعود فيما بعد إلى مواقف شاعرنا الفقيه البسطي في الدفـاع عن الأحباس والشكوى من الإهمال الذي أصابها في تلك الأيام المحلولكةِ.

ـ ومن أعلام العصر الذين عرفهم الشاعر الفقيه وذكرهم في ديوانه أبو عبد الله محمد الجعدالّه، وقد خاطبه الشاعر مهنئاً بتوليه القضاء والخطابة في البيّازين بغرناطة قال (120):

يـا سليـلَ القضـاة من آل جعـدٍ
مُنْتَهى العِلْمِ والـذّكـا والنّجـابَـه
شــرفُ الـبيّــازيـنَ زاد ظُـهــوراً
مــذْ وليتمْ قَضـاءَهــا والخَـطَابَــة
وستـســمُــو بــك المــراتبُ حـتّى
تنتهي رفعــةً لنيــلِ الحِجــابَـهْ
فـهـنـيئـاً بمــا وَلِـيـتُـمْ هــنـيئـاً
يشمَــلُ الأهـلَ كلَّهم والقَــرابَــهْ

ويفهم من هذا أن ربض البيازين ـ وهو الحي الشعبي في غرناطة ـ أصبح له قاضيه الخاص به، بل إن هذا الربض انفصل في سنة 891 عن غرناطة «فتعصّب أهل غرناطة مع أميرهم محمد بن سعد (الزغل) على أهل البيازين وتعصب أهل البيازين مع أميرهم محمد بن علي (بوعبدِل) ووقع الحرب والقتال بينهم وصاروا يقتل بعضهم بعضاً وينهب بعضهم بعضاً»[36]، ولا نعرف الموقف الذي كان للفقيه الجعداله من هذه الأحداث ولكنّنا نعرف من فتوى واردة في المعيار أنه كان مع فقهاء الأندلس الذين أفتوا بثبوت بَيْعة أبي الحسن وبطلان بيعة ولده محمّد (بوعبدل)، وقد حلي في هذه الفتوى المؤرخة «في أواسط شهر رمضان المعظم عام ثمانية وثمانين وثمانمائة» بالسيد المفتي[37].

وثمة قطعة أخرى خاطبه بها الشاعر لما ولي قضاء بسطة، وهي (120):

دُرّةَ الفضْــــل لــدَيْنـــا وبعِقْــد المجْـد وسْــطَهْ
كُــلُّ مُـغْـرىً بهَــواكُمْ مِنْ مُنــاهُ نــالَ قِسْــطَهْ
يَــوْمَ عُــدْتُمْ للْقَـضَــاء مَــرَّةً أُخْـرَى بِـبَسْــطَهْ

ويلاحظ أن البسطي لم يسمه وإنما مهد للقطعة الأولى بقوله:
«وقلت أيضاً مخاطباً بعض القضاة» وللثانية بقوله: «وقلت أيضاً مخاطباً

القاضي المذكور» ولكن اسمه مستفاد من القطعة الأولى، ويفهم من البيت الأخير في القطعة الثانية أن الجعداله تولى قضاء بسطة مرتين على الأقل، وقد وجدنا في مجموع «وثائق غرناطية» رسماً فيه إعلام بثبوته لما كان قاضياً بمدينة بسطة، وهو «بتاريخ الثامن والعشرين لذي الحجة متم عام تسعين وثمان مائة»[38] ويخبرنا أحمد البلوي الوادي آشي الذي أقام بغرناطة «عامي ثمانية وتسعة وثمانين وثمان مائة» أنه كان يدرس كتاب الجمل على شيخه الجعداله «وعاق عن التمام سفره أبقاه الله إلى بسطة»[39] وقال في ترجمة الجابري الزليجي: «ولما سافر شيخنا أبو عبد الله (الجعدالّه) إلى بسطة انتقلت إلى القراءة على شيخنا هذا»[40]. ويذكر أنه لما عاد الجعدالّه من بسطة خلال التاريخ إلى غرناطة قرأ عليه بالمدرسة النصرية. وقد توفي الجعدالّه بغزة متوجّهاً إلى الحج عام 897هـ[41].

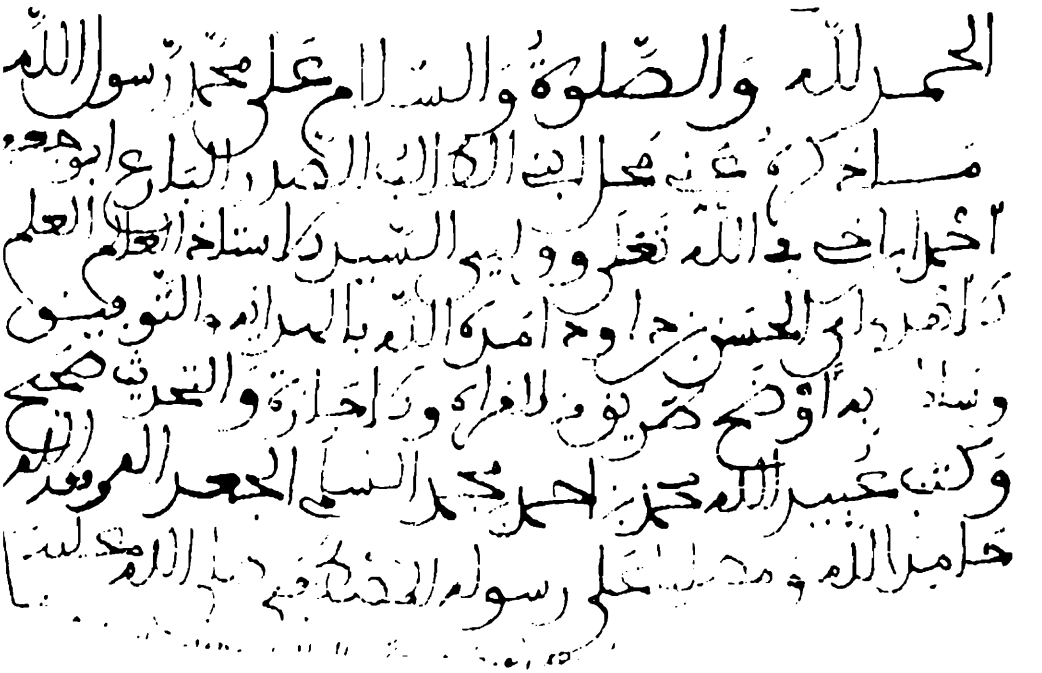

خط القاضي الجعدالّه (عن ثبت الوادي آشي البلوي).

ـ ومن هؤلاء الأعلام الفقيه الشيخ أبو الحسن علي بن داوود الوادي آشي والد صاحب الثبت المعروف[42]، وفي ديوان شاعرنا قصيدة يدور موضوعها حول موقف إصلاحي لهذا الشيخ، وهي تذكر أنه قدم بلد بسطة في أعقاب فتنة خطيرة نشبت بين أهلها أطال الشاعر في وصف أهوالها وأضرارها فنجح في إعادة الأمن إليها وأفلح في إصلاح ذات البينِ بينَ أهلها، وكان له من الفعل الجميل ما حمده له الناس وشكروا صنيعه فيه، ولسنا نعرف هل كان هذا الموقف تطوّعاً منه أم أنه قام به بتكليف من السلطان، ويمكن أن يكون هذا الموقف الإصلاحي في أثناء تولّيه خطة القضاء ببسطة وهذا ما لم يرد في ترجمته، والشاعر الفقيه ينعت الرجل بالعلم والصلاح ويذكر أن آثاره وفضائله سارت مسير الشمس ويقول إنه مفخر وادي آش كما تشير القصيدة إلى أن مقامه في بسطة كان قصيراً، ويبدو ـ إذا صح ما افترضناه ـ أنه اعتذر عن قضاء بسطة بعد مدة قصيرة ـ كما تورّع عن قضاء غرناطة بعد نحو شهر حسبما جاء في ترجمته، ونثبت القصيدة المذكورة فيما يلي نظراً لفائدتها ولكونها مخطوطة (128 - 129):

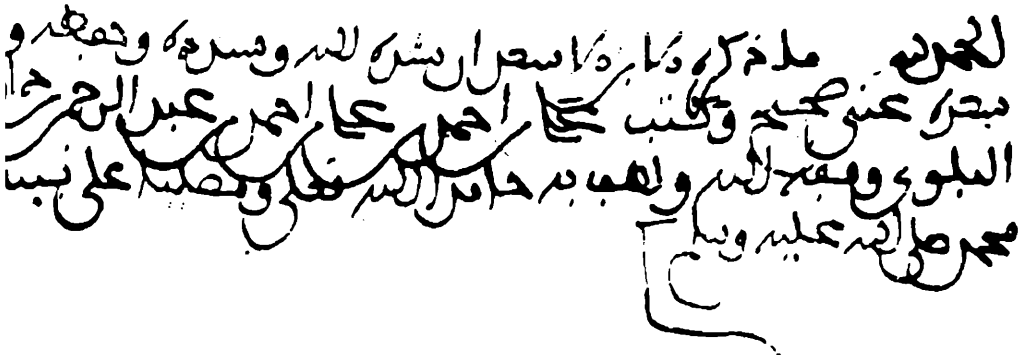

خط أبي الحسن البلوي الوادي آشي (مخطوط ثبت الوادي آشي في الأسكوريال).

مَحلَّ العلمِ حقّاً والصّلاحِ
وأعْلَى مَن تحلّى بالسّماحِ
ومَن أضحتْ له ذاتٌ تنادي
بحُسنِ البشرْ حيَّ على الفَلاحِ
ومَنْ سبقَ الأماجدَ إذ تجارَوْا
وراموا السبقَ بالمجدْ الصُّراحِ
ومَنْ آثارُه في الفضْلِ سارتْ
مسيرَ الشّمسِ والبدرِ اللّياحِ
قدِمْتُم بسطةً والأمنُ عنها
لفتْنتِها العظيمة ذو انتزاحِ
بأفْئِدةٍ لِما نَخْشى مِراضٍ
ونياتٍ لِما نرجو صِحاحِ
وليسَ بها سِوى ضَرْبٍ وطَعْنٍ
بمَعْهُودِ الصّوارمِ والرّماحِ
وحربٍ صعْبةٍ دارتْ رَحاها
على الأَرْواحِ بالحَيْنِ المُتاحِ
وقد صمَّتْ بها الآذانُ سمعاً
لقعْقَعةِ السّلاحِ والصّياحِ
وردّت أعينَ البصراءِ تَعْمَى
لسفْكِ دمٍ ومالٍ مُستباحِ
ودينِ الجاهليةِ وهو ما لا
خفاءَ بهِ لدينِ الحقِّ ماحِ
وما منّا سِوَى سكرانِ همٍّ
وغمٍّ، ليس من سكرٍ بصاحِ

عليـل القلْبِ مسلوب اصـطبـارٍ
مـريض الفكـر مكْســور الجَنـاحِ
فــداويْــتـم بهــا الـعِـلل الـلّواتي
قــد اتضحَتْ بهــا أيّ اتضــاحِ
ونلتُمْ مـنــزلاً في الحــالِ فيـهــا
مقــاصـدَكم وفُــزْتُمْ بــالنجــاحِ
وأصـلحتُـمْ فســاداً كــان أعـيــا
فعـادَ بهـا الفســادُ إلى الصّـلاحِ
وصــالحتُمْ بهــا بــينَ الأعــادي
فعـادوا صـالحـينَ بـلا اصطِلاحِ
وجئتُمْ من جميـلِ الفعْـلِ فيهَـا
بـكــلّ مُنىً رَجَــوْنــا واقْـتــراحِ
فشكــرُ صَنيعكُمْ فَــرْضٌ علينــا
كشُكْــرِ الغَيْث مغبــرَّ الـبطــاحِ
ولكنْ ســاءَنـا عَجَــلُ ارتحــالٍ
رأينــا العـذر عنــه ذا انــطراح
ومَـغْـنىً ســرّنــا بـكـم مـســاءً
أســاءَ ببينـكـم عنــدَ الـصّبــاحِ
قــصــدنــاه بــأفئــدةٍ إلـيــكــم
عـلى طـول الـنّوى ذات ارتيـاحِ
فــألـفـيـنــاهُ مـهــجــوراً خــلاءً
لـفُــرْقــة تلكـم الغُــرَرِ المِــلاحِ
فعُــدْنــا منــهُ والأحـشــاء جَمْــرٌ
ودمـعُ العـين هــامٍ ذو انسيـاحِ

أبـا الحسـنِ بْـنَ داوودٍ عـليـاً
وحيـدَ زمـانـه الحَسَـن المَناحي
ومفخـرَ واديـاشَ على سـواهـا
بنشـر العلمِ من شَتّى النّواحي
إليـك بعثتُ من نـظمي بعِقـد
لجيـد جـلالِـك العـالي مُبـاحِ
عقـودَ الـدرّ يفضَـح حـين يُجْـلَى
بتـرتيـب وألـفـاظٍ فـصـاحِ
فخُـذْهُ كـما اقتضـاهُ الحبُّ واسمحْ
فـأنتُمْ قـد عُـرفتُمْ بـالسّمـاحِ
فـمـثـلي مـا عـليـهِ في نـظامٍ
نُميتُ بـه إليكُـمْ مـن جُنـاحِ
بقيـتَ كـما تحبّ قـريـرَ عـينٍ
وبـالـمأمـولِ صـدرُك ذو انشـراح

ومن هذه القصيدة تبدو مكانة الرجل الذي كان من أعيان الأندلس في هذه الفترة، ويؤكد ذلك أنه كان ثالث الخمسة عشر الذين أفتوا بتأكيد بيعة السلطان أبي الحسن النصري وعدم شرعية بيعة ابنه أبي عبد الله[43].

ـ ومن فضلاء عصره من أهل المرية الفقيه أبو جعفر أحمد بـن القصّار، وقد رأينا مما سلف أنه كان ذات مرة في المرية فلعلّه عرف هذا الشيخ بها، وهو يخبرنا أنه كتب إليه رسالة وخاطبه في صدرها بأبياتٍ مستعيراً منه كتاب تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري وموزّياً بكلمة القصار (67):

يـا سيـداً مقـدارُه مـا مـثـلُه
مِنْ بـينِ أقـدارِ الـوَرَى مقـدارُ
ومعـظّماً عكفتْ عـلى تعـظيمـه
لجَـلالِـهِ وجَمـالِـه الأبـصـارُ

ثــوبي من اللّغَةِ التي أحتــاجُهـا
عنـدي لنَقْص كمـالــهِ استقـرارُ
وعليكُـمُ تكـميـلُهُ بصـحـاحكـمْ
نقصُ الثيــاب يُــزيله الـقصّــارُ
فـتفـضّلوا مـنْــهُ عــلي بـنِعـمــةٍ
تسْــري لكُمْ بثنــائهــا أشْعــارُ

وعددت هذا الشيخ من أهل المرية لأني وجدت القلصادي يذكرُهُ في رحلته عند الحديث عن وصوله للمرية عائداً من الحج عام 855هـ ويقول:

«ووجدت بها (أي بالمرية) أكثر أصحابنا كالشيخ بركة الوقت الفقيه الإمام العلّامة المقرىء المدرّس الخطيب سيدي ومحل ودي واعتقادي أبو جعفر أحمد بـن القصّار حفظه الله»[44]. وجعله أحمد بابا غرناطياً ونقل كلاماً لابن الأزرق الفقيه في التعريف به[45] وقد وقفت على ذكر لمحمد بن أحمد القصّار من عدول بسطة في سنة 890هـ (وثائق غرناطية: 92) ولعله ولد المذكور.

- ونجد في الديوان بيتين يهنّىء بهما القاضي الشريف وقد صدر بهما رسالة إلى المذكور وهما (134):

يـقــلُّ بشـــارةً لـســرورِ نَفْـسـي
تليــدُ المـالِ عِنْـدِي والـطّريفُ
غــداةَ أتى البشيـرُ يقــولُ جهــراً
أُعيدَ إلى القَضا القاضي الشّريفُ

وفي مجموع «وثائق غرناطية»[46] رسوم يعلم بثبوتها وهي مؤرخة بعام 856هـ وعام 858 ومن هذا نعرف تاريخ هذه التهنئة، وقد اجتمع به الرحالة المصري عبد الباسط في مالقة سنة 870 هـ وقال إنه كان قاضي الجماعة بغرناطة[47].

كما عده البلوي الوادي آشي في شيوخ والده (الثبت: 189 - 191).

ـ وفي الديوان أيضاً بيتان يورّي فيهما باسم الفقيه أي الحسن علي بن عتيق وهما (152):

شُغِفْتُ بِـهِ عـزّاً عتيقـاً جـوادُه
يـسـابـقُ بـالمـيـدان كـلّ فـريـقِ
عجبتُ له يُعْزى له السبقُ في المَدَى
ولا عجبٌ أن يسبـقَ ابنُ عـتيـق

وقد وُصِفَ هذا الشيخ في ثبت الوادي آشي بأنه «الإمام الخطيب المقرىء العلاّمة أبو الحسن علي بن عتيق بن العز»[48] وذكر أنه كان عمدة في القراءات.

ـ ومن قضاة العصر الذي خاطبهم الشاعر بشعره القاضي ابن أبي البقاء، والبسطي يشكو من مبلغ قليل من المال وجهه القاضي إليه مع أحد أعوانه، فأخذ العون بعضه، ووجد الشاعر فيما وصل إليه نقداً زائفاً، كما يشير إلى إيثار القاضي أحدَ منافسي الشاعر وتخصيصه بالحظ الأَوْفَر من العطاء (79):

أجوراً ومنْ تلْقائِكم يُطْلبُ العدلُ
ويلتمسُ الإحسانُ والجودُ والفضلُ
وظُلْماً وحـاشا مجـدَكَمْ أن يجـرَّكمْ
إليهِ جَهولٌ لم يَـزَلْ طبعَه الجَهـلُ
بـذلتُمْ فأكثـرتمْ لـه عنـدَ بـذلِكُمْ
وصِيتُ الفتى في النّاسِ ينشُرُه البذلُ
وأعـليتُـمُ مـقـدارَه بـفَـعـالـكـمْ
ووالله لـولا أنتمُ لَمْ يكـنْ يعْـلو
وخلّفْتموني يا أُولي الفضلِ والنّدَى
وحَظّي كما تدرون منْ بَذْلكم قُلُّ

وَلَوْ لَمْ يكنْ فيهِ لدى الخُبْرِ زائفٌ
لكانَ لهُ منْ مهجتي جانبٌ سهْلُ
ولي تُهْمَةٌ للْعَوْنِ في أخْذِ بَعْضِهِ
وتَغْريمُهُ ما إنْ لهُ غيْرُكم أهْلُ
وما حظُّه إلاّ يسيرٌ لمُنْصِفٍ
وفي خُلّةِ الإنصافِ ليسَ لكُمْ مثلُ

ولم نقف على ترجمة ابن أبي البقاء هذا الذي ربما كان قاضياً في بسطة، ولعلّه من ولد القاضي أبي البقاء خالد البلوي.

ـ ومن هؤلاء القضاة الذين ذكرهم ولم نجد لهم خبراً فيما رجعنا إليه من المصادر الكاتب القاضي أبو عبد الله محمد بن معن[49]، وقد مدحه الشاعر بقصيدة مطلعها (97):

يا عَلَمَ الوقْتِ في القُضاةِ
عِلْماً وديناً وفَضْلَ ذاتِ

ونرى الشاعر في آخر هذه القصيدة يقدم طعاماً إلى هذا القاضي المعين ببسطة في الغالب مثلما صنع مع القاضي أبي عبد الله محمد مالك، وهو يستعديه على خصومه من العدول على ما يظهر ويطلب حمايته، قال (98):

خذْ سيّدي النزْرَ مِنْ طعامي
صُحْبةَ نظمي إليكَ ياتي
فقدرُكَ الفَخْمُ ليس يُلْفِي
مثلي هنا مالَهُ يواتي
ولو وهبتُ الغَداةَ نفسي
قلّتْ لك النفسُ في الهِبات
فاقبَلْهُ منّي قبولَ فضلٍ
رغماً على الأنفِ مِنْ عِداتي

واصـدَعْ صفـاةَ الجميـعِ منهـمْ
بـفعـلك(؟) صَـدْعَـهـمْ صَـفـاتي
وكـنْ لـراجيـكَ خـيرَ حـامٍ
فـأنـتَ مِـنْ أفـضـلِ الحُـمـاةِ
ولْـتَـلْقـهُـمْ مُـقْـدِمـا مُـعَـدّاً
بـالـتُّـرْسِ والسـيْـفِ والـقَـنـاةِ

ـ ومن فضلاء بلده بسطة أبو بكر ابن لبوة وقد أجابه الشاعر على قصيدة تلقاها منه بقصيدة طويلة مطلعها (115 - 118):

جَلَتْ بعْدَ حَجْبٍ حُسْنَها للنّواظِرِ
فَأصبحَ مشْغوفاً بِها كُلُّ ناظِرِ

وبعد أبيات في وصف القصيدة يقول:

أَتَتْ من وحيدِ العصْرِ نجلِ ابنِ لَبْوةٍ
أَبي بكرٍ الأرْضى سليلِ الأكابرِ

ثم يمدح شعره وكتابته ويذكر أنه من بيت علم ويصف طريقته في الوعظ والتذكير فيقول:

ووعظ وتـذكـيرٍ إذا مـا جَـلاَهُمـا
فليسَ سِوى هامٍ من الدمعِ هامر
لعمري لقد أحيا بما اختارَ مِنْهُما
لإلْقائِـه للخلْقِ مـوتى الخـواطِـرِ
فكم مـذنبٍ مما جنى متـوجعٍ
لتـأثـيرِ مـا يـأتي بـه مِنْ زواجِـرِ
وكمْ بـاذلٍ في طاعـة اللَّهِ جهدَه
يـروح ويغـدو بـين تـالٍ وذاكِـرِ

تلطّفَ في استعطافِهمْ دونَ هَدْيِهم
بناهٍ من الوعظ البليغ وزاجر
وقصدٍ جميلٍ لا خفاءَ بحسنِه
وصدق رجاءٍ في صفاءِ السرائر
إذا المرءُ في تذكارِه كان صادقاً
تأثّرَ إعجاباً بهِ كلُّ حاضِر

ولعل صاحبه أبا بكر هذا هو المعنيّ بهذين البيتين الواردين بعد القصيدة المذكورة (118):

سحرتَ أبا بكرٍ حبيبيَ مهجتي
بنوع من الشِّعْر الشّريفِ غريب
فأصبحتُ أرْوي عنكَ منهُ قصائداً
هيَ السحرُ لكنْ مِن نظام حَبيب

وإنما اعتبرت هذا الرجل من أهل بسطة لأنّي وقفت في «وثائق غرناطية» على رسم يشير إلى دار ابن لبوة بالرحبة من داخل بسطة، والرسم مكتوب في الخامس والعشرين لشعبان من سنة اثنتين وأربعين وثمان مائة[80].

ـ وثمة أعلام ذكرهم ولم نقف على تراجمهم أو شيءٍ من أخبارهم في المصادر الموجودة، ومنهم قاضي بسطة ابن الأحول الضبّي الذي هجاه الشاعر كثيراً، وابن مفضل قاضي بسطة، وقد انتقده الشاعر ثم رثاه بعد موته، وسنعرض لهذا الشعر في فصل قادم، ومنهم أحمد بن القاضي الذي يقول فيه (81)

لِلْفضلِ أقوامٌ أقاموا رسمَهُ
مِنْهُمْ حَقيقاً أحْمَدُ بْنُ القاضي
لَكنّهُ عِندي المُقَدَّمُ وحْدَه
في ذا الزمانِ وفي الزّمانِ الماضي

وقد يكون أحمد بن القاضي المذكور هو الذي تحدث عنه أحمد بابا في نيل الابتهاج بقوله (159): «وتوفي أخوه الفقيه الحاج الخطيب الصالح أبو العباس أحمد ابن القاضي حمو سنة سبع وستين وثمانمائة» أو لعله القاضي الشريف أبو العباس أحمد الذي تقدّم ذكره.

ـ وأبو الحسن الرندي الذي يذكره مستعملاً الجناس في هذين البيتين (80):

إذا ما قَضيب البانِ مالتْ بِه الصَّبا
وأفْصَحَ طيرُ الأُنْس في غُصُن الرَّنْدِ
يُهيّجني شَـوْقي ويجـذِبُني الهَـوَى
إلى الطّالب الأَزْكى أبي الحسنِ الرُّنْدي

والشاعر الفقيه يستعمل كلمة الطّالب وهي في استعمال الأندلسيين المتأخرين والمغاربة مرادفة لكلمة الفقيه.

ويقول في شخص آخر يدعى ابن الأمين الشطني (80):

إيـاكَ أن تَجْهَـل يـا مصـاحِبـي
قـدرَ الفقيهِ ابن الأمـينِ الشّطَنـي
فـإنّـني والـلَّهِ أرجـوهُ بأن
يـكـونَ أستـاذاً لهـذا الـوطَـنِ

ويبدو أن المذكور منسوب إلى حصن الشطنين، وفي نبذة العصر ذكر سقوطه وخروجه من يد المسلمين سنة 879هـ[81].

وكذلك الإخوة بنو أيوب من برشانة الذين زارهم الشاعر أو كتب إليهم قصيدتـه التي مطلعها: (131 - 132):

لـلَّهِ مِـنْ بـرشـانَـةٍ بـلدُ
بـالحسـنِ في البُلْدانِ منفـردُ

وبعد أن امتدح طبيعتها الجميلة قال متخلصاً إلى مدح أصحابها بني أيوب:

وهَـوى الديـارِ من آجلِ سـاكنِها
لا يمْـتَـرِي في شـأْنِـه أحَـدُ
لا سيـما إن كـانَ مثـلَ بَني
أيوبَ في الفضلِ الـذي اعْتَمَدوا
فَـهُـمْ ثـلاثـةُ إخـوة وُصِـفـوا
بمـنـاقـبٍ مـا إنْ لهـا عـدَدُ
فخَـطيبُـهمْ والـقـاضي ما لهـما
كـوزيـرهـم نِـدٌّ إذا انـتـقـدوا
هـذا مـواعـظُه بـلاغـتُـهـا
عنْهـا استبـانَ الـغيُّ والـرشَّـد
ولـذا إذا أحـكـامُـه اتضَـحَـتْ
عـدلٌ بـه الحكـامُ مـا عهـدوا
ومحـلُّ هـذا مِـنْ كـفـايـتِـهِ
مـن دونِـه المـيـزانُ والأسَـدُ
وَرَدوا مـواردَ مجـدِهـم نَـسَـقـاً
فـروَوْا من المجـدِ الـذي وردوا

وفي هذا شبه تعريف بهؤلاء الإخوة الأعلام الذين كان أحدهم وزيراً والثاني قاضياً والثالث خطيباً إلاّ أنّ الشاعر لم يذكر أسماءهم. ولم أقف على شيء يتصل بهم.

ـ كما ذكر أخوين من أهل المعرفة يدعيان بابني القفال أحدهما أبو علي حسن بن القفال والثاني أخوه حسين، وقد اشتهرا في وقتهما بحسن الخط،

ولأبي علي منهما مؤلفٌ في الأمثال العامية، وهذا ما استفدناه من قول البسطي[81]:

إنَّ ابْنَيِ القفّالِ في عَصْرِنا
كِلاهُما في خطِّهِ مُحْسِنُ
لكنْ حسينٌ منهما خطُّهُ
أشكالُهُ في وضْعِها أحسَنُ

وقوله وقد كتبه على ظهر الأمثال العامية لأبي علي القفّال (106):

لِلَّهِ درّ علي إنّه
في أنسِه أذْكى بني القفّال
ولَهُ انتهى الظرفُ الذي ما مثلُه
في ذا الزمانِ ولا الزمانِ الخالي
دلّتْ عليهِ دلائلٌ لا تَخْتَفى
منها المجيءُ بهذِه الأمْثالِ
فلقَدْ أتى مِنها بما راقَ النُّهى
وقَضى لهُ في الناسِ بالإجلالِ
حفظَ الإلَهُ من المكارهِ ذاتَهُ
وحباهُ بالإنعامِ والإفْضالِ

وإن هذا الوصف أو التقريظ لكتاب الأمثال الأندلسية هذا يجعلنا نتطلّع إلى ظهوره ونرجو عدم فقدانه إذ لا شك أنه يضيف ـ لو وجد ـ ثروة في تراث الأمثال الأندلسية التي دوّنها الزجالي القرطبي وابن عاصم الغرناطي.

ـ وكما مدح البسطي ابن القفال بحسن الخط فقد مدح خطّاطاً آخر اسمه عبد الملك وعبّر عن إعجابه بخطّه في قصيدة أولُها (66):

هكذا يُعْتَنَى بكُتُبْ العُلوم
في حديثِ الزّمانِ أوْ في القَديمِ

وتُحلّى المَهارِقُ البيضُ منها
بحُلَى خطٍّ فاقَ وشيَ رَقيمِ

وهو يصف جمال هذا الخط وينعتُ صاحبه بالإجادة والاختراع ثم يسميه قائلاً:

ما كَعَبْدِ المَليكِ كاتبُ خطٍّ
بارع النّوع في الخُطوطِ قَديمِ
فاقَ خطَّ ابنِ مُقْلَةٍ وابن باقٍ
وابن جبيّر عندَ أهلِ الفُهومِ
ما تبدّي لناظر العين حرفٌ
منهُ إلّا دَعا له بالنّعيمِ

ويقول إنه نسخ الكثير من المصاحف والكتب بخطّه:

كمْ كتابٍ ومصْحفٍ كفّه خطّتْـ
ـهُ تبغي رِضَى الإلهِ العظيم

ويشير الشاعر إلى نسخة بخط المذكور من رسالة ابن أبي زيد القيرواني لعلها كانت في حوزته، ولا نعرف الآن شيئاً عن هذا الخطاط، وربّما ضاع ما خطّه بيمينه في تلك الأيام العصيبة. أمّا ابن باق وابن جبير فلعلهما من الخطاطين الأندلسيين.

ـ وثمة في الديوان شخص يدعى أبا الرضى وقد مدحه بالكرم مرتين، وذلك في قوله (78):

لأبي الرِّضى في الفضلِ فضلٌ ظاهرٌ
ما نالَهُ الجَمُّ الفضَائِلِ حاتِمُ
ختمَ الإلهُ بفضْلِهِ في عصرِنا
أهلَ الفضائِلِ فهْوَ فيه الخاتمِ

وقولـه: (79):

ضَـرَبـوا بحـاتِمِ طيءٍ أمثـالَهُمْ
في الجُـودِ لما فـاقَ فيه مَن مَضَى
تـاللَّهِ لـو بَلَغـوا إلى أزْمـانِنـا
لَمْ يضْرِبوا مثـلاً بغَيْر أبي الـرِّضى

ويبدو أن الشاعر يمدح في القولين «القائد أبا الرضى بن دعمون» من قواد غرناطة في هذه الحقبة، وقد ورد ذكر ابنته «المصونة فاطمة بنت القائد أبي الرضى بن دعمون» في رسم بيع مؤرخ في ربيع الأول عام تسعمائة. (وثائق عربية غرناطية: 141).

وله قصيدة ذكَر أنها قالها معرّضاً يخاطب فيها شاعراً من أهل بسطة اسمه مفضل، وهو يقول في أولها (47):

ما زلْتَ تحرزُ خَصْل السّبْق في الأدبِ
حتى أتيتَ من الإحسانِ بالعَجَب
فكلّنـا أظهـرَ التسليمَ مُعْتـرفـاً
بالعجزِ عن نيلِ ما قدْ نِلْتَ من رُتَبِ

وبعد أن يمدح في الظاهر شعره ونثره وعنايته بالبديع ويذكر تصدير النّاس له وتفضيلهم إياه يقول:

فـدُمْ لبَسْـطَةَ تكسـوهـا بـدائعُكُم
منَ المفاخِرِ مـا يبقَى على الحِقَبِ

ويختم القصيدة بهذا البيت:

قلْنـا مفضّـلُ أعلى الخلْقِ منـزلَـةً
وعُلْوُه واضِـحٌ من حُـرْفـة الأدب

وهذا كله لا يحمل على المدح لأن الشاعر قصد فيه إلى التعريض بهذا الشاعر الذي أصابته حرفة الأدب.

وقد وقف شاعرنا الفقيه «على بيتين من نظم شاعر إليه انتهى فيما استفاض التخرّج» فقال:

ولّما بَدا لي مِنْهُما ما رأيتُهُ
مِنَ الضّعْفِ[. . . . .]
سألتُ خليلي ما الجزاءُ عليهما
فقالَ الجزا صَفْعُ القَفا أو يذبّحُ

ويبدو أنهما في مفضّل المذكور.

ـ ومن فقهاء العصر الذين كاتبهم الشاعر وكاتبوه أبو عبد الله التلمساني والشاعر يصفه بوحيد العصر وأنه يزري في الفروع بأحمد وفي الشعر بحسان وأنه أحرز في السياسة ما لم يحرزه بنو ساسان، وكل هذا مما جلبته قافية النون، ويقول (64 - 65):

فأصبحتَ فرداً لا يُرَى لك مشبهٌ
بأندلسٍ حتّى لأقْصَى خُراسانِ
فإن قيلَ من هذا الذي بانَ فضلُه
أقولُ أبو عبد الإلَهِ التلمساني
سليلُ القضاةِ المَطْغَريّينَ رِفعةً
فدَعْ ذكرَ لخم أو جذامٍ وغسّانِ
حفظتُ له وداً تقادمَ عهده
ترى أحفظ الودّ القديمَ وينساني
وأكسوه ثوبَ المدحِ ما عشت ضافياً
كما أنه ثوب المدائح أكساني

ولا نعرف على وجه التحقيق من هو هذا العالم التلمساني، فقد يكون أبا عبد الله ابن مرزوق التلمساني الكفيف (824 - 901هـ). وقد أطال الوادي آشي صاحب الثبت في ترجمته، وقد يكون أبا عبد الله ابن مرزوق الحفيد (766 - 842هـ) الذي أخذ عنه القلصادي معاصر الشاعر وترجم له في رحلته (96 - 98). وقد يكون أحد هؤلاء الشرفاء الحسَنيين التلمسانيين الذين منهم القاضي الشريف المتقدم.

وكلمة المطغريين الواردة في الأبيات نسبة إلى مطغرة تلمسان .

ـ ونشير كذلك إلى أحد أصحابه محمد اللحياني الذي ارتجل في رثائه عندما بلغه موته هذه القطعة:

صَبْـرِي لَمَـوْتِ محمّـدِ اللّحْيَـاني
مـتـعـذر إدْراكُـهُ أعْـيـاني
قَـدْ خانَني جَلَدي وَأَسْلمني العَـزا
لعـظيم مـا أَلْقَى من الأشْجـانِ
ما كنْتُ أحْسِبُ قَبْلَ يـومِ وفاتِـهِ
دَمْعِي يصـوبُ دَمـاً من الأجْفـانِ
حتّى نَعَى النّـاعي بصحّـةِ مَـوْتِـهِ
فَجَـرَى بصَفْـحِ الخَـدّ كـالعِقْيـان

ـ ولا ننسى في الأخير الإشارة إلى من سمّاه بالقائد الفنشي وقد عبر عن إعجابه بجماله وأدبه في قصيدة أولها:

رَعَى اللّهُ ـ ما دارَ الزّمانُ ـ عَشِيةً
تَحَلَّتْ بمرأى وَجْهِ قائِدِنا الفنشي

وآخـرهـا:

سَمِعْتُ بِـهِ يَـوْمـاً فَلمّا رَأَيْـتُـهُ
رأيْتُ محيَّا الشمس بين الْوَرَى يَمْشي

وبعد فهؤلاء هم الأعلام الذين وجدنا لهم ذكراً في ديوان الشّاعر، وقد بذلنا ما في وسعنا من أجل معرفتهم ومعرفة شاعرنا من خِلالهم.

ولعلنا نستغرب في الأخير عدم تسميته أو إشارته إلى بعض الأعلام البسطيين وغيرهم ممن ذكروا في رحلة القلصادي وبرنامج المجاري وبرنامج المنتوري وثبت الوادي آشي، كما نستغرب سكوت هذه المصادر عن ذكر صاحبنا.

الحـــواشي

(1) على هذه المصادر اعتمد كل من الفقيد لويس سيكو دي لوثينا في كتابه: محمد IX سلطان غرناطة ص.ص. 56، 58، 135، 137، 145، 158، 183، 185، 188، 189، 206، 214، 222، 224، 225. وكذلك الدكتورة راشيل أريي في أطروحتها: اسبانيا المسلمة في عصر النصريين ص.ص. 132، 142. وللفقيد لويس سيكو مقالة حول أسرتي ابن عبد البر وابن كماشة.

(2) نيل الابتهاج: 313.

(3) المصدر نفسه.

(4) ديوان البسطي: 31- 32. والقصيدة مؤلفة من تسعة عشر بيتاً بعدد أوائل الاسم المذكور، ومن أشهر نماذج هذا الضرب من الشعر أبيات المعتمد في اسم اعتماد الرميكية، انظر الحلة السيراء 2: 41 تحقيق د. حسين مؤنس.

(5) مظهر النور الباصر في أمداح الملك الناصر، السفر الثاني مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 23جـ.

(6) انظر ديوانه ومقدمته للأستاذ عبد الله كنون.

(7) انظر المعيار المغرب 11 :149.

(7م) وقعت على قصيدة في الشكوى ممّا ذكر تنسب لأبي محمد الأشبيلي أثبتها فيما يلي:

أعبّرُ عمّا كنتُ في الرسم أكْتُمُ ... فإنّ لسانَ الحالِ عنّي يُتَرْجِمُ
بَدَوْتُ وقِدْماً كنت أعْرَفُ حاضراً ... وسُكْنى البَوادي لا يَحِلُّ ويَحرُم
تكلّفْتُ سكناها وكانَ ضرورةً ... وفي باطني أمرٌ به اللّهُ يَعلم
ثويتُ بها ما بينَ قومٍ بيوتُهمْ ... كهوفٌ وأشْعافٌ وبيتٌ مروّم
حُفاة عسراةٌ لا يحلُّ جوارُهمْ ... وإن تخْتَبِرْهُمُ ليسَ في القومِ مُسْلِمُ
حقيقٌ على مَنْ كانَ مثواهُ بينَهُمْ ... يُلامُ ويُجْلى في البلادِ ويُشْتَمُ
خيارُهُم الأشْرارُ منهُمْ فإن يكُنْ ... لفرعونَ كفرٌ كفرُهُمْ منه أقدمُ
دُللتُ عليهِمْ خيّب الله سعيهم ... فلا عالمٌ منهم ولا متعلّم
ذئابٌ كلابٌ في ثيابِ ثعالبٍ ... ومكسبهم أكْلٌ حرامٌ ومَغْنَمُ

رياضتهمْ لا تستطاع وإنما / يَرُوّضُهُمْ سوطٌ وسجْنٌ ومَغْرَمُ
زنادقةٌ في طَبْعِهِمْ وبهائمٌ / وإن قلتَ كفّارٌ فقولُكَ أقومُ
ظَنَنْتُ بهِمْ ظنّاً وجدتُ خلافه / فقلّ إمامٌ منهمُ اليومَ يسلَمُ
كُسالَى عَن التوفيق صُمٌّ عن الهُدَى / إذا ما دُعُوا للخيرِ عن قَصْدِهِ عَمُوا
لباسُهُمُ الزنّارُ والسُّحْتُ أكلُهُمْ / صبيٌّ بزنّارٍ وشيخٌ مقدّم
مساجدَهم لَمْ يَعمُروا بصَلاتِهِمْ / ويُعجبُهم منها الذي يتهدّم
نَسَوا الله بالدُّنيا فأعمى قلوبَهُمْ / وولّى عليهم مَنْ يَجورُ ويَظْلِمُ
صَغَتْ لنواقيس النّصارى عُقُولُهم / فمَهْمَا رأوا أهلَ الصّليب تَبَسَّمُوا
ضيافَتُهُم مَعْلُومةٌ لقُدومِهِمْ[1] / دَجاجٌ وبَيْضٌ والمدامُ المُحرّم
عوائدُهم تركُ الصلاة وعندهمْ / بأمر النّساء العاطرات تَهمُّم
غُلبتُ على طولِ المقام بأرضِهِمْ / على أنّني منهمْ لَئيمٌ وأشأم
فَقيهُهُمُ لا يَعْبَاونَ بأمْرِهِ / وإنْ جاءَ زَفّانٌ يُعَزُّ ويُكْرَمُ
قَرينُهُم الشّيطانُ حرّضَهُمْ على / رُكوب المناهي فَهْي إثمٌ ومأثَمُ
سَبيلِ الهُدَى والرُّشْد لا يَسْلكونَهُ / فَهُمْ في ضلالٍ غافلونَ ونُوَّمُ
شُيوخُ القُرى لا يُنْصِفونَ إمامَهمْ / وفي أُجرة الشّراط يَعْمُوا ويصمموا
هم الظالمونَ الهالكونَ نفوسَهمْ / وما خُلِقَتْ إلاّ إليهم جهنم
وقارُهُمُ غدرٌ وودُّهمُ قِلىً / وأكبرُهُمْ سنّاً مسيءٌ ومُجْرِم
لأنْفُسِهمْ لا يملكونَ شفاعةً / فويلٌ لهُمْ ممّا جَنَوْهُ وأجرموا
يقيناً لَقد حَقّ العذابُ عليهمُ / ولكنّ ربّ العَرْش يعفُو ويرحَم
فهذا خِطَابٌ للأئمّة في القُرَى / خطابٌ صحيحٌ والمُوفّق يَفْهَمُ

(خ. ع. ر. رقم 1725د) وأغلب ظني أنها قصيدة الأليري التي أشار إليها البسطي.

(3) كذا في الأصل.

(4) في الأصل: فالقرى.

(8) نيل الابتهاج: 291 وانظر شرح التحفة لابن عاصم مخطوط.

(9) رحلة القلصادي: 162.

(10) اعتمدنا في كتابة هذه الفقرة على بحث الأستاذ هارولد ليفرمور المنشور في مجلة الأندلس لسنة 1963 ص. ص. 332 - 333 وانظر أطروحة السيدة راشيل اريبه ص 138 وكتاب محمد IX للفقيد لويس سيكودي لوثينا، (الحاشية رقم 3 والحاشية رقم 192). ومقالته عن عائلة محمد X الأحنف ملك غرناطة المنشورة في مجلة الأندلس سنة 1946.

(11) انظر نص الرسالة في كتاب المماليك والفرنج للدكتور أحمد دراج ص 181 وما بعدها نقلاً عن مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم 4440.

(12) اعتمدنا في هذه الفقرة على بحث الأستاذ هارولد ليفرمور السابق.

(13) الاستقصاء جـ 7، ص 7، وما بعدها والدرر البهية: 84 - 100، ونزهة الحادي: 241ط. فاس.

(14) نزهة الحادي: 241 وما بعدها.

(15) انظر ذيل رواية آخر بني سراج لشكيب أرسلان: 262، 271، 273، 277، 279، 283.
(16) نفح الطيب 4 :521 تحقيق د. إحسان عباس.
(17) انظر نفح الطيب 6 :152.
(18) روضة الأعلام (مخطوط الخزانة العامة بالرباط) ونفح الطيب 2 :701 تحقيق الدكتور إحسان عباس.
(19) رحلة القلصادي: 93 ونفح الطيب 6 :447.
(20) رحلة القلصادي: 94 ونفح الطيب 6 :447.
(21) مجلة العربي الكويتية. العدد 107.
(22) انظرها في نفح الطيب 6 :151 - 153.
(23) نفح الطيب 6 :152.
(24) نفح الطيب 2 :701.
(25) نيل الابتهاج: 323 وانظر ترجمة ابن منظور هذا كذلك في ثبت الوادي آشي: 204 - 505، 215 - 216 وبعض فتاويه في المعيار.
(26) وثائق عربية غرناطية: 34 - 31.
(27) مجلة الأندلس سنة 1933 ص 314.
(28) نيل الابتهاج: 312 وابن جماعة الغرناطي غير القاضي بدر الدين ابن جماعة المصري.
(29) نبذة العصر: 378 ذيل آخر بني سراج.
(30) ثبت الوادي آشي: 216.
(31) المرقبة العليا: 154.
(32) ديوان البسطي: 87.
(33) ثبت الوادي آشي: 216.
(43) في الأصل: فندوق، وهو تحريف.
(35) مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب.
(36) نبذة العصر: 386 (ذيل رواية آخر بني سراج) ونفح الطيب 4 :517 وما بعدها.
(37) المعيار المعرب 11 :149.
(38) وثائق عربية غرناطية 99.
وذكر لويس سيكو في المقدمة أنه من قضاة العصر الذين لم يرد ذكرهم في معاجم الرجال (ص 12م) مع أنه مترجم في الثبت والنيل، وانظر بعض فتاوى الجعدالة في المعيار 5 :35، 36، 37.
(39) ثبت الوادي آشي: 196.
(40) المصدر نفسه: 207.
(41) المصدر نفسه: 206 وانظر نيل الابتهاج: 325.
(42) انظر التعريف به ومصادر ترجمته في مقدمة ثبت ولده الذي حققه زميلنا الدكتور عبد الله العمراني.
(43) المعيار المعرب 11: 149 نشر وزارة الأوقاف المغربية. وقد وقفت بعد أن انتهيت من تحرير

هذا على بحث قيم لصديقي ضون فرناندو دي لاكرانخا في الأندلس (1971) درس فيه هذه الفتوى وعرف بأعلامها.

(44) رحلة القلصادي: 161 - 162.

(45) نيل الابتهاج: 76.

(46) وثائق غرناطية: 12، 16، 17.

(47) مجلة الأندلس سنة 1933 ص 311 وهذا نص كلام عبد الباسط: «وفيه (يعني في ربيع الثاني من سنة 870) في يوم الجمعة عشرينه دخلنا لمدينة مالقة من بلاد الأندلس واجتمعنا بها بالشيخ العالم العلامة الإمام الهمام سيدي أبو العباس أحمد السيد الشريف التلمساني شيخ الأندلس وعالمها وقاضي الجماعة بغرناطة كان بل عالم المغرب في وقته فأنس بنا وسمعنا الكثير من فوائده وستأتي ترجمته إن شاء الله».

(78) ثبت الوادي آشي: 204 وانظر أيضاً ص 216.

(79) ورد في وثائق عربية غرناطية ذكر الشيخ المكرم أبي جعفر أحمد بن محمد المعني من أعيان مدينة بسطة ولعله ذا صلة بهذا القاضي ممدوح البسطي. انظر الصفحات 77، 84، 93، 94. وقد يكون من أسلاف أبي العباس أحمد بن محمد بن محمد الشهير بمعن الأندلسي صاحب الزاوية المعروفة بفاس.

(80) وثائق عربية غرناطية: 10.

(81) نبذة العصر: 380 في ذيل رواية آخر بني سراج.

الفصل الرّابع

غيرته على الدّين والوطن

لـم تكن مشكلات شاعرنا المادية ومتاعبه اليومية التي عرفنا شيئاً منها في الفصل السابق لتجعله بعيداً عن التفكير في واقع بلده والنظر في أحواله ومتابعة أحداثه وتوقع مآله، ومع أنه لم يكن من ذوي الحيثيات الكبيرة إلاّ أنه ربما كان أوعى من بعض هؤلاء، وإذا استثنينا ما كتبه أبو يحيى ابن عاصم الغرناطي في كتابه «جنة الرضى» فإننا لا نجد ـ فيما وصل إلينا ـ مثيلاً لما سجلّه في شعره هذا الشاعر الفقيه المتواضع، وديوانه من حيث القيمة التاريخية والاجتماعية أهمّ من «جنة الرضى» نفسه.

لقد عاش الشاعر في عصر انهيار الدولة النصرية ولعلّه أدرك نهايتها وهو إن لم يذكر في شعره من أولئك النصريين المتنازعين على الملك إلاّ محمد الأحنف بن عثمان فإنّه عرف عدداً مِنْ رجالات الدولـة في هذه الحقبة المضطربة ولا سيما بعض الذين كان لهم أثر مذكور في تدبير أمور الدولة ومحاولة رقع الخرق الذي كان يتسع يوماً بعد يوم.

وقد رأينا مما سبق كيف مدح في ابن عبد البر والقائد حامد وشيوخ

الغزاة ابن عثمان وابن عمران وأبي الحسين الشريف حياطتهم للأندلس وحمايتهم للإسلام فيها وذلك بجهادهم وحسن تدبيرهم، وشعره في ذلك مطبوع بطابع الغيرة على الدين والوطن والكراهية لأعداء الإسلام الذين اكتوى بنار الأسر وقيوده عندهم.

وتبدو غيرته الدينية وحماسته الوطنية في هذه الأشعار التي قالها في المناسبات الأليمة، فقد كان كلّما سقط ثغر من الثغور رثاه وبكاه بالدم لا بالدمع، ورفع صوته عالياً بالتقريع والتوبيخ لأولئك الذين فرطوا في البلد وتهاونوا في الدفاع عنه، وتسببوا في ضياعه بسلوكهم سبيل الخلاف، وسيرهم على نهج الشتات لا بل باعوه بيعة وكسٍ، «وشروه بِثمن بخس، وكانوا فيه من الزاهدين».

ونجد هذا كلّه في شعره الذي قاله عندما أُخِذ جبل الفتح (جبل طارق) وأرشدونه وبلش وحصن اللقون وفيما رثى به شهداء كائنة لورقة وفيما قاله عند زحف النصارى على مالقة وبسطة.

وهو لم يكتف بالرثاء والبكاء ولكنه كان يسهم في جمع المال والطعام للمجاهدين والمحاصرين.

وكان يقول الشعر لتحريض الناس على ذلك، ولعل خطبه في الجامع الأعظم لم تَخْلُ من حث على الجهاد.

كما أنّ لَه شعراً كثيراً انتقد فيه سوء الأحوال ببلده بسطة والأندلس عامة وصوّر فيه انحلال المؤسسات الدينية والاجتماعية، وهو من قبيل شعر النقد السياسي والاجتماعي الذي عرفته الأندلس منذ عهد الأمويين وفي عهد الطوائف والعهود التي تلتها.

عاصر الشاعر ذلك الصراع المزمن بين بني نصر على عرش غرناطة ورأى ما كان يجره التحزب لأولئك المتصارعين من انتهاب للأنفس والأموال، وخراب للأوطان، «مع ما في ذلك من توهين المسلمين وإطماع

العدو الكافر في استئصال بيضتهم واستباحة حريمهم»[1].

وقد تكرر أمام عينيه مشهد ملك يخلع وملك يبايع وتفرق الرعية بين هذا وذاك وما ينشأ عن ذلك من فتنة، فقال (140):

مَنْ سَعَى في عَزْلِ والِ
وابْتَغَى تقديمَ والِ
بانتهابِ النّفْسِ والما
لِ اجتراءً لا يُبالِي
فبحقٍّ مثلُ هذا
نبذُه في كلِّ حالِ
واغْتِنَامُ البُعْدِ منه
فَهْوَ يدْعو للضّلالِ

وقد عبّر عن هذا المعنى بلهجة أشد عنفاً وأكثر نقداً في قصيدته التي قالها: «عندما أخذ العدو حصن أرشدونة» كما سنرى بعد قليل.

وإذا أردنا أن نتتبع شعره في الأحداث التي أدت في النهاية إلى سقوط غرناطة حسب الترتيب التاريخي فسنجد أول شعر له في ذلك هو ما أنشده «يوم وصول الخبر بأن العدو الكافر استولى على حصن اللقون من حصون وادي آش أعادها الله بتاريخ يوم الجمعة الثالث والعشرين لذي قعدة عام ستّةٍ وثلاثين وثمانمائة»[2]:

يا أَهْلَ وادي الأَشى لادرّ دَرُّكم
ولا برحتم لَقىً للكَرْبِ والكَمَدِ
ضيعتُمُ سَفَهاً حصنَ اللّقونِ ولَمْ
تراقِبوا فيهِ حقّ الواحِدِ الصّمَدِ
حتى حواه العِدا غَدْراً وصارَ لَهُمْ
لغَزْوِكُمْ عُمْدةً من أفضلِ العُمَدِ

فاستَشْعِرُوا ـ إذ أضعتُمْ فيهِ حزمَكُمُ
والجِدّ ـ قربَ انقِضَاءِ الوَقْتِ والأَمَدِ

وفي هذه الأبيات نرى الشاعر يحمّل أهل وادي آش مسؤولية سقوط هذا الحصن «الستراتيجي» ويقول إن استيلاء العدو عليه كانت نتيجة التفريط والتهاون من جهة والغدر والخداع من جهة ثانية.

وقد كان الاستيلاء على حصن اللقون Alicun خلال الحملة التي قادها القائد القشتالي جومث دي ريبيرا Gomez de Ribera في صيف سنة 1433هـ.

ويبدو أن المسلمين استرجعوا هذا الحصن ثم أخذ منهم مرّة ثانية وربما بصفة نهائية سنة 867هـ.

وهذا ما ورد في رسالة صاحب الأندلس سعد المستعين بالله إلى السلطان خشقدم المؤرخة في جمادى الأولى سنة ثمانية وستين وثمانمائة أثناء الكلام على أحداث السنة السابقة على هذا التاريخ :

«وفي العام المذكور استولى العدو أيضاً على حصن اللّقون من حصون المسلمين: حصن عيْنُه لأرض الكافرين راعية، وأُذنه لسماع أخبارهم واعية، وإليه كان يركَن من شن الغارة على أرض الكفر، وبه كان يعتصم من تخلّص من أيدي المشركين من الناب والظفر، ضاعف قوة المشركين، وأمن طرق الأعداء السالكين»[3].

ونلاحظ أن تقييم أهمية هذا الحصن في الرسالة مماثل لما جاء في أبيات شاعرنا البسطي. كما أن مجرد الإخبار به في هذه الرسالة الملكية يشعر بالخطب النازل بالمسلمين يومئذ إذ كان فقده مؤذناً «بقرب انقضاء الوقت والأمد» كما يقول شاعرنا.

وهذا الازدواج الذي رأيناه في تاريخ سقوط اللقون نجده في سقوط

جبل الفتح أو جبل طارق، فالشاعر يقول مباشرة بعد القطعة السابقة ما يلي: «وقلت عندما وصل خبر أخذ جبل الفتح في التاريخ المذكور»

أُوَارِي أُوارَ القَلْب مع شدّةِ اللّفْحِ
فتُبـدِيهِ عَيْنٌ دمْعُهـا دائمُ السَّفْحِ
وأُخْفي الذي أَلْقى من الْحُزْنِ والأَسى
وظاهرُ حالي الدهرَ يُؤذنُ بالصَّفْحِ
وأُبْدي منَ التقطيبِ للفَتْح حالـةً
تسوءُ صديقي في مساءٍ وَفِي صُبْحِ
وقـائِـلةٍ مـالـي أَراكَ مُـقَـطِّبـاً
كأَنَّكَ ـ للتقْطيب ـ هُدّدْتَ بالذَّبْحِ
وعَهْدي ـ ولا أُخْفِي ـ صفاتٌ عرفْتُهاَ
تَسُرُّ بما تُبْدِي من البِشْرِ والسَّمْحِ
فقُلْتُ دعيني: الحزْنُ فَرْضٌ عَلَى الْوَرَى
أَما قَدْ حَوَى أَعْداؤُنا جَبَلَ الْفَتْحِ
حرامٌ علينا البِشْـرُ والسَّمْحُ بَعْـدَه
وَفي الْقَلْبِ مِنْ آلَامِه أَعظَمُ الْجرْحِ
عَسَى مَنْ قَضى فِيهِ بأَخْـذٍ يُعيدُه
ويُذْهبُ ما أَشْكُوهُ منْ شدَّةِ القَرْحِ
فَمِنْـهُ تَعالى نَـرْتجي الخَيْـرَ كُلَّهُ
وما زالَ أَهْلَ الفَضْل والمَنِّ والْمَنْحِ

إن حسرة الشاعر بالغة وحزنه شديد ومن يقرأ هذه الأبيات يظن أن الشاعر يبكي مصيبة خاصة به وليست عامة بالمسلمين، وهو يرى أن الحزن يجب أن يكون فرضاً على جميع الناس بعد سقوط جبل الفتح وذلك لأن

هذا الجبل كان يمثّل صلة الوصل مع أهل المغرب الذين اعتادوا أن يهبّوا لنجدة إخوانهم، وقد أنشد ابن الخطيب في معيار الاختيار في آخر حديثه عن جبل الفتح بيتين يشيران إلى المعنى الذي ذكرته، وهما:

هُوَ البابُ إنْ كانَ التزاوُرُ واللُّقْيا
وغَـوْثٌ وغَيْثٌ للصّريـخِ وللسُّقْيا
فـإنْ تَـطْرُقِ الأيّـامُ فيـهِ بِحـادثٍ
وأَعْزِزْ بِهِ، قلنا: السّلام على الدُّنْيا

في جميع الأحوال ومهما تكن الظروف لقد كان سقوط حصن اللقون في أقصى الشرق وجبل طارق في أقصى الغرب سنة 836 (1433) حسب ما في ديوان البسطي بداية لعمليات صعبة من الكر والفر والأخذ والرّد، وكما استرد المسلمون حصن اللقون لمدة يسيرة فقد استجاب الله تعالى رجاء الشاعر ـ فيما يبدو ـ واستعيد جبل الفتح.

إلاّ أن المسيحيين ما لبثوا أن أخذوه بصفة نهائية سنة 867هـ (1462) حسبما جاء في الرسالة الملكية النصرية السالفة التي نقرأ فيها ما يلي:

«وَهَذا العدو المشترك صاحب قشتالة ـ قصمه الله ـ في كل عام يهجم على بلادنا وثغورنا، ويجدّدُ في كلّ ساعة ولحظة أشجان قلوبنا وصدورنا، تملك في العام الفارط مدينة جبل الفتح من بلادنا، وهو محل الفتح الأول، والمعقل الذي عليه الاعتماد والمعوّل، أزال عنه كلمة الإسلام، وعمر مآذنه بالنواقيس ومساجده بالأصنام، وملأه بقوم يعبدون أوثانهم، ويحكّمون أصنامهم ويجدون فيه مع الساعات كفرهم وطغيانهم، أصيب منهم المسلمون بالمصيبة العظيمة، والفجيعة المقعدة المقيمة، ملأت القلوب تفطّراً، والنفوس تفكّراً»[4].

وتذكر بعض الروايات المسيحية أنه في 16 غشت من سنة 1462

استولى دوق مدينة شذونة خوان دي قزمان وكونت أركش على جبل طارق بسبب خيانة أحد المرتدّين[5].

- وفي يوم الجمعة 25 صفر سنة 856 (17 مارس 1452م) وقعت كائنة لورقة التي كُسِر فيها جيش المسلمين واستشهد فيها نخبة من قادتهم، وكانت هذه الواقعة في بسيط Alporchones بين جيش أهل مرسية يتزعمهم قائدهم Pedro Fajardo وجيش من المسلمين تحت إمرة القائد ابن عبد البر كان معظمه من أهل غمارة، وقد ورد في مدونة جوان 11 أنه استشهد في هذه الكائنة 14 قائداً وعدَّدَتْ منهم تسعة، وهم ابن عزيز قائد بسطة، وأخوه أبو القاسم قائد محلة غرناطة، والعباس بن علي بن حميد قائد بيرة، وقواد بلش البيضاء وبلش الشّقْراء والمرية وأرك وشوجر وقولر وقد كانت الفجيعة في مصرع هؤلاء الأبطال كبيرة ومصاب الأندلس فيهم عظيماً، وقد رثاهم الشاعر وأشار إلى مواقفهم السابقة في الجهاد، ونكاياتهم الماضِيَة في أعدائهم وذكر أن مصرعهم كان في يوم العروبة وهو يوم الجمعة من التاريخ المذكور،

أما القائد ابن عبد البر فقد سبقت الإشارة إلى مصيره على يد محمد الأيسر، وثمة رواية أُخْرَى لخَصَها الأمير شكيب أرسلان من تاريخ مرسية لضون فليكس فقال: «وفي الفصل السادس والعشرين يذكر واقعة يقال لها واقعة البورشونيس ففي سنة 1452 زحف من غرناطة جيش عظيم تحت قيادة محمد ـ كذا ـ بن عبد البر الذي كان وزيراً لملك غرناطة محمد بن عثمان فدخلوا أرض مرسية والتقاهم المسيحيون في مكان يعرف بالبورشونيس فبعد قتال شديد انهزم المسلمون وسقط كثير من قوادهم قتلى ونجا ابن عبد البر ومعه ثلاثمائة من جنوده، فلما وصل بين يدي مولاه وقصّ عليه الفاجعة وذكر له أسماء الذين فقدوا في المعركة استعظم الخسارة وقال لابن عبد البر: أما وقد جبنت عن الموت في ميدان الحرب ولم تمت كما مات أولئك الأبطال

فستموت موتة شنيعة كما يموت الأنذال وأمر بقطع رأسِهِ» (الحلل السندسية: 3 :445).

وهذه مرثية شاعرنا البسطي في شهداء كائنة لورقة[6] (68):

لِمُصَابِ أنْدَلُسٍ تَصوبُ الأدْمُعُ
وَلِما جَرَى فيها تَذوبُ الأَضْلُعُ
فَلَها مَعَ الأعداءِ حالٌ تُفْزِعُ
تَقْضي بحَسْرَةِ مَنْ يَرَى أوْ يَسْمَعُ
وتكادُ مهجتُهُ لَهُ تتصَدّعُ
جارَ الزّمانُ على جَميعِ جهاتِها
فأباحَ حُرْمَةَ أهلِها لعُداتِها
أتَرى الإلَهَ يُقيلُها عثراتِها
وَيُزيلُ ما هِيَ فيهِ مِنْ غَمَراتِها
بدُنُوّ نصرٍ بالفُتوحِ مُشَفّعُ
فَلَقَدْ أحالَ عَدُوّها أحْوالَها
وَمِنَ الخطوب أذاقها أهوالَها
وأفاض فى أقطارها إذلالها
لَمّا أبادَ بلورْقَةٍ أبْطالَها
يَوْم العَروبَةِ كان فيه الْمَصْرَعُ
ذهبَ الجَميعُ مُجاهدينَ كَمَا ابتَغوا
وحَووا هُناكَ مِنَ الشّهادةِ ما حَووا
ماذا نَكوا أعداءَهم ماذَا نكوا
وَلَرُبّما مِنْهُمْ أُسارَى ما افتدوا
كَمْ أمْرَضوا مِنْ خاطرٍ كَمْ أوْجعوا

ولأن هذه الملحمة كانت في 17 مارس ـ يوم القديس سان باتريس ـ فقد اعتبر هذا حامي مدينة مرسية منذ ذلك التاريخ، والاسبان ينعتون قائدهم في هذه المعركة بالشجاع Fajardo Elbravo وقد كتبوا فيه الكثير وخصّه بعضهم بالتأليف كما أنهم تغنوا بنصرهم هذا وما يزالون يحتفلون بذكراه في مرسية.

ويذكّرنا هذا التخميس بتخميس يوسف الثالث الذي نظمه عند حصار القشتاليين مدينة انتقيرة سنة 1410م وهو الحصار الذي انتهى باستيلائهم عليها، وأوله:

خَليلَيّ مَهْلاً فالـزّمانُ كمـا تدْري
وَلَا بُدَّ مِنْ يُسْرٍ على أثَـرِ العُسْرِ
فَمهْما دَها صَحْوٌ فَلَا بُدّ مِنْ قَطْرِ
ومَهْمَا دَجا خَطْبٌ فَلَا بُدّ من فَجْرِ
وألطاف صُنعِ الله رائعة البِشْرِ

وهو أطول من تخميس شاعرنا وأجود نظماً ولكنه دونه حماسة وأقل منه أثراً، وتكمن قيمتهما معاً في تسجيل حادثتين من حوادث تاريخ مملكة غرناطة الأخير الذي فقدت روايته العربية ولا يعرف منه اليوم إلّا ما يوجد في المصادر المسيحية.

ـ ووقعت ـ بعد هذه الحوادث ـ كارثة أرشدونة فهزّت الشاعر هزّاً وجعلته يفكر في مصير الأندلسيين المظلم وينحو منحى الشاعر الزاهد ابن العسال وغيره، بل إنه أربى على من سبقه بتحليل الأحوال وذكر الأسباب ومنها اختلاف كلمة المسلمين، وتنازع رؤوسائهم على الملك، وتهافتهم على أكل أموال الناس بالباطل، وانعدام العدل الذي هو أساس العمران، وإهمال الدين ومؤسساته. وقد تميز الشاعر أيضاً برفع النداء لإسماع النائمين وتنبيه الغافلين، وأضع القصيدة بين يدي القارىء ليحكم من خلالها على مستوى الوعي لدى هذا الشاعر المغمور (118):

مَخايِلُ هذا الْحالِ تُؤْذِنُ بالهُلْكِ
وَتَقْضِي لَنا بالـذّلِّ والعِزِّ للشّـرْكِ
وَأَنَّ بِــلادَ المُسْلِمينَ بـأَسْــرِهــا
بِذا الْقُطْرِ يَحْويها العَدُوّ بِلا شَكِّ
وَيَقْسِمُ بَيْنَ القَتْلِ والأسْرِ أَهْلَهـا
فَما عَنْ كِلا الأَمْرَيْنِ شَخْصٌ بِمُنْفَكِّ
فَمَنْ قَسْمُهُ القَتْلُ اسْتَراحَ مِن الْعَنا
وَمَنْ سَهْمُهُ الأَسْرُ استَمَرّ بِلا فَكِّ
وَقَدْ رَفَعَ الإِشْكالَ أَخْذُ آرْشَـذونَةٍ
وتَصْييرُها مُلْكـاً لَهُ أعْـظَمَ المُلْكِ
ومِنْ قَبْلِها حِصْنَ اللِّقونِ استباحَهُ
ومِنْ جَبَلِ الْفَتْحِ آنْتَقَى دُرّة السِّلْكِ
ونَحْنُ عَلَى نَهْجِ الشّتاتِ مَسيرُنا
لإِدْرَاكِ مالِ المُسْلِمينَ أو المُلْكِ
وهَيْهَـاتَ مِنْ إِدْرَاكِ حَقٍّ بِباطِـلٍ
وَغِشٍّ وَتَـدْلِيسٍ وَبُهْتَانٍ آوْ إِفْـكِ
وفي ذاكَ ما نأْباهُ مِنْ هَتْكِ حُرْمَةٍ
لَنا وَدِماءٍ لَيْسَ تَخْلُو مِنَ السَّفْكِ
وعَيْشٍ إذا مـا العَقْلُ رامَـهُ راعَهُ
لِكَوْنِ مُعانيهِ مِن الضّيقِ في ضَنْكِ
رَضينـا بِهذا مَـذْهَبـاً دونَ غَيْـرِنـا
وَلَمْ يَأْنِ مِنْ كَفٍّ وَلَمْ يَأْنِ مِنْ تَرْكِ
فَــوا أسفـا للدّينِ أُهْمِــلَ حَقُّــهُ
وَقوبِلَ مِنْهُ السِّتْرُ بالكَشْفِ والهَتْكِ

وَهُـدَّتْ مَبـانيــهِ وَدُكَّتْ سَفـاهَــةً
فَساءَتْ بِما تُبْدِي مِن الهَدِّ والدّكِّ
أفيقـوا أفيقوا واهْجُـروا النّومَ إنّـهُ
حَديثٌ صَحيحٌ ما أقولُ وما أَحْكي
ومن كانَ فيما قَدْ مَضى الدَّمْعَ باكِياً
فَفَرْضٌ عَلَيْهِ باقي الدّمِ أَنْ يَبْكي

لم يذكر الشاعر في تقديمه للقصيدة تاريخ هذه الكارثة، ولكنه ذكر في صلب القصيدة ـ كما رأينا ـ أنها وقعت بعد أخذ حصن اللقون وجبل طارق، وهنا نرجع أيضاً إلى الرسالة النصرية مصدرنا العربي الثاني في هذه الوقعة فنجدها تقول:

«والآن (868هـ) استولى العدو على حصن أرجدونة، المعقل الذي شهاب عزازته متألّق، وكفّ منعته بالسماء متعلق، ينظر أرض العدى عن كثب، ويلاحظ العدو إذا وثب، ويحذّر من مكائده، وينذر من مراصده، فوهت القوى، وترادفت البلوى، وعظمت الشكوى، وضاق المجال، ومنت الآمال، وأعوز الاحتيال، فيا لله ويا للمسلمين»[7]. ولأهمية هذا المعقل كان أهل الخير في غرناطة يحبّسون على أهله ما ينتفعون بفائده ويتقوّون به على الدفاع (وثائق عربية غرناطية: 13).

وللشاعر قطعة فريدة قالها عندما «أُرْجِف إثر أخذ جبل الفتح واللقون أن العدو ـ دمره الله ـ غدر ثغر بلش» وهي (135):

«جبلُ الفتحِ» بيع بالغرب بخساً
وتـلاه في البيعِ بـالشـرق «بِلِّس»
و«اللقون» اسْتُبيحَ بالجوفِ غدراً
حين فيــهِ بـواجبِ الحِفْظِ دُلِّسْ

فـأميـرُ الجَـزيـرَةِ اليـومَ مِنْهَـا
في الجِهاتِ الثلاثِ واللَّهِ مُفْلِسْ
يـا مُريـدَ الجُلوسِ فيها اختيـاراً
اَرْتَحِلْ عنها والتمِسْ أينَ تَجْلِسْ

وهذا من أقوى ما يقرأ في شعر النقد السياسي وَمِنْ أشده لهجة، ففي النماذج السابقة كان الشاعر يعرّض ولا يصرّح ويكنّي ولا يسمّي. أما في هذه القطعة فهو يَسْخر من أمير الأندلس المتهاون في الدفاع عن حوزة البلاد، ويشير بأصابع الاتهام بأن الحصون المذكورة وقع بيعها والتخلي عنها للعدو.

ولا بُدّ أن هذا الشعر الانتقادي كان يسير في الناس ويبلغ إلى مسامع أولي الأمر، ومثل هذا الانتقاد يعرض صاحبه للمتابعة.

ومن الأمثلة الطريفة في هذا الباب أن الكاتب الفازازي صور الحال بالأندلس في آخر أيام الموحدين بها في قطعة يقولُ فيها:

الـرّومُ تضـرِبُ في البـلادِ وتغنم
والجَـوْرُ يأخُـذُ مـا بقي والْمَغْـرَمُ
والـمـالُ يـورد كلُّه قـشـتـالـة
والجنْـدُ تسْقُطُ والـرعيـةُ تُسْلمُ
وَذَوُو التعـيُّنِ لـيسَ فيـهم مُـسْلِمٌ
إلاّ مُـعيـنٌ في الـفَسـاد مُـسَـلِّمُ
أسَفي عَلَى تِلْكَ الْبـلادِ وأهْلِهـا
اللَّهُ يلطُف بـالجميـع ويَـرْحَمُ

ولما وجدت رقعتها في جيبه يوم موته رُفعت إلى السلطان فلما قرأها قال بعد ما بكى: صدق رحمه الله، ولو كان حياً ضربتُ عنقه![8].

وما أشبه قطعة شاعرنا البسطي في مبناها ومعناها بقول أحد معاصري الفازازي المذكور:

بـوقْـعـةِ عَـفْص وطَـلْـيـاطَـةٍ
تَـكَـامـلَ إقـبـالُ أيّـامِـنـا
فبـالْغَـرْبِ تِلْكَ وبـالشَّـرْقِ ذي
أنـاخـا عَـلَى شُـمِّ أعْـلاَمِـنـا
وفـي وَسَطِ الأَرْض قـيـجـاطَـةٌ
وَلَـوْشَـةُ خَـفّـا بـأَحْـلاَمِـنـا
وَلَـيْسَ الصَّـليبُ يُـرى قـانـعـاً
بـغَـيْـرِ تـواتُـرِ إعْـدامِـنـا
وسيـدُنـا نـاظـرٌ في الـجـوازِ
يـرومُ الـنـجـاةَ بـإسـلامِـنـا[9]

و «السيد» الذي ذكر الشاعر المجهول أنه ترك الأندلس وجاز إلى العدوة هو أبو العلاء الملقب فيما بعد بالمأمون وقد أنشد أمام هذه الحال قول الشاعر:

إن الـطبيب إذا تعـارض عنـده
مرضان مختلفان داوى الأخطرا[10]

والمرض الأخطر كان معالجة الفتنة الناشبة بالمغرب يومئذ.

ونلاحظ بهذه المناسبة أن معظم الشعر الذي قيل في النكبات الأندلسية مجهول القائل، ولعل ذلك لما تضمنه من نقد لاذع وتقريع شديد وفضح لأسباب الهزائم، ومن شأن هذا أن يعرض صاحبه للتعقب والمتابعة كما قلنا ولسنا نعرف هل حصل شيء من هذا لشاعرنا.

أما أمير الجزيرة خلال التاريخ الذي ذكره الشاعر فربّما قصد به

محمد IX الأيسر فهو الذي كان يومئذ على كرسي غرناطة للمرة الثالثة، وقد «اختلت أمور الدولة في أيامه فأسف لذلك الخواص ووقع الخلاف بين رؤساء البلد وقواد المصر» كما لخص الأمير شكيب أرسلان عن بعض المصادر المسيحية.

ولا ندري هل كان الشاعر يصدر في نقده المذكور عن غيرته فقط أم أنه كان يعبر عن رأي حزب معين، ذلك أن ديوانه ـ كما عرفنا ـ يكشف عن صلته الخاصة بمحمد بن عثمان رجل الدولة القوي يومئذ وقد كان ـ كما ذكرنا ـ يتولى قيادة الجيش في بسطة ثم في المرية، ولا بدّ أنه كان يحدث نفسه بالملك، وفي القصيدة التي مدحه بها شاعرنا ما يشي بشيء من ذلك، قال:

ومقَـدّمَـاتٍ قَـدْ أَفَـدْنَ نَتـائجاً
أَبْهَى مِن الإِنْتَاجِ في البُـرْهـانِ
تُبْـدي المُنَى لِعُقـولنـا بِمَقَـايسٍ
سَهُلَتْ على الأَفْكـارِ والأذهـان
والْوَيْلُ ثُمّ الوَيْلُ للعـاصي الّذِي
تـركَ الـرشـادَ ودان بـالعِصْيـانِ
لا بُدّ أن يَلْقى الذي كَسَبَتْ يَدا
هُ من الخنـا والـزّيْـغِ والخِـذْلانِ
ويـؤُمّـهُ بكـتـائبٍ مـن جُـنْـدِهِ
تَـذَرُ الـديـارَ بغَيْـرِ مـا سُكّـانِ
والنّصْـرُ والتـأييـدُ قَـدْ حَفّـا بـهِ
فهُمـا لـه مِنْ أَسْعَـدِ الإِخْـوانِ
لا يقْـطَعانِ مَـدَى الْحيـاةِ إخـاءَهُ
حَتّى يَحُـلّ منـازل الـرضـوان

ويمكن أن نفسر المقدمات والنتائج التي لمح إليها الشاعر بضعف الأيسر واختلال أمره وصعود نجم محمد بن عثمان بحكم الشعبية التي كان يحظى بها وهالة البطولة التي كانت له ممّا يسر له اقتحام غرناطة وخلع الأيسر عمّه وحبسه في سجن القصبة وإعلان نفسه ملكاً وذلك في أوائل جمادى الأولى سنة 849هـ (1445م) وهو محمد X من هؤلاء المحمّدين النصريين، ولقبه الناس بالأحنف أو الأعرج Elcojo وكان من أمره ما ذكرته المدوّنات المسيحية.

ويهمّنا من هذا كله أنه كان النصري الوحيد الذي مدحه الشاعر ووصل حبله به عند ما كان يتولى مشيخة الغزاة في بسطة، ولا نعرف بعد ذلك هل استمرت صلته به وهل كانَ لها انعكاس ما على حياته؛ وأغلب الظن أن شاعرنا مدحه إعجاباً ببطولته وشجاعته واعترافاً بغزوه وجهاده.

ولا شك أن شاعرنا البسطي قال شعراً آخر في انتقاد الأحوال السياسية بالأندلس في عصره لم يودعه ديوانه. ومما بقي منه قوله ينتقد أهل بلده بسطة ويشير إلى تبدل الحال في بلد غليرة بعد استيلاء القشتاليين عليها سنة 1436م، حيث غدا هؤلاء أصحاب الشأن فيها وصار أهلها من المدجّنين (93):

قالُوا غَدا البَرّاني في غلّيرةٍ
في الوقْتِ صَدْر صدورِها الأعيانِ
فأجبتُهُم لا تنكروا فببَسْطَةٍ
ما زالَ صدرَ صدورِها البَرّاني

وتبعاً لذلك فقد رفع أهل بسطة نازلة إلى الفقهاء يستفتونهم في حكم التعامل مع جيرانهم أهل غليرة «لكونهم تحت قهر الطاغية» فأفتى بعضهم بالمنع وأفتى البعض الآخر بالإباحة، والقضية مبسوطة في كتاب المعيار[11].

ويبقى بعد هذا من الشعر اللاحق بموضوعنا قطعة وقصيدة، فأما القطعة فيقول الشاعر إنه نظمها وجعلها في صدر رسالة، وقد ضاعت الرسالة وبقيت القطعة وهي تصف إحدى تلك الغارات التي أصبح المسيحيون يشنونها على حدود بسطة، يروّعون بها الناس ويحرقون زروعهم ويقتلون ويسبون من يجدونه في طريقهم (93 - 94):

مصابٌ عظيمٌ دُهمنا به
بهذي الديار وخَطْبٌ طَرَقْ
هَجَرْنَا المضاجِعَ مِنْ أجْلِه
وأجْفانُنا اكْتَحَلَتْ بالأَرَقْ
ولَمْ يَبْقَ [فيما] نراه امرؤ
بذا القُطْر إلّا اعْتَراهُ الفَرَقْ
لهذا العَدُوّ الذي أمَّنا
وَحَرَقَ الزَّرْعَ في أرضنا فاحْتَرَقْ [كذا]
وحازَ من السَّبْيِ فوقَ المُنَى
وكَمْ مُسْلِمٍ دَمَهُ قَدْ هَرَقْ
وما خرَقَ اليَوْمَ في بَسْطَةٍ
بغَرْناطةٍ مثْلَهُ ما خَرَقْ

ومثل هذا الذي وصفه شاعرنا البسطي وصفه الشاعر الغرناطي الذي قال «لما نزل النصارى لمحاصرة غرناطة»:

بالطبل في كلّ يومٍ وبالنّفيرِ نُراعُ
وليسَ من بعدِ هذا وذاكَ إلّا القِراعُ
يا ربّ جبرَكَ يرجو من هيضَ منه الذّراعُ
لا تسلبنّيَ صَبْراً منهُ لقَلْبي ادّراعُ[12]

وأما القصيدة فلا نعرف مناسبتها ولا تاريخها ولكن يبدو من فحواها أنها قيلت إثر هجوم كبير قام به النصارى على بسطة وحشدوا له الكثير من العدّة والعدد وتأهبوا له بالوسائل والمكايد، وكان من لطف الله أن لم يبلغوا مرادهم فخاب مسعاهم وتخاذلت جموعهم وردوا على أعقابهم خاسرين.

وقد بدأ الشاعر قصيدته بالابتهال والتوسل، ثم وصف كرب المسلمين عندما رأوا حشود عدوهم وما اعترى الناس من فزع كما وصف صدق المدافعة وبسالة المقاومة، قال (99)

يـا مَنْ إذا يُدْعى يجيبُ تفضُّـلا
وإذا لَـهُ يُشكى يحـنُّ ويعْـطِف
يا مَنْ إذا الأَزمَاتُ عَمّتْ لَمْ يَزَلْ
بـالخَلْقِ يَرْفُقُ بـالجَميـعِ ويَلْطُفُ
يا مَنْ إذا الكُرُباتُ حلّتْ لمْ يَزَلْ
يكْفي الكُروبَ الحادثاتِ ويَكْشِفُ
أنتَ الـذي تُرْجى لكـلِّ عَظيمـةٍ
حلّتْ بنـا مِنْ أجلهـا نَتَخـوّفُ
أنْتَ الـذي تُلْفَى لِكـلِّ مُلِمّـةٍ
تَنْفِي الـذي مِنْهَـا أَلَمَّ وتَصْـرِفُ
[أَحْـوالُنـا] ببـلادِنـا حـالتْ لِمـا
نلْقـاهُ منْ خَطْ العِـداة ونـألَفُ
فقلوبُنـا للخَـوْفِ جَمٌّ خَفْـقُهـا
وجُفـونُنـا للدّمْـع مـا إنْ تَـطْرِفُ
عَـزَموا على إجْـلائِنا عَنْ أَرْضِنـا
مِنْ بَعْدِما ما اجْتَمَعوا لَنَا وتَألّفـوا

وأَتَـوا بكُـلّ مَكيـدةٍ قَـدْ أُرْهِفَت
آراؤُهـا في أُهْبـةٍ لا تـوصَـفُ
وتـطلّعـوا فِـرَقـاً لهـدْمِ معـالِمٍ
للدّين شيـدَ بنـاؤهـا واسْتَشْـرَفـوا
لم يَبْقَ رُمْـحٌ عنـدَهُمْ إلاّ أَتَـوْا
قَصْـداً بـهِ لِجهـادِنـا أَوْ مُـرْهَفُ
فـالمُـرْهفـاتُ تفلّلَتْ وتَحَـطّمتْ
وغـدَتْ رمـاحُ جميعهِم تَتَقَصَّفُ
لَمّـا دَنـوا زَحَفـوا لَنـا بجميعِهِمْ
فتخـاذَلُـوا فكـأنّهُم لَمْ يَـزْحَفُـوا
رامـوا النُّهـوضَ حَميـةً فَتَقَهْقَـروا
نُكُصـاً على أعقـابهم وتـوقّفـوا
وأبى الإلـهُ سِـوى حيـاطَتِنـا فَلَمْ
يُبْلِغْهُمُ غَـرَضـاً إليـه تَشَـوّفـوا
صنـعٌ عجيبٌ مِـنْ إلـهٍ قـادِرٍ
مـا زالَ بالنُّعْمَـى لَنَـا يَتَعَـرّفُ
ولئِنْ أبـاحـوا اليَـوْمَ مِنّـا حُـرْمَـةً
فَغَداً نُدالُ منَ الجميـعِ ونُنْصَفُ
وعْـداً منَ اللَّهِ العَـظيم مُحَقّقـاً
واللَّهُ قَـطْعـاً وعْـدَه لا يُخْـلِفُ

وإذا كنا رأينا الشاعر متشائماً في بعض الأشعار السابقة فإنه في آخر هذه القصيدة يبدو متفائلاً طامعاً في وعد الله الكريم بنصرة من ينصره.

وهكذا أيضاً نجد معاصره ابن عاصم أبا يحيى يقول «عند نزول طاغية

النصارى بمرج غرناطة» من قصيدة:

رُوَيْدَكَ فارقب للّطائفِ موضِعاً
وخلّ الذي مِنْ شرِّهِ يُتَوَقّعُ
وصبراً فإن الصّبْرَ خَيْرُ غنيمةٍ
ويا فوْزَ مَنْ قَدْ كانَ للصّبْرِ يَرْجعُ
وبتْ واثقاً باللّطفِ مِنْ خَيْرِ راحمٍ
فألطافُهُ مِنْ لَمْحةِ العَينِ أسْرَعُ
وإنْ جاءَ خَطْبٌ فانْتَظِرْ فرجاً لَهُ
فَسَوْفَ تَراهُ في غدٍ عَنْكَ يُرْفَعُ
وكُنْ راجِعاً لِلّهِ في كلِّ حالةٍ
فليسَ لَنا إلاّ إلى اللّهِ مَرْجِع[13]

وبعد فهذا هو الموجود من شعر شاعرنا البسطي في تسجيل بعض الأحداث التي عاصرها، فهل قال في غيرها كسقوط الحامة التي استشهد فيها كثير من أهل بسطة سنة 887هـ وسقوط لوشة سنة 891هـ وسقوط بسطة بعد صمود واستبسال، وسقوط غرناطة في آخر الأمر؟ أم أنه لجأ إلى الصمت في آخر عمره كما قد يفهم من قوله:

تفكّرْ من العُمْرِ فيما مَضَى
ولا تَتْرُكِ الفِكْرَ فيما بَقي
وَأَدِّ الحقوق لأَصْحابِها
ومنْها السُّكوتُ عن المُطْبَقِ

أم أن ظروف الشيخوخة والمرض والمحنة قعدت به عن متابعة الطور الأخير من مأساة الفردوس المفقود؟.

الحـــواشي

(1) المعيار المعرب جـ 11 ص 149.
(2) ديوان البسطي: 113 - 114.
(3) المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري تأليف الدكتور أحمد دراج ص 197.
(4) المصدر نفسه.
(5) أطروحة السيدة أرييه ص 144.
(6) انظر تفصيل ما ذكرته في بحث خوان تورّيس فونتس المنشور في مجلة الأندلس سنة 1962هـ.
(7) المماليك والفرنج: 197.
(8) نفح الطيب: 4 :467.
(9) الروض المعطار: 415 تحقيق د. إحسان عباس.
(10) المصد نفسه ص 355.
(11) المعيار المعرب 2 :142 - 158.
(12) نفح الطيب: 4 :550.
(13) نفح الطيب 2 :704.

حَالة الخطط الدينيّة والاجتماعية في عصره

ننتقل بعد هذا إلى قسم آخر نستعرض فيه وصف الشاعر الفقيه أحوال الخُطط الدينية والمؤسسات الاجتماعية ونقدَهُ للقائمين عليها وذلك من خلال معايشته لواقع الحال في بلده بسطة ولعلّ حالها ينطبق على عموم المدن والقرى التابعة لمملكة غرناطة.

ولقد رأينا كيف أنشد القلصادي ـ عند الإشارة إلى ما أصبحت عليه حَال الخُطط الدينية ـ قول الشاعر:

لقد هزُلَتْ حتّى بدا من هُزالها
كلاها وحتّى سامَها كل مُفلِسِ

وكنا ننتظر من ابن الأزرق معاصر شاعرنا أيضاً ومؤلف «بدائع السلك» الذي حاذى فيه مقدمة ابن خلدون أن يشير إلى أحوال هذه الخطط على عهده في مملكة غرناطة فلم نجد عندَهُ شيئاً من ذلك ورأيناه مكتفياً بتلخيص أقوال السابقين، ومن هنا يبدو الفرق بين بعض أعلام هذا العصر

الذين وصلتنا مؤلفاتهم خالية من أي إشارة إلى كوارث عصرهم وأحوَال بلدهم، وبين هذا الفقيه الشاعر المتواضع الـذي ضن عليه المؤرخـون بكلمات تحفظ اسمه وعمله من النسيان.

لقد كان شاعرنا القيسي صاحب حس نقـدي نادر، ونعتـه بعض معاصريه ـ كما جاء في شعره ـ بأنه «داهية دهياء» ووصفه بعض خصومه بسبب طول لسانه بأنه «شيطان».

وكان أيضاً على مستوى جيد من العلم والمعرفة بالمسائل والوعي بالأمور وسنرى كيف أن فقهه ومعرفته بأحكام الخطط الشرعية أهّله لنقد ما أصابها من اعـوجاج في وقته، ونحن إذا كُنّا لا نبـرىء بعض نقده من حساسيات المعاصرة وردود الفعل الشخصية فإننا مع ذلك نلمس كثيراً من الصدق والغيرة في جلّ ما قاله.

إن خطة القضاء «من أعظم الخطط قدراً وأجلّهـا خطراً» كما يقول القاضي الأندلسي ابن سهل[1] وقد رأينا مما سبق ابتهاج الشاعر بإسناد هذه الخطة إلى ذوي الكفاءة والعدل، وعرفنا أمداحه في القضاة الكبار من أمثال ابن عاصم وابن منظور والجعداله وأبي حامدابن الحسن وغيرهم مِمّن ولوا قضاء بسطة وقضاء الجماعة بغرناطة.

ولكن خطة القضاء كانت تسند أحياناً لغير أهلها، وقد انتقد شاعرنا بعض هؤلاء واتهمهم بـالجهـل والارتشـاء والجـور والـتعـسف فـي الأحكام. قال في أحد القضاة المرتشين ببسطة واصفاً إياه باللب وهو الذئب في لهجة الأندلسيين (104):

أي لُـبٍّ ببـسـطةٍ قَـدْ تقـضّـى
لـرعـايـا بـهـائمٍ فـي مفـازَهْ

منعَ الجائزَ المُباحَ رياءً
والحرامَ المحظورَ شرعاً أجازَهْ
ومضَى حكْمُه بذاكَ مَضاءً
ليسَ منْهُ في نفسِهِ مِنْ حزازَهْ
واستوتْ عندَهُ الحقيقةُ جَهْلاً
معَ ما أحكمَ الكتابُ مَجَازَهْ
يرتشي دائماً ويبدي لِمُرشٍ
عندَ لُقْيَاهُ هشّهُ واهتزازَهْ
همُّه في سؤالِهِ من يلاقي
هلْ سمعتمْ في يومِنا من جَنازَهْ
أوْ رَأيتمْ مُخَبّراً عن مريضٍ
لمنايا مُعدّةٍ جهّازَهْ
كل مَيْتٍ ببَسْطَةٍ فَهْوَ يَحْوي
ما انتقاه طولَ الحياةِ وحازَهْ
لم يزلْ معروفاً بذا مُذْ تقضّى
وبهِ قِدْماً مازَهُ من مازَهْ
أخلفَ اللَّهُ مالاً ابتزّ ظلماً
لمن ابتزَّ واستباحَ ابتزازَهْ
وأنالَ القضاءَ بالعزْلِ عَنْه
عن قريبٍ كرامةً وعزازَه

وقال معرّضاً ببعض القضاة المرتشين (92):

يا أهلَ بسطةَ دَعْوةٌ مِنْ مشفقٍ
لَوْ فيكُمُ لدعائِهِ مَن يَسْمَعُ

إنّ القضاءَ وظيفةٌ دينيةٌ
ما قطُّ قامَ بحقِّها مَنْ يَطْمَعُ
وأرَى الذي وَلِي القضاءَ بمصْرِكُمْ
قَدْ صَارَ يطَمَعُ بالقضاءِ ويَجْمَعُ
والحَنْثُ محكومٌ عليه بأنّهُ
لسواه مبتلعٌ إذا ما يَلْمَعُ
وإذا الفتى لقضائه لم يفتقرْ
ـ قال الرسول ـ فسارق لا يقطعُ

وقال يعرض ببعض القضاة ويتهمه بالجور والحكم بما يخالف الشرع (105):

ربحُ الشّريكين في التقسيطِ بينَهُما
بقَدْرِ مالِهما أوْ نسبةِ العملِ
وفي الغنائمِ حكمُ الشرعِ متضحٌ
في قِسْمةِ الفارس المعلوم والرّجِل
فقل لقاضٍ أتَتْ بالعكسِ قسمَتُه
في ذاكَ مع علمِهِ بالجوْرِ والزّلَلِ
رويدَكَ آقسِمْ بما قد شئت مُجْتَرِئاً
فأنتَ حقّاً بمرأى قاسِمِ الدّوَلِ
واللّهِ ما جارَ قاضٍ في حكومَتِهِ
ففازَ من دَوْلَةٍ بالسّؤلِ والأمَلِ
بَلْ بَيْنَمَا العَيْنُ تستحليهِ متصفاً
بالجَوْرِ إلاّ وأضحى شرّ مُنْعَزلِ

وقد تفنّن الشاعر في التعريض بقاضيين سمّاهما، ولكنا لا نعرف

عنهما شيئاً، وهما ابن الأحول الضبي وابن مفضّل وجل تعريضه بهما يتألف من بيتين إلّا أن كل بيتين يعدلان ـ في حرارة لذعهما ـ قصيدة كاملة، والقيسي في تفوقه في نظم البيتين قريب من منصور الفقيه الذي كان يرمح بالزّوج وربما هجا بالبيت الواحِد.

وممّا قاله في القاضي ابن الأحول الضبي (122):

حال ابن الأَحْوَلِ في الترخّصِ مُعجبٌ
ما ذُمّ شرعاً عَدَّهُ كمباحِهِ
ثَمَرُ الْحَدَائِقِ مُنْذُ حلّ ببسْطةٍ
يبتاعُ جَهْلاً قَبْلَ بدءِ صلاحِهِ

وهو يشير هنا إلى مسألة فقهية معروفة في باب البيوع، وقد لخص الدسوقي كلام خليل فيها فقال (3 :152): «وحاصل ما ذكره المصنف أن الثمار أي الفواكه والحبوب والبقول لا يصحّ بيعها إلّا إذا بدأ صلاحها أو بيعت مع أصلها أو ألحقت بأصلها المبيع أوّلاً أو بيعت على الجذّ بقرب إن نفع واحتيج له ولم يكثر ذلك بين الناس، وإن تخلّف شرط من هذه الثلاثة منع بيعه على الجذّ كما يمنع بيعه على التبقية أو الإطلاق» وقال فيه (136):

عُدَدُ الطّوالِقِ أن يحضْنَ حرائراً
جعلَ ابنُ الأحول أربعين صَباحا
فنكاحهنّ زِناً عليهِ وزْرُهُ
لعظيمِ ما بِالجهلِ منهُ أباحا

وممّا خرج فيه هذا القاضي عن المذهب المشهور وحكم فيه بالقول الشاذ هذه النازلة التي يقول فيها الشاعر (134):

إذا طلّقَ المرتدُّ قبلَ ارتدادِه
وعادَ إلى الإسلامِ عادَ طلاقُهُ

ولم يرتَضِ ابنُ الأحْوَلِ العودَ مذْهباً
على أصلِهِ إذ بالشّذوذِ اعتلاقُهُ

وقد أفتى الفقيه القاضي ابن سراج الغرناطي معاصر الشاعر بمثل هذا في نازلة مشابهة، جاء في المعيار (3 :250): «وسئل (أي ابن سراج) عن رجل تنصّرَ وتزوج في أرض العدو نصرانية وأقام معها سنين ثم عاد إلى الإسلام وأسلم وأسلمت هي معه في زمان واحد وخرجا إلى بلاد المسلمين: هل يُقَرّان على نكاحهما أو يفسخ بطلاق وبعد ذلك ينشئان عقداً آخر...

فأجاب: تصفحت السؤال أعلاه والجواب أن المرتدّ لا يقرّ على نكاحه في حال ردّته على المشهور وهو مذهب المدونة، وقال ابن الماجشون إنه يُقَرّ، وذهب إليه ابن حبيب، والمشهور المعول عليه هو الأول، فيفسخ النكاح المسؤول عنه بطلاق، وتتربّص المرأة حتى يمضي لها ثلاثة أطهار ويردها الزوج إن أحب...».

هذا يشعرنا أن الارتداد عن الإسلام والتنصّر خوفاً أو طمعاً أصبح من مشكلات هذه الحقبة الأخيرة من مملكة غرناطة، وهذا ما تشير إليه المراجع المسيحية وكتب النوازل الفقهية، وممّا يدل على ذلك أيضاً قول محمد العربي العقيلي معاصر القيسي في متنصّر ظفر به المسلمون:

ألا ربّ مغرورٍ تنصّرَ ضلّةً
فحاقَ به شؤْمُ الضّلالِ وشَرُّهُ

فإن يرتَفِعْ عندَ النّصارَى بالابْتِدا
فكَمْ عندَنا من حرفِ حَبْلٍ يَجُرّهُ

ومن تعريض شاعرنا بأحكام ابن الأحول وادعائه التقدم في الفقه: (134 - 135):

ما لابنِ الأَحْوَلِ والغُرُورَ بوَصْفِهِ
في الفِقْهِ بالتفْضيلِ والتقْديم
ولزَوْجَةٍ قدْ حُرّمت رَدّ الذي
رأيَ القُرَانِ اختارَ بالتحْرِيمِ

وقال فيه أيضاً (136):

قالتْ وقَدْ مَلَكَتْ بلاَ عِوَضٍ
قَلْبي أَتَرْجو رَدَّه منّي
قلتُ البيوعُ وإنْ مكايسَةً
رُدّت لدَى الضّبيّ بالغَبْنِ

والإشارة هنا إلى مسألة فقهية وهي أن البيع إذا وقع على وجه المكايسة فلا ردّ بالغبن فيه (ح. الدسوقي 3 :121).

والضبي هو ابن الأحول المذكور وقد ورّى باسْمه في هذين البيتين: (136):

عابَ الكَراهةَ لابنِ أحْولِهِمْ
مَنْ لَمْ يُمَيّزْهُ منَ الصّحْب
قلتُ الرسولُ أتت مُسَطّرَة
أخبارُه بكَراهةِ الضبِّ

والشاعر يشير إلى الأحاديث النبوية الواردة في كراهة الضب وكراهة أكله. انظر الموطأ للإمام مالك.

وله في التعريض به أيضاً، قال: ولها حكاية (136):

نقـدَ ابنُ الِأحولِ مـا رآه شيخُنا
مستعمــلاً ومتمّمـاً عَقْــدَ الهِبَــهْ
سُحْقَـاً لـه، فنكــاحُ بنتِ رَبيبَـةٍ
بَعْد الدخولِ بالأمِّ أضحى مذهَبَهْ

وشنع عليه مرة ثانية في بيتين لم يسمّه فيهما فقال (76):

قـد اسْتَـوَى في بَسْـطةٍ جـاهــل
فَـدْمٌ مـع الحَبْـرِ الـذكي اللّبيب
مُـذْ صارَ قـاضيهـا يَـرَى جـائـزاً
في شـرعِـه نكـاحَ بنْتِ الـرّبيْب

وهذه المسألة التي صوّر فيها شاعرنا جهل هذا القاضي تدلّ على حذقِهِ للفقه، واطّلاعه على النوازل، وهي مذكورة في مسائل ابن رشد ونقلها صاحب المعيار، فقد سئل ابن رشد عن حفيدة الزوجة من ابنها أو ابنتها هل تحل لمن كان زوجاً للزوجة المذكورة أم لا إن ماتت عنه أو طلقها؟ فأجاب بأن قال: إذا دخل بها فلا تحل له بناتها ولا بنات بناتها ولا بنات بنيها وإن سفلن لأنهن بمنزلة الربائب.. فهن عليه حرام، وهذا ممّا لا اختلاف فيه[2].

ولشاعرنا في هذا القاضي قطعة تتسم بالعنف وتصور غضبه عليه وهي (138):

قالوا ابن الأحْوَلِ في الفُضولِ ببَسْطَةٍ
لِـرَذالــةٍ فيــه تـقــدّمَ نـاسَــهُ
فــأجبتُهُمْ سحقــاً لــهُ لفُضـولـِه
ضَرَبَ ابن غادِرَ منذُ عامٍ راسَـهُ
والآن أفــرطَ فَهْـوَ محتــاجٌ لمن
لِلدِّينِ يكْسِــرُ غيْــرةً أضْــراسَــهُ

ويـذيقـه كـأس الـرّدى أدَبـاً لَـهُ
إذْ لَمْ يَـذُقْ فيمـا تقـدّم كـاسَــهُ
وصَــلاحُــهُ مـتـعَــذِّرٌ لـفـســادِهِ
كــلٌّ غــدا مِنْــهُ يُحتّم يــاسَــهُ

وقد وقفت على اسم محمد بن غادر من أعيان هذا الوقت في رسم مؤرخ بعام 900هـ يتعلّق ببنته عائشة بنت محمد بن غادر فلعلّه هو الوارد في البيت الثاني من هذه القطعة (وثائق عربية غرناطية: 142).

ولا شكّ أن شاعرنا ظل يرشق هذا القاضي بسهام تعريضه ويتناولُه بهجائه إلى أن عزل عن القضاء، فلّما عُزلَ قال فيه (104):

عزَلوا ابنَ الاحْوَلِ عَنْ وظِيفِ قضائِهِ
لَمّـا أتى بـالجَـوْرِ في الأحكـامِ
وأبَــوْا شهـادَتَــه لجـرْحتِـهِ التي
ثَبَتَتْ بمـــوجبهـا لـــدى الحكّـامِ

ولعلّ ابن الأحول هذا هو الذي وصف الشاعر بأنه شيطان فقال يردّ عليه (77):

زَعَمْتَ وَقَدْ أخطأْتَ فيمـا زعمتَهُ
بــأني شيــطانٌ ولستُ بشيــطانِ
ولكنمــا الشيــطانُ أنتَ حقيقــةً
لخُبْثِـكَ إذْ ترمي سِـواكَ بنُقْصَانِ
وفيكَ صفاتٌ في الشياطينِ أُلْفِيتْ
أشـاعَ بهـا إقــرارَهُ كـلّ إنســانِ
وفي الحَوَلِ الْبادِي بعينِكَ شاهدٌ
يبين صـدقي اليومَ أوضـح تبيـان

وثمةٍ قاض آخر ولع الشاعر بالتَعريض به والسخرية منه بما لا يقل عن قوله في ابن الأحول وذلك هو ابن مُفَضّل الذي كان قاضياً في بسطة.

ولم نجد له ترجمة في المصادر المعروفة وفي مجموع «وثائق غرناطية» عقد زواج مؤرخ بسنة 842 (1438م) فيه ذكر لعائشة بنت أبي عبد الله محمد بن مفضّل، ويخبرنا العقد أن أبا إسحاق إبراهيم ولد عائشة بنت أبي عبد الله ابن مفضّل من زوجها أحمد المعروف بالحكيم تزوج فاطمة بنت أبي الحسن علي بن موسى اللخمي القرباقي البسطي كبير علماء بسطة في هذه الحقبة (ت 844هـ)[3].

ونظن أن ابن مفضل هذا هو الذي قال فيه شاعرنا (81):

تَبّاً لقاضي بسْطَةَ ابن مفضّلٍ
تَبّاً لَهُ فيهِ يَروحُ وَيَغْتَدِي
فَلَقَدْ أَتَى مِنْ حكمِهِ بعجائبٍ
أمثالها في عَصْرِنَا لَمْ تُعْهَدِ
فالسجنُ عندَ سواهُ معروفُ المحَلِّ
وعندهُ فالسجْنُ جَوْفُ المسْجدِ
ويَرى النكاحَ بلا صداقٍ جائزاً
رأي الْغَوي الجاهلي المُلْحِدِ
ويغيّر الأحكامَ عمّا أُصِّلَتْ
تَغْيِيرِ جَبّارٍ عنيدٍ مُعْتَدِي

وشهّر به بمثل تشهيره بابن الأحول في مسألة المبتوتة أي المطلقة بالثلاث فقال:

أمبتوتةً تَهْوَى الرّجوعَ لزَوْجها
عليك بقاضي بسْطَةَ ابن مفضّلِ

تجدْ قاضياً ذا مذْهبٍ غيرِ ضيّقٍ
يجيزُ بلا تَقْوَى نكاحَ المُحَلّلِ

والمحلّل هو الزوج الذي طلق زوجته بالثلاث يتفق مع رجل يعقد عليها ولا يطأها كي تحل له، وهذا رأي لسعيد بن المسيب أخذ به بعض المتساهلين الذين خرجوا عن مذهب مالك وقالوا إن لفظ النكاح في قوله تعالى: ﴿ فلا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره ﴾ مطلق على مجرد العقد، وللمازري إملاء في هذه المسألة نقله صاحب المعيار[4]، وقد وجدنا في القرن السابع قاضي سلا ينتقد أحد المفتين لكونه أفتى بتحليل المبتوتة[5].

وقال في غرض التعريض بالمذكور عندما كان نائباً عن القاضي أبي حامد ابن الحسن (29، 81):

عَجَباً لقاضٍ حُكْمُهُ
أَمْضَى من السُّمْرِ الرّقاقْ
جازت شهاداتُ النِّسا
ءِ لَدَيْهِ حَتى فِي الطّلاقْ

وهو هنا يشير إلى مسألة فقهية وهي شهادات النساء وهي إنما تجوز عند ابن القاسم في مواضع محددة وبشرط شهادتهن مع رجل إلاّ فيما يرجع إلى الحيض والحمل وشبه ذلك من أحوال المرأة فشهادة امرأتين تقوم مقام رجلين.

ولعلّه يسخر من تحريفه في صحيح مسلم وعدم إحكامه لرسم المصحف في هذين البيتين المحرّفين في الأصل (82):

إن شئت خرقاً ثابتاً من «مسلمٍ»
أو مُصْحَفاً كسَف المؤلف أحْرُفَهْ
فانظرْ كتابَ الشاهدِ ابن مفضّلٍ
فَبِهِ هديتَ بدائعٌ مُسْتَطْرَفَهْ

وكلمة الشّاهد في البيت معناها العدل والموثق، ويبدو أنه قالهما فيه عندما كان المذكور شاهداً أي عدلاً.

إن ما وصفه الشاعر من حال هذين القاضيين وما ذكره من أحكامهما سلب خطة القضاء في مدينة بسطة وغيرها ما كان لها من هيبة وجلالة والسبب هو تولية من ليس أهلاً لهذه الخطة،ولهذا نجد الشاعر يخاطب بعض أولي الأمر في هذا الشأن قائلاً (101):

تعطّفْ على الأحكامِ واستَبْقِ رَسْمَها
بـإنقاذِهـا ممّنْ بهـا اليـومَ يلْعَبُ
فقد سُلِبَتْ في بَسْطَةٍ أصْلَ وَضْعِها
بتقديمِ مَنْ لولاهُ لمْ تَـكُ تُسْلَبُ

ويقـول (97):

إنْ لَمْ تُغيّرْ مُنْكَـراً فينـا، فشـا
حتّى [يَعُمّ] بمَشْـرقٍ وبمَغْـرِبِ
أفْتَى لَـدَيْنـا أحْمَـدُ بـن رُقَيّـةٍ
وَوَلِي القَضَاءَ مُحمّدُ بنُ الْمَغْرِبِي
وتحـدّثَ السُّمّـارُ مِنْ أخْبَـارِنـا
بـالمُضْحِكِ المُسْتَبْدَرِ المسْتَغْـرَبِ

ولا نعرف من هو القاضي محمد بن المغربي، أمّا أحمد بن رقية فقد تكون له علاقة بإبراهيم بن موسى بن رقية أحد المفتين الوارد ذكرهم في المعيار (4 :492).

ومن الغريب حقّاً أن نجد شاعرنا بعد هذا كله يرثي ابن مفضل بقصيدتين توجّع لفقده فيهما، وترحّم عليه، وقال إنـه كان يُحْكِم عقـد الشروط، ويَسيرُ في أحكامه على نهج الصواب، ويجري في قضائه على وفق الشريعة ويقول في إحدى القصيدتين (112):

فمضَى وكـانَ مصلّيـاً جمّ التـلاوة لِـلْكتـابِ
يـبكـي بـدمْـعٍ دونَـهُ مهْما تَلا صَوْبُ السّحابِ
وإذا تُـحـدِّثَ عـنـدَهُ بالذّنبْ يُفصحُ بالمتـابِ
يَـرْجـو بمـا يـأتي بـهِ مِن فعلِهِ حسنَ الثـوابِ
يـا ربِّ أمّـنْ خَـوْفَـهُ وارحَمْهُ في يومِ الحِسابِ

وإذا صحّ أنّ ذاك المهجو هو هذا المرثي، والغالبُ أنه هو، فقد يكون حاله صلح فيما بعد، وتم الصفاء بين شاعرنا وابن مفضل قبل مماته.

وكانت خطة العدالة والتوثيق ـ حسب الشاعر ـ أسوأ حالاً من خطة القضاء وقد اشتغل هو نفسه بخُطّة العدالة وكان فيها من الحذاق المبرزين ولكنه عزل عنها مرة بتواطؤ من بعض خصومه ومنافسيه في الصنعة وهو ينعت هؤلاء بالجهل ويقول فيهم (139):

تعـاطَى خـطّةَ التـوثيـقِ مَنْ لاَ
لِفَرْطِ الجهلِ رَسْمَ الخط يَعْرِفْ
فَـكَيْـفَ لشَـيْبِـه إنشـاءُ رسْـمٍ
بتَـوْكِيـلِ امـرىءٍ وعَلَيْـهِ مُشْـرِفْ

وقال في المعنى نفسه (139):

تحَكّمَ في التـوثيقِ قـومٌ بجَهْلِهِمْ
إلى أنْ أتَوْا فيهِ بما لَيْسَ يُعْرَفُ
وأعْجَبُ ما جاءُوا بِهِ في عقودِهِمْ
وكيـلٌ عليه في الـوكالَـةِ مُشْـرِفُ

وهذا الصنف من العدول لجهلهم، وضعف شخصيتهم معـروفون بتملّق القضاة وتقبل الإهانة منهم بينما العدول المبرزون ـ وكان الشاعر

منهم ـ لا يرضون بذلك، وهذا ما عبر عنه الشاعر في قوله مخاطباً بعض القضاة (113):

بذلُ النصيحةِ واجبٌ لـكَ سَيّدي
فأصِخْ فعَنْـكَ نصيحتي لَمْ أخْزُنِ
إنّ العُدولَ من الشّهودِ يَسوءُهم
جَعْـلُ المبـرّزِ منْهُمُ كـالْمَخْـزَني

والمخزني في استعمالنا هو العَوْن، ويقول مخاطباً بعضهم (113):

رأيتُ عـظيمـةً أشفقـتُ منْهـا
وشيمـةُ سيـدي دَفْـعُ العـظائم
عـدولـكَ في حـوانتِهمْ قعـودٌ
وغيـرُ العـدلِ بـالتحليفِ قـائمْ

وخاطب بعض القضاة الذي حاز مستحقّات له لدى شخص يدعى ابن عجيب (77):

أيُّها القاضي المُنْتَقى مِنْ أُناسٍ
لـيسَ فيـهِمْ سـواءه مـنْ نَجيـبِ
ما الذي غَـرّ ذلكَ المَجْـدَ حَتّى
حازَ ما كانَ لي لَدَى ابْنِ عَجِيبِ

وقد وقفنا في وثائق عربية غرناطية (77)، على ذكر «المرحوم أحمد بن عجيب» من أعيان بسطة وذلك في رسم مؤرخ في صفر عام 880 فلعلّه المذكور في آخر البيتين.

ويقول في مخاطبة قاضٍ آخر (121):

بِرَعْيِ عُدُولِ الوقتِ غَيْباً ومَشْهداً
تحلُّ من الفردَوْسِ أعْلى الأَرائكِ

وقد ساءَهُمْ أن يُحْرموا كلّ فائـدٍ
لديكَ اغتدَى حتّى حضورَ التّرَائِكِ

والترائك في استعمال عدولنا هي التركات. وحسب الشاعر فقد انتهى الحال بخطة التوثيق إلى التعطيل، وله قصيدة طويلة تقع في 42 بيتاً قالها «لما وقع تعطيل التوثيق ببسطة» وهذه القصيدة كالمرثية بدأها الشاعر بقوله (94):

مـا للدُّموع بصَفْـح الخـدّ تـطرُّدُ
وللضّلوعِ بنـارِ الـوجْـدِ تتقِـدُ

ويقـول:

خـطبٌ ألمّ فلمْ يَسْـطِعْ تحَمّلَه
لفـرط وطـأتـه قَلْبٌ ولا خَـلَدُ
تصـدّعَتْ كبِدُ الـدين الحنيف لَهُ
فـالدينُ لَيسَ لـهُ من بَعْـدِه كبِـدُ

ثم يصفُ تألّم الناس في بسطة لتعطيل التوثيق الذي كان روح الحياة الدينية وشعار الإسلام فيها، تحفظ به المعاملات وتصانُ معه الحقوق، والشاعر يشير إلى فقيهين تواطئا مع حاكم على هذا الأمر الخطير:

إلاّ فقيهَيْنِ لا كـانـا ولا وُجِـدا
في الناس ، لم يجدا مثلَ الذي وجَدُوا
وأخْفَـرا لاعـتقـادِ السّـوءِ ذمّتَـه
مع عاضِدٍ لهُما يا بئسَ ما اعْتَضَدُوا

كما يشير إلى ترويع الموثقين وتخويفهم ويتساءل عن سبب إهمال التوثيق وتعطيله ومما تساءَل عنه قوله:

تُـراهُـمُ قَصـدوا تشْـريفَ رُتْبتِـه
بـذاك واللَّهِ ما تشـريفَـهُ قَصَـدُوا
تـراهُمُ اعتمدُوا إصـلاحَ فـاسِـدِه
بل الفسادُ بما قدْ أصلحوا اعتمدُوا

ثم يعود فيقول في هؤلاء الذين عطلوا التوثيق:

خَلَّوْا صريحَ كتابِ اللَّهِ واسْتَندوا
لباطلٍ بئسَ ما عَمْداً له اسْتَندُوا
خانوا الشريعةَ بالفعل الذي فعلوا
يا ليت شِعْريَ هلْ منهُمْ لَها قَوَدُ
لَقدْ أَتَوْا منكراً يبقى الحديثُ بِهِ
يُرْوَى ويُسْنَدُ عَنْهُم ما بَقَى الأَبَدُ
فـدعْهُمُ والذي جـاءوا بـهِ سَفَهـاً
فـدَعْهُمُ إنّهُمْ يلْقَـوْنَ مـا وَعَـدُوا
وكـلُّ مـا عَقَـدوا ينحَـلُّ مبـرمُـهُ
إذا انقضَى وقْتُه ينحَلّ مـا عَقَدوا

ويفهم من البيت الأخير أن هذا التعطيل ربّما رفع وعاد التوثيق من جديد إلى بسطة، ولا نعرف شيئاً عن هذه الحادثة التي دونها الشاعر، وربّما كانت في عهد بعض الجبابرة ذوي النفوذ في بسطة، فقد ذكر القَلْصَادي في رحلته أن أبا الحسن اللخمي شيخ الجماعة في هذه المدينة «خرج منْ بسطة بسبب بعض الجبابرة في وقته إلى برشانة من وادي المنصورة وذلك ليلة الجمعة لأربع بقين من جمادى الأولى سنة سبع وثلاثين وثمانمائة. ووافق يوم الجمعة المذكور الثامن من يناير (1434)، وأقام بها نحو العشرة أشهر ثم عاد إلى بسطة إلى أن توفي بها في زمن الوباء عاشر يوم من صفر عام أربعة وأربعين وثمانمائة»[6].

ويبدو أن الأمر فيما سمّاه شاعرنا الفقيه «تعطيل التوثيق» يتعلق بتغيير في مسطرته أو إصلاح لها كما سمّاه القائمون بـه حسبما ورد في بيت سابق، وهذا التغيير بادٍ في الوثائق التي كتبت فيما بعد منتصف القرن التاسع حتى سقوط غرناطة، وقد تنبه لهذا الأستاذ لويس سيكودي لوثينا وقال: «إن الوثائق الغرناطية التي أنشرها الآن والتي تصل تواريخها إلى تاريخ سقوط غرناطة تتضمّن صيغاً مخالفة لتلك التي نجدها في مجموع ابن سلمون الذي يدخل في عداد فقهاء غرناطة ويتبع طريقتها في تحرير الشروط». ولاحظ أن تلك الوثائق «تتضمّن تعبيراً غريباً خارجاً عن القواعد التي كانت تطبق بها الأصول الفقهية الجارية في الفقه الأندلسي»[7] وقد رأينا فيما سبق كيف أن شاعرنا الفقيه القيسي كان معجباً بوثائق ابن سلمون ملتزماً بالعمل بها مخالفاً من يتكلّم فيها قال (92):

فخـذْهـا لحُكْمٍ أو لعَقْـدٍ وثيقـةٍ
على ثقــةٍ منْهــا بشَــرْحٍ وتَبْيينِ
ولا تلتفِتْ فيها إلى قولِ قـائلٍ
وكُنْ بالذي جاءتْ به جدَّ مَفْتونِ

ويبدو أيضاً أن الشاعر عارض الخروج على نهج وثائق ابن سلمون فأحرق حانوته وأوذي لا لسبب سوى أنه يقول الحق وَيراعى أصول التوثيق:

وأمّـوا جميعـاً بـالإذايـةِ جـانِبي
على غيــر ذنبٍ لـلأذى بمُحَلِّلِ
سِوَى أنّني أصبحتُ للحقّ ناصِراً
ولم ألْتَفِتْ منهم إلى عَذْل عُـذَّل
وراعيتُــهُ إذْ لَـمْ يُــرَاعُــوه ضلّةً
وصـار لـديهِمْ منهـلاً أيَّ مَنْهـلِ

وأَبْدَوْا من التأويلِ رأياً مُوَهّناً
وما أحسنوا في رأيهمْ والتأوّلِ

ومما يشبه شعر البسطي في هذا الموضوع:

فسَدَتْ صنعة التوثّق لمّا
أن بَدا كلُّ جاهلٍ يَدّعيها
لم تكنْ غيرَ رَوْضَةٍ فاستبيحَتْ
فغَدا كلُّ ناعقٍ يرتَعِيها

ولم يُعْفِ شاعرنا الفقيه من نقده بعضَ الأئمة والخطباء والمقرئين والمدرّسين، وربما لم يبرأ نقده منْ ملابسات المعاصرة، وها هو يقول في بعض معاصريه من الفقهاء (82):

بِأَبِي فَقيهٌ حافِظٌ متفنّنٌ
بالنّحو دونَ سواهُ أَضْحَى يُشْهَرُ
يَتْلُو ويكتب حَرْفَ «تَقْهَرْ» في الضّحى
مِنْ جهلِهِ بالرفع مع «لا تَنْهَرُ»
وإذا يرومُ رُجوعَهُ عَنْ لَحْنِهِ
أحَدٌ بِمُصْحَفِهِ لَهُ يَسْتَظْهِرُ
يأْبى الرجوعَ لَهُ ويَزْعُمُ أنّهُ
خَلَلٌ بِمُصْحَفِهِ الْعَتيقِ مُسَطّرُ
الجَهْلُ يوقِعُ أهْلَهُ في مُنْكَرٍ
يَبْقَى عَلَى مَرِّ اللّيالي يُذْكَرُ
ومنَ الدليلِ علَى جَهالَتِهِ التي
تَبْدُو مخايلُها عَلَيْهِ وتَظْهَرُ

تـخصـيصُـهُ بــودادِهِ مَـنْ جَهْـلُهُ
بــادٍ ويَهْـربُ مِنْ سِــواهُ وَيَنْفِــرُ
بـــاللَّهِ من شَيْـطانِـــهِ أنـا عــائِـذٌ
فبـه يعوذُ من الـوَرَى مَنْ يَحْـذَرُ

وقال معرّضاً بخطيب (68):

وخَــطيـبٍ لَمْ تَــرَ الـعَيْـنُ لَـهُ
في الـوَرَى مِثْلًا إذَا مـا يَخْـطُبُ
طَــوّلَ الخُـطْبَـةَ حتّى كــادَ مِنْ
طولِها وقْتُ الصّلاةِ يذهَبُ
خِــلْتُــه وهـــو عـــلى مـــنــبـره
فــاغــراً فــاهُ غــرابــاً يَـنْـعَـبُ
وكــأنَّ المُـسْـمَـعينَ الْــوَعْظَ لـلنّـ
ـوْمِ مَــوْتَـى فيـهُمُ يُـسْـتَـغْـرَبُ
يــا نُبــاحَ الْكَلْبِ أنتَ المُشْتَهَى
دونَ مـا يـأتي بِــهِ، المُسْتَعْـذَبُ

وقال في التعريض بأحد المدرّسين (75):

يـا أبا عبـدِ الله أوصيكَ فَـاسْمَعْ
مِنْ نَصيحٍ مُرادُهُ صَوْنُ عِرْضِـكْ
اتْـرُكِ البَحْثَ في كتابِ المُـوَطّـا
والتَمِسْ ما يُفيدُ مِنْ حَرْثِ أرْضِكْ

وداعبَ أحد أصحابه من الأئمة الذين لا يحفظون القرآن حفظاً جيداً ناصحاً إياه أن يشفّع بالقرآن في القرى الصغيرة الّتي لا يوجد فيها من يحفظ القرآن فيكتشف حاله، قال (80):

اسْمَعْ وَصِيةَ نـاصحٍ لَـكَ مُشْفقٍ
يَبْغي الخَلاَص لِنَفْسِكَ الْمِسْكينَـهْ
مَهْمَـا دَعَتْـكَ ضَـرورةٌ لتَشَفّـعٍ
فـاقْصِـدْ قُـرَى نجيـطَةٍ وَمِسينَـهْ
فـإذا أردت سِواهُمـا لا تَـرْتَحِـلْ
إلاّ إلَـى تـلّونَ أو مـيـريـنـه

ونجيطة ومسينه وتلون ومرينه أسماء قرى من جهات بسطة.

وننتقل بعد هذا إلى موضوع آخر تناولـه الشاعر الفقيه بالنقد، وأكثر فيه القول، ألا وهو الاحباس التي كانت بالنسبة لمثله من الأئمة والمقرئين والمدرسين مورد الرزق والعيش، وقد رأينا فيما سبق معركة صاحبنا مع ناظر الأحباس الذي كان يمنع عنه حقه فيها حين كان طالباً ومرتبه منها عندما أصبح إماماً ومقرئاً وخطيباً، ويدلّنا بعض شعره على أنه كان يحاول الاستفادة منها بواسطة اكتراء بعض أراضيها للفلاحة، ومن هنا كان اهتمام الشاعر بهذا المرفق الاجتماعي الحيوي، وتدلنا كتب النوازل على أن الأحباس في مدينة بسطة وغيرها من المدن والقرى في مملكة غـرناطـة كانت كثيـرة ومتعددة الوجوه وكان ينتفع منها عدد لا بأس به من المجتمع الأندلسي في ذلك العصر.

وقد سرى في هذه المؤسسة الاجتماعية قبيل سقوط مملكة غرناطة كثير من الضعف والانحلال وظهر هذا في إهمال المساجد وتعرضها للضياع والتهدّم والخراب وهذا ما تشير إليه كتب النوازل ويشهد به كلام الشاعر، فها هو يوجه الخطاب إلى أهل بلده بسطة قائلاً (77):

يـا أَهْلَ بسْـطَةَ مـالكُمْ في غَفْلَةٍ
عَمَّتْ وأمْنٍ مِنْ حـلولِ البـاسِ
ومسـاجـد الله التي في مِصْـركُمْ
ضـاعَتْ لغَفْلَةِ نـاظِـرِ الأحْبـاس

كما خاطب الرئيس القاضي الماجد أبا عمرو ابن منظور في شأن الأحباس بهذه الأبيات (91):

يـا أيّها المـاجِدُ المـأْمُولُ جـانِبُهُ
لحِفْظِ الأَحباسِ من عادٍ ومُفْتَرِسِ
اللَّهَ فيها فَقَدْ ضاعَتْ وَقَدْ خَرِبَتْ
وأَصْبَحَتْ في عِدادِ الأَرْبعِ الدّرُسِ
وللمساجِدِ يَسْري أمرِ ضَيْعَتِها
إنْ حقُّها دونَ أحباسِ البلادِ نُسِي
وقد أَتَتْكَ بما تلقاه شاكيةً
مَعْ أنّها وصفت بالْعِيّ والخَرَسِ
ومشرفاً وشهيدَيْنِ انظرَنّ لها
وناظِراً طاهرَ الأعراضِ من دَنَسِ
لا زال جانبُ ذاكَ المَجْدِ مُرْتَفِعاً
مبلّغَ القَصْدِ مِنْهُ كُلُّ مُلْتَمِسِ

وخاطب بعض الأعيان ـ ولعله ابن منظور أيضاً ـ في شأن الأحباس المعينة لبيوت الله بقصيدة أشار في أولها إلى الغبن الحاصل في كرائها من قبل النظار، وذلك أنها كانت تكرى بصرف الدرهم السبعيني وعلى نسبته ثم تبدلت السكة ونقصت ولم تتغير النسبة وفي هذا إجحاف بحقوق الأحباس، قال (127):

يـا خَيْرَ من يُـرْجَى على التعيينِ
لصَلاحِ دُنْيانا وحِفْظِ الدّينِ

يا نُخْبَةَ الأعيانِ من أهلِ التُّقَى
من مَغْربٍ حتّى لأَقْصَى الصّينِ

أحْبـاسُنـا تَشْكُـو إليـكَ بحـالِهـا
من بَخْسِهـا وكِـرائِهـا المَغْبـونِ
وتقـولُ إنّ كـراءهـا لم ينْعَقِـدْ
إلّا بِصَـرْفِ الـدّرهم السّبعيـني
ومن العـظائم عنـدهـا تَعْـويضُـهُ
بـالـدّرهمِ الجـاري بهـذا الحينِ
للزّهـدِ فيـهِ وكـوْنِـهِ من غِشّـهِ
متنـاهيـاً في وصفِـهِ بـالـدّون

وهذا الذي ذكره الشاعر في موضوع السكة يوجد ما يُطابقه في كتاب المعيار[8]، فقد سئل أبو عمرو ابن منظور القاضي عن «أن الوظائف الموظفة على الأرضين بجزيرة الأندلس المسماة بالمعونة، كانت موضوعة في القديم على نسبة الدراهم السبعينية، وظفت عليها لتقوم بها مصالح الوطن... ثم إن السكة تبدلت ونقصت على ما في علمكم...».

وقد ذكر ابن عاصم في شرحه لتحفة والده فتوى ابن لب في المسألة وعلق عليها بقوله: «وأشدّ من ذلك ما وقع في عام ستة وثلاثين من هذا القرن التاسع وفي العامين بعده من اختلاط السكة بالنحاس إلى أن صدر الأمر من السلطان سدّده الله بقطع تلك السكة».

وقد أشار الشاعر في موضع آخر إلى هذا العيب الذي أصاب السكة فقال مورّياً بامرأة لقبها قيراطة (115):

الغِشّ عيبٌ وَهْـوَ في صَـرْفِنـا
قَـدْ أحْكَمَ التضْـييـعُ إفْـراطَـهْ
فَـصَـرْفنـا دِرْهَـمـه لـم يُـعَـبْ
مَـنْ ذَمَّـهُ أوْ ذَمّ قـيـراطَـهْ

ويعبر الشاعر بعد هذا عن تطلع الأحباس لنصرة هذا السيد وعمل ما في وسعه من أجلها ثم يذكر إهمال المساجد ويجعلها تشكو بلسان الحال وتصف خرابها وأكل نظار الأوقاف أموالها، قال:

وتَـرُومُ مِنكُمْ نَصْـرَهـا وَتَعُـدّه
لِحُصـولِـهِ في حَيِّـز المَضْمـونِ
فَتَفضّلوا منْـهُ بِمـا في وُسْعِـكُمْ
فـالأَجْرُ فيـهِ ليسَ بـالمغبـونِ
فبـه حيـاةُ مَسـاجِـدٍ إهمـالُهـا
لِـظُهـورِهِ يَغْنَـى عن التَّبييـنِ

تَبْكِي العُيُـونُ وَلاَ تَمَلُّ لِما بِها
مِنْ ضَيْعَـةٍ مِنْ دَمْعِهَـا بِـهَتُـونِ
هـانَتْ على عُمّـارِهـا فَتَهـاوَنـوا
مِنْهـا بـعِلْقٍ ـ لا يُنـالُ ـ ثَمينِ
حَتّى لَخافَ أولو النّهى أنْ يَنْتَهِي
بِهِمُ التهـاوُنُ لانْـجِـرَارِ الهُـونِ
فتهـدَّمَتْ بعـدَ البِنـاءِ وأصْبَحَتْ
مِنْ عُـرْيِهـا في خلْعَـةِ المسكينِ
تَشْكُـو لَكُمْ بِلِسانِ حـالٍ قـائِـلٍ
مَنْ ذا الّـذي يبنيني أوْ يَكْسُـوني
لَهْفِي على قَـوْمٍ بنـوني واعْتَنَـوْا
مِنْ وَقْفِهِـمْ لِيَ بـالّـذي يَكْفِيني
مـاتـوا فَمَـوْتِي بـالخَراب مُحَقّقٌ
إذْ بَعْـدَهُـمْ لَمْ يَبْقَ مَنْ يُحْيِيـني

وَجَمِيعُ أَوْقَافي ـ عَلى ما حَلّ بي
مِنْ فـاقَـةٍ ـ تُجْبَى وتُؤْكَـلُ دوني

وشكوى المساجد هنا تذكّرنا بالرسالة التي كتبها ابن محرز على لسان مساجد القرى في الشام، ومما جاء في شكوى إحداها: «الحمد لله الذي قضى علينا بالخراب، وصير أموالنا كالسراب، وجعلَنا مَأْوَى البوم والغُراب، أحمدُه حمد من كان فقيراً ثمّ استَغْنَى، وأدْرَك بمال الوَقْف ما تَمنّى» وجاء في هذه الرسالة أيضاً «أن الخراب قد استولى على المساجد، حتى خلت من الراكع والساجد، فأصبحت مساجد الغوطة غيطان، لا سقوف لها ولا حيطان، وجوامع حوران مخازن وأفران، ومشاهد البقاع صفصفاً كالقاع»[9].

وإذا كان في كلام الوهراني شيءٌ من المزح فإن كلام صاحبنا البسطي جدٌّ في جِد، فقد أشارت كتب النوازل إلى ما حلّ بمساجد الثغور كبلش وبسطة من خراب (المعيارج 7)، وبعض أسباب هذا الخراب يرجع إلى محنة الناس يومئذ وانشغالهم بمدافعة غارات أعدائهم، ولكن بعضها الآخر يرجع فيما يقول الشاعر إلى إهمال النظار وأكلهم أموال الأحباس بالباطل.

أما بقية القصيدة فيدور حول تعليق الرجاء على المخاطب في أن يغيّر هذا المنكر وينظر في إصلاح أحوال الأحباس.

إن الشكوى من سوء الأحوال في بسطة وغيرها سمة بارزة في ديوان القيسي، وتنديده بالظلم والجور سارٍ في عموم شعره، وكان يتأذّى من عدم احترام الناس لأئمتهم وعلمائهم، ومما قاله في أهل بسطة من قصيدة (151):

مُنَاهُمْ مَدَى الأيام ذُلُّ إمامِهِمْ
وذُلُّ إمامِ القَوْمِ مِنْ أَقْبَح الأَشْيا

وقال في أهل المنكّب الذين تهاونوا بإمامهم (111):

وإن أنــاســاً بــالإمـام تَهــاوَنُـوا
لأفْضَلُ منهُمْ في اليَهُودِ وفي الرّومِ

وقال في هذا الشأن يخاطب أحَدَ أهل العلم والصّلاح ويسأله الدعاء (91):

يـا وحيـدَ الـزّمـانِ دينــاً وفَضْـلاً
وجَــلالاً وفي العُـلومِ اتّســاعــا
أيّ ذلٍّ أصــابَنــا بيــنَ قَــوْمٍ
أهملوا الـدّين عَنْ وِفاقٍ فَضـاعـا
رَعَــوُا البــاطِــلَ المـذمّمَ فينــا
وغـدا فينـا الحقّ مـا إن يُـرَاعى
دَعْوَةَ الفَضْلِ مِنْـكَ للدين نرجـو
هـا هُنـا إنّ رَكْنَــهُ قَـدْ تَــداعَى
فتفضّــلْ بِهــا عَلَى ظَهْــرِ غيبٍ
نتخِــذْهـا لِمَــا نَخـافُ دِفــاعــا
واعْتَمِــدْ وَصلَهـا صَبــاحَ مَســاءً
فَبِهـا للخُـطوبِ نَـرْجـو انقِـطاعـا

ومما أعلن فيه تذمّره من إهمال الدين وغلبة الجور والظلم وضيعة العدل والحق هذه الأبيات التي جعلها في صدر رسالة له إلى بعض أصحابه (92):

أنِّسْ وَلَـوْ بكتابٍ منـكَ مَهْمُـومـا
يَرَى ببَسْطَةَ زَيْنَ العَيْش مَـذْمُومـا
أضحى إماماً بهـا لَوْ لَـمْ يَجُـرْ زَمَنٌ
أعـادَهُ بتَـوالي الجَـوْرِ مَـأمُــومـا

عَـدا وأفـرطَ حتّى الـدينُ غَيّـرَه
فَـدالُهُ رُدّ بَعْـدَ الكَسْرِ مَضْمُـومـا
كَمْ شُمَّ فيها لطيبِ العَدْلِ مِنْ أرَجٍ
وما سوى الْجَوْرِ يُلْفى الآن مَشْمُوما
فَبـارِدُ العَيْشِ فيها اليَـوْمَ يَحْسِبُهُ
لضَيْعَـةِ الحقِّ غِسْلينـاً ويَحْمـومـا

وهكذا انقلبت الأحوال فأصبح الإمام مأموماً والدين دوناً وبدلت رائحة العدل الزكية برائحة الجور الكريهة وصار الماء العذب البارد كالغسلين أو اليحموم.

ونشير في آخر هذا الفصل إلى أن الشاعر سجل ـ فيما سجله منْ أحوال عصره وبلده ـ أزمات الجدب وانحباس المطر، وممّا قاله عند توالي قحط واتصاله متوسلاً إلى الله سبحانه بجاه نبيه أن ينزل الغيث على عباده (113):

يـا مَـنْ يُـؤَمِّـلُ لُـطْفَـهُ
عـنـدَ الـشّـدائـدِ والـكُـرَبْ
بـمـحـمّـدٍ خـيـرِ الْـوَرَى
مـا بَـيْـنَ عُـجْـمٍ أوْ عَـرَبْ
أنْـزِلْ عَـلَيْـنَـا ربّـنـا
مَـطَراً كَـأفْـوَاه الـقِـرَبْ
نَـجْـبُـرْ بـهِ مِـنْ حـالِـنـا
مـا اخْـتَـلَّ مَحْـلاً واضْـطَرَبْ
وتُـبَـلِّغُ الـنّـفْسَ الّـتـي
يَئِـسَـتْ بِـهِ أسْـنـى الأرَبْ

وقال في قطعةٍ أخرى عند شدّة قحطٍ:

يـا ربّ يا رَبِّ بـالآياتِ والسّـوَرِ
وأحْمَدَ الْمُصْطَفَى الْمُخْتَارِ مِنْ مُضَرِ
بنورِ وجهِكَ يا رَبّ الذي بَهَرَتْ
أنْـوارُه مـا بَـدا للشَّمْسِ والقَمَـرِ
بمـا بِهِ قُلْتَ لـلأشياءِ كُنْ فَـأَتَتْ
تَروقُ في أَجْمَلِ الهَيْئَاتِ والصُّوَرِ
ارْحَمْ ضَـراعَتَنَـا واقبــل وسيلتنـا
وامنُنْ علينا بِما نَرْجو من المَـطَرِ
وخُصّ من صَـوْبِه الهَتّـانِ أرْبُعَنـا
بــواكفٍ وابــلٍ جَــوْدٍ ومنْهَمِــرِ
تُحْيـي الزّرُوعَ التي بالقَحْطِ قد يَبِسَتْ
وما بِهِ جَفّ من بَقْلٍ ومن خُضَرِ

ولكنه صور أيضاً خيرات بسطة في زمن العصير وهو موسم الجني عند الأندلسيين، قال يصف باكوراً مختلف اللون (113):

وبـاكـورِ بستـانٍ دنـا وقتُ جَنْيِـهِ
فَأَضْحَى يَروقُ الطّرْفَ عندَ التوسُّمِ
لَـهُ مَطْعَمٌ كـالشّهْدِ عِنْـدَ مَـذاقِـهِ
ورائحـةٌ كـالمِسْـكِ عِنْـدَ التنسُّمِ
وكـالمِسْكِ والكـافـورِ أو كَـزُمُـرّدٍ
وكـالتّين مِنْهُ اللونُ عنْـدَ التقسُّمِ
غَدا الغُصْنُ مِنْ أنواعِهِ الغُرِّ مُثْمِراً
بأحْقان شهدٍ شيـبَ فيها بسِمْسِمِ

إذا بكّـرَ الجـاني يُؤَمـل جَنْيَـهُ
تُـلاقيـه إعجـابـاً بِـهِ ذا تَبَسُّمِ

وقد تقدّمت نماذج من وصفه لفواكه بساتين بسطة وفلاحة السقي فيها.

كما نشير أيضاً إلى شعره الذي أنشأه ليكتب على بعض الأدوات الحضرية كأقداح الفخار الذي اشتهرت بصناعته مملكة غرناطة والمراوح الأندلسية وخزائن الكتب والأقواس والتروس ومُعَدّ الدراهم، ومرشم الخبز، وكذلك شعره في حمامات بسطة ومساجدها ومتنزهاتها. وإشارته إلى ركب الحجاج الأندلسيين، وما يصحبونه للإهداء عند عودتهم.

ومن شأن هذا كلّه أن يؤلف مادّة نافعة في معرفة هذه الحقبة التي ضاعت مصادرها العربية، والقليل المعروف عنها مـأخوذ من الحـوليات المسيحية.

الحـــواشي

(1) بدائع السلك لابن الأزرق جـ 1 ص 249.
(2) المعيار المعرب 33 :385.
(3) وثائق عربية غرناطية: 8.
(4) المعيار المعرب 3 :331.
(5) أبو المطرف أحمد بن عميرة: 132.
(6) رحلة القلصادي: 90.
(7) وثائق عربية غرناطية: 3م.
(8) المعيار المعرب 11 :127. 7 :142، 153، 165.
(9) منامات الوهراني: 63 - 64.

الفصل السادس

بين الجدّ والهزل

جمع القيسي البسطي ـ كما يبدو من خلال شعره ـ بين هزل الأدباء وتظرفهم وجد الفقهاء وتحفظهم، ولعلّ هذا ما يفسر لنا وجود المستملحات والغزليات إلى جانب الابتهالات والزهديات في ديوانه، ويفهم من شعر له أنه عرف في شبابه بالهزل ولكنه بعد بلوغه سن الرشد عدل عن مآخذ الهزل إلى طرق الجد، قال (135):

دِنْتُ بـالجِدِّ فقـالـوا: عكْسُـهُ
مـذهبٌ لي، قولَ قـومٍ مُفْتَـرينْ
قلْتُ: مـا أَقْبَـحَ عكْسَ الـجِدّ لا
سـيمـا بَـعْـدَ بُـلوغ الأَرْبَـعـيـن

ونحن نجده في ديوانه مَيّالاً إلى الإطالة في النسيب في مقدّمات قصائده المدحية والإخوانية، كما أن له قصائد ومقطعات غزلية متعددة، ومما يدل على ميله إلى الهوى وولعه بالغزل قوله من قصيدة (41):

وَرُتْبَتي في هَوى الغيدِ الْحِسان سَمَتْ
حتّى بَدَتْ لِلْوَرَى مِنْ دونها الرُّتَب
ولي بهنّ وَلـوعٌ لا خَفَـاءَ بـهِ
وكَيْفَ يَخْفَى وَلوعي والْهَوى السَّبَبُ
وَلَسْتُ أعْشَقُ إلاّ مَنْ لَهـا شِيَمٌ
مَنـالُ أَقْـرَبِهـا من دونِـهِ الشُّهُبُ

وقد أحب في شبابه واحدة تدعى فاطمة وقال فيها قصيدة أولها (41):

قُـرْبُ الأحِبّةِ بَعْـدَ البُعْدِ مُـرْتَقَبَ
ووصلُهُمْ بـانصرامِ الصـدّ مُعْتقَبُ

ومنهـا:

ومـا أُعانيـهِ من وَجْدِي بفـاطمـةٍ
أجـلِّ خَوْدٍ إليهـا الحسنُ يَنْتَسِب
فَمِقْـولي قاصِـرٌ عَنْ وَصْفِـهِ أبَـداً
وَلَوْ غَدا عاضِدي في وصفِهِ الأَدَبُ
وهْيَ التي فتَنَتْنِي مِنْ محـاسنِهـا
بغُـرّةٍ من سَناهـا يعجَبُ العَجَبُ
إذا بـدَتْ لحظةً والشّمسُ طـالعَةٌ
تكـادُ مِنْ حَسَدٍ تَخْفى وتنْحَجِبُ

وفي هذه القصيدة وصف لطيف لمشاهد توديعه لحبيبته، ويبدو أن هذا كان عند خروج الشاعر من بسطة في شبابه طلباً للعمل، ولعلّ هذه الحبيبة هي التي بعث إليها ـ وهو في الأسر ـ بقصيدة تقع في الديوان بعد القصيدة المذكورة مباشرة وأولها (42):

يا راحةَ الروح في أسْري وإطْلاقي
وسلْوَةَ النَّفْسِ في وَجْدي وإملاقي

وفي كلتا القصيدتين يدعي الوفاء، قال في آخر القصيدة الأولى:

الحبَّ أرْعى لذاكَ الحُسْنِ ما بَقِيَتْ
روحي بجسْمِيَ مالي عَنْكِ مُنْقَلَبُ

وقال في آخر الثانية:

ما هِمْتُ بَعْدكِ في هَيْفاءَ فاتنةٍ
ولا اسْتَطَبْتُ شَراباً مِنْ يَدَيْ ساقِ

ولكننا نجده ـ وهو في الأسر ـ يتغزّل في فتاة نصرانية تُدعى ألبيرة (12):

وأعجب عبّادِ الصّليبِ صَبِيةً
سبتني بوجهٍ مثلِ بدرٍ مُتَمِّمِ
فبتُّ حليفَ الهَمِّ مِنْ فَرْطِ حُبِّها
وباتَتْ بهجري في فراشِ تنعُّمِ
وكَمْ نَعّمتْنِي مِنْ لَذيذٍ وصالِها
بما لَمْ تصلْ نَفْسي له بتوَهُّم
فقَبلْتُ منها الخَدَّ وهْوَ مورّدٌ
وثَنّيتُ بالثّغْرِ المليحِ التبسُّم
ومالَتْ لَفَرْط السّكْرِ وهْيَ مريضَةٌ
كَمَيْلِ الصّبا صُبْحاً بغُصْنٍ مُنَعّم
ولولا عَفافي واتّقاءُ عتابِها
تمتّعْتُ منْها بالمحلّ المحَرّم

ويقول فيها ـ على ما يبدو ـ من قصيدة أخرى (130 - 131):

غَـزالٌ مـن ظبـاء الـرّوم غِـرٌّ
كَحيـلُ الجَفْنِ ذو وَجْـهٍ مَليـحِ
إذا رامَ الـكَـلامَ فَـأَعْـجَـمـيٌّ
ويهْـزَأُ للمَـلاَحَـةِ بـالْفَصيـح

ولشاعرنا قصيدة مهّد لها بقوله: «وقلت في غرض التغزّل والله يعفو ويغفر» وأولها (103):

بِـدَمي مُنَعَّمَـةٌ كعـابٌ ذاتُ دَلْ
هيفاءُ تُزْرِي بالقَضِيبِ إذا اعتدَلْ

وفيها خلع العذار وخالف العفاف، ولا نعرف هل ما قصّه فيها من قبيل الحقيقة أم أنه من نسيج الخيال.

ولَهُ غزلٌ مذكر، ولكنه ليس كالنمط النواسي فهو يخلو من هجر القول ولا ينحو نحو المنكر، وقد ولع بالتغزّل في صديقه وقرينه أحمد بن الحسن المالقي الذي ذكرناه فيما سبق، فمما قاله فيه وقد حلق رأسه (34):

قَصِّـر الشَّعْـرَ سَيِّـدي أَوْ أَطِـلْهُ
فَـمُحَيّـاكَ لَمْ يَـزَلْ لـيَ أُنْسـا
فـإذ مـا أَطَـلْتَـهُ لحـتَ بَـدْراً
وإذا مـا قصّـرْتَـهُ لُحْتَ شَمْسَـا

وقد حذا في هذا حذو الرّمادي الذي يقول:

حـلقـوا رأسَـهُ ليـزدادَ قُـبْحـا
حـذراً مـنهـمُ عليـهِ وشُـحّـا
كـانَ قَبْلَ الحـلاقِ صُبْحـاً وَلَيْـلاً
فَـمَحَـوْا لـيلَهُ وأبْـقَـوْهُ صُبحا[1]

ومن هذا النوع قوله فيمن اسمه أحمد بن فرج[2] (43):

خبِّروني واصْدُقوني في الحُجَجْ
إنّني صَبٌّ مشوقٌ مُذْ حِجَجْ
ظَبْيُ إنْسٍ أحمدٌ أمْ مَلَكٌ
مِنْ جِنانِ الخُلْدِ للدنْيا خَرَجْ
بيّنوا نِسْبَتَهُ لي مِنْهُمَا
واتركوا نسبتَهُ لابنِ فَرَجْ
حسنهُ الفتّانُ من يعشَقُه
ليسَ في العِشْقِ عليهِ من حَرَجْ
زَعَمُوا في بسطةٍ مسكَنُهُ
صدقوا واللّهِ لكنْ بالمُهَجْ

ولا ندري في أي الأحمدَيْن السابقَيْن يقول (114):

إنْ يكُنْ أحمدٌ بوصْلٍ بخيلاً
وغَدا ما لصَدِّهِ من تَناهِ
فَلَكَمْ جادَ لي لَدَى النّومِ طَوْعاً
بعِناقٍ وبارتشافِ شِفاهِ

ويقول (114):

صَدَّ في اليقْظَة عَنّي أحْمدٌ
وغَدا في النّومِ وَصْلاً يَبْذُلُ
عَجَباً في النّومِ ما أجْوَدَهُ
وَهْوَ في الْيَقْظَةِ ممّنْ يَبْخَلُ

وإذا كنّا نعتبر هذا ومثله مما قاله في أيام الشباب فإننا نجد في ديوانه غزلاً قاله وهو يتولّى الإمامة والخَطابة كقوله في غلام يدعى سعدون (107):

يـا حُسْنَ سعـدونٍ يُشيـرُ بشَمْعـةٍ
والليـلُ قَـدْ مَـدَّ الـظّلامَ رِوَاقـا
وَلِنـورِهـا مِنْ نـورِ وَجْنتِـهِ سَنـاً
لَـمعـانُـهُ قَـدْ طبّـقَ الآفـاقـا
فَكَـأنّ مِنْهـا المُشْتَـرِي في كفِّـهِ
وكـأنّـهُ بَـدرُ الـدّجى إشْـرَاقـا
عَكَفَتْ عليـه العينُ تنـظُرُ حُسْنَـهُ
فَبِحُسْنِـهِ قـد قَيّـدَ الأَحْـدَاقـا
لَـوْلاَ الحيـاءُ وأَنّني لـخَـطابَـةٍ
أرعى العهـود وأحْفَظُ الميثـاقـا
لقَضَيْتُ حقّ النّفْس مِنْ تـقبـيلِهِ
وأَبَحْتُـهـا ضمّـاً لـه وعِنـاقـا

كما نجد له أربع قطع في التغزّل بذوي العِذار (144 - 145) وهو موضوع شغل به شعـراء ذلك العصـر في المشرق والمغـرب وألف فيه بعضهم[3].

وقد ظل الشاعر الفقيه ـ برغم وظائفه الدينية وبلوغه سن الخمسين ـ يهيم أحياناً في أودية الهوى وينزع إلى القول في معاني اللغو واللهو، وها هو يلوم نفسه على ذلك فيقول من قصيدة (149):

إلَى كَمْ تميلُ النفسُ بي لِلْهَوَى العُذْرِي
وشَيْبُ عِذاري مُبْطِلٌ في الهَوَى عُذْري
وتَجْرِي إلَيه، بَعْدَما ذَهَب الصِّبـا
وأَيّامُه عَنّي، عَلَى المَسْلَكِ الْوَعْرِ
وتَـرْضَى بِهِ وَصْفـاً ذَميماً يَشينُهـا
وتَهْتِكُ في اشْتِهَارِها مُسْبَلَ السِّتْرِ

وَمَهْمَا صَرَفْتُ الوَجْهَ يَوْماً لِعَتْبِها
تَزيدُ كـأنّي باتّبـاعِ الهَوَى أُغْـرِي
وَتَـأْنَسُ بالغيـدِ الأوانِس كالـدُّمى
مَتَى ما بدَتْ منهُنّ عاطِرةُ النَّشْـرِ
وَتَزْعُمُ أن اللّهْوَ وَصْفٌ لِذي الْهَوَى
لِسِرٍّ خفِي الأمْرِ مِنْ أعْجَبِ السِّرِّ
وتنْـدُبُني لِلَّهـوِ عَمْـداً وللْهَـوَى
وَقَدْ عَلِمَتْ ما فيهما بانَ مِنْ ضُرِّ
ومَهْمَـا دَعَتْني كَيْ أميـلَ إليهمـا
أُجاوِبُها بالْقَوْلِ في مَعْرِضِ الزّجْرِ
أيَلْهو آمرؤٌ مِثْلي صِباهُ قَد انْقَضَى
بخَمْسِينَ عاماً قَدْ تولت مِن العُمْرِ

ثم انتقل بعد هذا إلى سرد زواجر وعظية في التذكير بالموت وما بعده.

وتناول هذا الموضوع أيضاً في مطلع قصيدة أخرى إذ يقول (140):

إلَى كَمْ إلَهِي بـالْمَتَـابِ أُعـاهِـدُ
ونَفْسِي عَلَيْـهِ كُـلَّ وَقْتٍ أُجـاهِـدُ
وَعَهْدِي مَدَى الأيّام لَسْتُ بِهِ أَفِي
وَنَفْسِي عَلَى عـادَاتِهَا لاَ تُسـاعِـدُ
وَأَكْثَرُ عمري في البِطالةِ قَدْ مَضَى
وليسَ لمـاضي العُمْرِ واللّهِ عـائِدُ
وقَـدْ ذَهَبَتْ مِنّي القُوَى وتغيّـرت
وَهَـلْ قُـوَّةٌ بَعْـدَ الـذّهـاب تُعـاوِدُ

وَشَـابَ عِذاري واسْتحـالَ سَـوادُهُ
وبالْمَوْتِ لا شـكّ المشيبُ يعاوَد
فَهَلْ تَوْبَةٌ تمحو من الذنْبِ ما بِهِ
عَلَيّ ولَا أُخْفِي إلاهِـيَ شـاهِـدُ
أبيتُ لِمـا قَدْ جئتُـهُ مِنْـهُ خـائفـاً
وإنّي لِخَوْفِي ساهِرُ الطَّرْفِ ساهِدُ

وأحسب أن الشعر الذي قاله في الزهد والابتهال صدر عنه في كبره، ومن ذلك قصيدته الّتي أولها (95):

حتّى مَتى وإلَى متـى يـا سـاه
تُلْـفى كَـثيـرَ النّـوم، قُـمْ لِـلَّهِ

وقصيدته التي أولها:

أَفِقْ لِمَشيبٍ بَـرْقُهُ يُكْثِـرُ الْوَمْضـا
وَبِتْ بفُؤادٍ حَـرُّه دونَـهُ الـرَّمْضَـا

وقطعته التي يقـول فيهـا (106):

تَـنَبَّـهْ مِـنْ نُعـاسِـكَ لا تُـطِلْهُ
فَقَـدْ أفْرَطْتَ في طـولِ النّعاسِ
فَمَـوْتُـكَ يـا أخي والبَعْثُ حَقٌّ
وأنْتَ الـدَّهْـرَ لـلأمـرَيْنِ نـاسِ
فحـاذِرْ مِنْهُمَـا مـا عِشْتَ واهْجُـرْ
نَعيمَـكَ بـالْمَـطَاعِمِ واللّبـاسِ
وبَعْـدَهُمَـا مـحـاسَبَـةٌ وهَـوْلٌ
يَشيبُ لَـهُ الصّغيـرِ من الأُنـاس

ويـنْقَـسِمُ الـخـلائقُ بـعْـدُ إمّـا
لِـنُعْـمَى لَا تُـفـارِقُ أو لِـبـاسِ
فَـمَنْ أَضْـحَى وهـذا مُـنْـتَـهَـاهُ
فَحَقٌّ أنْ يُشَـاهَـدَ ذَا احْتِـراسِ

والظاهر أن الشاعر أنشأ مِثْلَ هذا الشّعر ليذكر بِهِ المذكرون قبيل أذان الفجر.

ومما يلحق بهذا الضرب من شعره قصيدتان في مدح الجناب النبوي قالهما عندما كان أسيراً وفيهما سرد لسيرة النبي عليه السلام وتعداد لمعجزاته وتشفع بجاهه، وقد وردتا في صدر الديوان.

ومن ملامح شخصية شاعرنا البارزة حدّة الطبع والخلق، ويبدو أن هذه الحدة كانت من أسباب متاعبه التي شرحناها فيما سبق، وقد اتهمه بعض خصومه بالنزوع إلى الشر والخصام ونعته بأنه شيطان فقال يرد عليه (77):

زعمتَ وقَدْ أخطأْتَ فيما زعمتَهُ
بـأنّي شيـطانٌ ولستُ بشيـطانِ
ولكنّمـا الشيـطانُ أنتَ حقيقـةً
لِخُبْثِـكَ إذ ترمي سـواكَ بنُقْصانِ
وفيكَ صفاتٌ في الشياطينِ أُلْفِيَتْ
أَشـاعَ بِهـا إقْـرَارَه كـلُّ أنسـانِ
وفي الحَوَلِ البادي بعينكَ شاهِدٌ
يبيّنُ صِـدْقي اليومَ أوضـحَ تبيـانِ

ووصفه بعض أولي الأمر بأنه «داهية دهياء».

وقد خاطبه بعضهم بدون تسويد فقال فيه (77):

مـالي رأيتـكَ للتّسـويـدِ مُتّـركـاً
إذا دعوتَ صديقاً يا أبا الحسَنِ(4)
أكِبْراً آمْ جهلاً آم سُخْفـاً رأى بَصَـرِي
مـمّـا أتَيْـتَ بـهِ أَمْ كُنْـتَ ذا وسَنِ

وشبيه بهذا قوله في آخر مد رجله في مجلس عام كبراً أو جهلاً (139):

أي امـرىءٍ مدّ الـرّجلَ في مـلأٍ
مِنْ غيـرِ عـذرٍ فصفعـةٌ أدَبُـهْ
يـطولُ منْهـا لعـظْمِ مـوقعِهـا
من نفْسِـه طـولَ عمـره عجَبُـهْ

وفي ديوانه مداعبات تدلّ على خِفّة روحه.

وقد أوردنا فيما سبق أمثلةً من تندّره ببعض خصومه ومن أساء إليه، وهذا مثال آخر مما لم نذكره وفيه تورية (13):

أتى عابدُ الرحمن من حُسْنِ ودّه
بنَفْحـةِ وردٍ في حـدائقِ آسِ
فلمّـا أتى بـالعكس حققتُ أنّـه
لقبْـحِ الذي أبـدى لعيني فاسي

ولم يستثن من تندّره بعض نساء وقته لأسباب شخصية أو غيرها كقوله في التورية بإحداهن (109):

عجـوزٌ لهـا حسبٌ حِـرْصُـهـا
عـلى طَلَبِ الـشـرِّ مـا أكـثـرَهُ
إذا مـا تـعـاتـبُ فـي فـعـلِهـا
تـقـولُ اعتـذاراً أنـا مُـجْـبَـرَهْ

وقوله في أخرى تدعى قسطلّة عرفها لما كان في برجة (121):

يـا غيثُ عاهِـدْ دائماً مِنْ بـرجةٍ
تلكَ الـرّبـوعَ حَـزْنَهـا وسَهْلَهـا
ولا تخصَّ عِنْـدَمَـا تَهْمِي بِهـا
بـقَـطْرَةٍ قَـسْـطلّة وأهـلهـا

وقوله في التعريض بأمرأة لقبها قيراطه وفيه تورية (115):

الغِشُّ عيبٌ وهـو في صـرفِنـا
قَـدْ أحكمَ التضـييـعُ إفـراطَـهْ
فـصـرْفُنـا درهَـمُـه لَـمْ يُـعَـبْ
مـن ذمّـهُ أو ذمّ قـيـراطَـهْ

ونختم هذه الفقرة بإيراد قصيدة أجاب بها بعض أصحابه من الشعراء كان يشتكي من زوجه العجوز(101-102):

لنظمِكَ في النفوسِ من الجزالَهْ
محـلٌّ دونَـهُ مَـرْقى الـغـزالَـهْ
لـذاكَ أهيمُ منـهُ بكـلِّ نـوعٍ
غـريبٍ في اختضـارٍ أو إطـالَـهْ
وحيّـا اللّهُ منـهُ بـديـعَ حسنٍ
سقـانـي لـلسّـرورِ بـهِ زُلَالَـهْ
شَكَـوْتَ بِـهِ عجـوزاً أنتَ منهـا
بحـالٍ تـرتجي لهـا الاستحـالَـهْ
وجئتَ لَهـا بـأوصـافٍ قـبـاحٍ
تنـاسبُ خُلْقَهـا منهـا الـرذالَـهْ

فَلَمْ تتـركْ بمـا أبـديتَ منهـا
مـداعبةً لِـذي قـولٍ مَقـالَـهْ
ومـا أغـفلتَـهُ مـن غـيـر ذكـرٍ
فعَنْ علمٍ بِـهِ لا عَنْ جهـالَـهْ
فـطلِّقْهـا طـلاقَ فتـىً كـريمٍ
فَهـا هِيَ أكثَـرَتْ ـ زعمـوا ـ سؤالَـهْ
فـإنّ طـلاقَـهـا رأيٌ رشيدٌ
تحقّـقُ رشـدَه تلكَ الـجَـلاَلَـهْ
فـبـادرْ نـحـوَه واسْـرِعْ فـإنّـي
بِـهِ أرْجـو لعَثْـرتـك الإقـالَـهْ
فعِصمتُهـا لـذاكَ المَجْـدِ قَيـدٌ
وإنّي بـالطّلاقِ أرَى انحـلالَـهْ
وَلاَ تُـطل التـأيّمَ بعـدُ وانْكَـحْ
فتـاةً تسلُبُ الغـصنَ اعـتـدالَـهْ
مُـنَعَّـمـةً يبـيت الـصّبُّ مـنـهـا
بمـا يلقـاهُ شـاكيـاً اعتـلالَـهُ
لَهـا وجهٌ غـريبُ الحُسْنِ أضْحى
محيّـا البَـدْرِ يحسُـدُه كمـالَـهْ
وجـفنٌ غـنـجُـهُ سـهـمٌ إذا مـا
رمَتْ كبـداً به انقـطع [. . . .]
وخـدٌّ وردُه غضٌّ نـضـيـرٌ
على طـولِ الـزمـانِ أبَتْ زوالَـهْ
ومُـبْـتَـسَـمٌ جـواهـرُهُ حَـبـابٌ
لخَمْـرِ الـريقِ بـادية سِجـالَـهْ

وجيـدٌ دونَـهُ في الجيـدِ حسنٌ
تَـرَاهُ لِـلْغـزالِ أو الـغَـزالَـهْ
ونـهـدٌ ضمَّـهُ يـشفـي المُـعَنّى
ويُـنْعِـمُ منـهُ خـاطـرَهُ وَبَـالَـهْ
وخَصْـرٌ دونَـه الفنـك اليمـاني
لـرقّتـه إذا مـا اللمسُ نـالَـهْ
تُحِبُّـكَ مـالَهـا أَحْبَبْتَ يـومـاً
وتُبْـدِي للجفـا منـك احتِمـالَـهْ
وتـرْعَى مـا حييتَ ولا تُبـالي
عهـودَك كلّهـا في كـلّ حـالَـهْ
وتحفظُ جهـدَهـا إنْ غِبْتَ عنهـا
محـلّ عُلاكَ حفظَ ذوي الأصـالَهْ

ومن شعره الذي يُسْلك في هذا الباب قصيدته في رثاء خروف العيد، وهو موضوع شغلَ عَدَداً من النظامين والزجّالين.

الحـــواشي

(1) جذوة المقتبس: 374.

(2) لعلّه أخو الذي وردت ترجمته في الضوء اللامع 6 :6: «علي بن محمد بن فرج السبتي الوادي آشي المالكي والد أبي القاسم القادم علينا والآتي. مات بقلعة المرية من الأندلس 892هـ عن بضع وخمسين سنة وكان فاضلاً، ولي قضاء واي آش ثم خطابتها وتدريسها والنظر على الجامع بها».

(3) ألف في ذلك الصفدي: خلع العذار، في مدح العذار، والمنهاجي: بسط الإعذار وغيرهما.

(4) قد يكون المراد به أبا الحسن علي بن العز أو ابن عزيز أو أبـا الحسن علي اللخمي القرباقي وهما بسطيان معاصران للشاعر. انظر رحلة القلصادي: 83، 87، وثبت الوادي آشي: 204، 126.

خاتمة

قيمة ديوانه

لهذا الديوان الفريد قيمتان: إحداهما وثائقية تاريخية، وقد أفادتنا كما رأينا في معرفة شخصية صاحبه ومعرفة عصره، والقيمة الثانية أدبية فنّية وهي تقدّمُ لنا صورة من المستوى العام الذي آلَتْ إليه البلاغة الأندلسية قبيل سقوطِ غرناطة.

ونريد في خاتمة قراءتنا وعرضنا لديوان القيسي أن نتناول هذه القيمة الثانية في شيء من الإيجاز، وأول ما نبدأ به تقويم صاحب الديوان نفسه لشعره فقد اعترف ـ في تواضع ظاهر ـ أن شعره منحطٌّ عن الدرجة المتوسطة وأباح لأهل العلم بالشعر والنقد أن يصلحوا ما يرون أنه في حاجةٍ إلى الإصلاح.

وحينما أشار عليه الرئيس أبو يحيى ابن عاصم ببعث شعره إليه ليضمّنه كتابه في أدباء عصره الموسوم بالروض الأريض استجاب للإشارة ووافاه بجملة منه «ما بين وحشي ومخشلب» بعد أن تردد في إرساله خجلاً وتواضعاً:

وقلْتُ حاشاهُ حاشاهُ يَشينُ بهِ
ديوانَ عِلْمٍ أتَى مِنْ أعْجَب العَجَبِ

ومع اعترافه بانحطاط شعره عن درجة الإجادة فقد كانت نفسُه بهِ على كل حال مغتبطة وعنه رَاضية وله مردودة كما يقول في مقدمة الديوان، ويقول في إحدى قصائده: (145):

على أن نَظْمي إنْ يَكُنْ عُدَّ هَلْهَلاً
فَمَا مِثْلُهُ في نوعِهِ لمُهَلْهِلِ

ويقول في قصيدة أخرى:

فليس نظام الشعر من شيمي التي
أجاري بها في النظم من يحسن الطردا

وهو يخبرنا أنه بدأ بقول الشعر في أيام الشباب بعد أن فرغ من دراسة العروض قال: «فعانيت الوصول إلى قريضه بعروضه، معاناة الطبيب الماهر علة مريضه، فانقادَ إلى ما عانيتُه من ذلك طبعي، وأخذ إفراط ميل النفس إليه بضبعي، فنظمت إذ ذاك منه أبياتاً في غير ما غرض، أديت بها من حقوق النفس كلّ مفترض».

وإذن فقد واتاه في نظم القريض طبع مسعف وتيسرت له أدوات النظم من عروض وعربية وبلاغة، ولا بدّ أنه درسها على شيوخه في بسطة الذين لم يسم منهم إلّا أبا عبد الله البياني، وقد يكون منهم واسطة عقد فقهاء بسطة أبو الحسن اللخمي الذي كان يدرس بها علوم اللغة والآداب ومما كان يقرئه كتاب الفصيح لثعلب وكتاب أدب الكاتب لابن قتيبة بالإضافة إلى شرحه على الخزرجية المسمى بالتبصرة الكافية في علمي العروض والقافية، وقد أشار في شعره إلى مصدرين من مصادر تكوينه اللغوي والأدبي وهما صحاح العربية للجوهري وديوان الصيب والجهام لابن الخطيب. وإذا كانت قاعدته الأدبية أوسع من هذا فإن الشعر الأندلسي كان

النموذج الأقرب إليه ولا سيما شعر ابن الخطيب الذي غدا آخر رمز للبلاغة الأندلسية؛ وقد وجدنا شاعرنا ينحو منحاه في نظم البيتين أو الأبيات التي يُراد بها التعريض ويُتوسل فيها بالتجنيس والتورية ويلتزم في بعضها ما لا يلزم، وهو يورّي بأسماء الكتب ومصطلحات العلوم وغير ذلك، وقد رأينا بعض تورياته فيما سبق، وهذه أمثلة أخرى، ومنها أيضاً قوله (75):

ولمّا اتَّبعتُ الحقّ في حفظِ وُدّكمْ
وقد قَطَعتْ بالحافظينَ قَواطِعُ
قَطَعْتُمْ أنيسَ الكتبِ عنّي تَعَمُّداً
ولا عجبٌ قد يلزَمُ القطعَ تابِعُ

وقوله (، ـ91):

أعيْنَ المَجْدِ إنْ نِلْتَ اعْتِلالاً
نَشَقْتَ بإثْرِهِ لِلْبُرْءِ نَفْحَهْ
فإنّ العَيْنَ في التصْريفِ نالَتْ
كما تَدْريهِ إعْلالاً وصِحّهْ

وتبدو المسحة الأندلسية على هذا الديوان فيما تضمّنه من أمثالٍ كانت سائرة بين أهل الأندلس كقوله (78):

يا أيُّها القائمُ في حُكْمِهِ
بالقِسْطِ لا يحذَرُ مِنْ طَعْنِ
إنّ الذي أشكو له شوكةٌ
«والشَّوْكُ لا يَخْرُجُ بِالقُطْنِ»

وقوله:

وقد جاء في مثل سائرِ
«طَعامُ الأَحِبّةِ ما قَدْ حَضَرْ»

وقـولـه:

وأرى الّذي وَلِيَ الْقَضَاءَ بمِصْركم
قَدْ صَارَ يَطْمَعُ بـالقَضَاءِ وَيَجْمَـعُ
والحَنْشُ محكـومٌ عليـهِ بـأنّـهُ
لِسِـواهُ مبـتـلعٌ إذا مـا يَـلْمَـعُ

وتبدو كذلك فيما اشتمل عليه من ألفاظ أندلسية منها البراني أي الأجنبي الغريب، والمخزني أي عون المحكمة نسبة إلى المخزن أي الحكومة في الاصطلاح المغربي، والظهير وهو الصك الملكي، والترائك أي التركات، والحوانيت جمع حانوت وهو الدكان والفندوق بـالواو أي الفندق والخان في لهجة عامة الأندلس ومعد الدراهم لما تضرب به السكة، ومرشم الخبز لما يرشم به الخبز حتى لا يختلط بخبز الغير.

والطابع الغالب على شعر القيسي أنه شعر فقيه يباشر قراءة كتب الفقه ويتمرس بأساليبها فيظهر أثرها في شعره، ومن الكتب التي نعرف أنه درسها أو انتسخها كتب البيان والتحصيل وهو موسوعة في الفقه المالكي لابن رشد الجد وكتاب الشامل لبهرام في الفقه المـالكي أيضاً وكتـاب وثائق ابن سلمون ورسالة ابن أبي زيد القيرواني، ومن هنا لم يخلُ شعره من ركاكة في العبارة وضعفٍ في الأسلوب وارتكاب للضرورات، وقد وجـدنا ابن الخطيب يقول في صنف الشعراء المشتغلين بالخطابة والتدريس والإقراء من أهل المئة الثامنة في الأندلس إنهم ليسوا بمظنة إجادة في الشعر وأنهم أولى بدرجة الانحطاط وهذا حكم ينسحب بالأحْرَى على الصنف نفسه من أهل المئة التاسعة في الأندلس.

ومهما يكن الأمر فإن قيمة شعـر القيسي تكمن في مضمونـه قبل شكله، وإن قارئه ليؤخذ بصدقه وصراحتـه وعفويتـه وسَذاجتـه وبساطتـه وسهولته والتزام صاحبه وغيرته ويزداد اعتبارنا لهذا الديوان إذا عرفنا أنه خاتمة دواوين الشعر الأندلسي.

لقد كان في عصر شاعرنا شعراء كثيرون مثل ابن عاصم أبي يحيى والشّرّان وابن الأزرق الوادي آشي وابن الحداد الوادي آشي والشريف العقيلي وابن الجبير اليحصبي وعمر الزّجال وغيرهم من أصحاب القريض الذين اشتمل عليهم كتاب الروض الأريض لابن عاصم المفقود ولكن أشعار هؤلاء الشعراء مفقودة بينما وصلت إلينا أشعار البسطي ولهذا اعتبرناه آخر شعراء الأندلس.

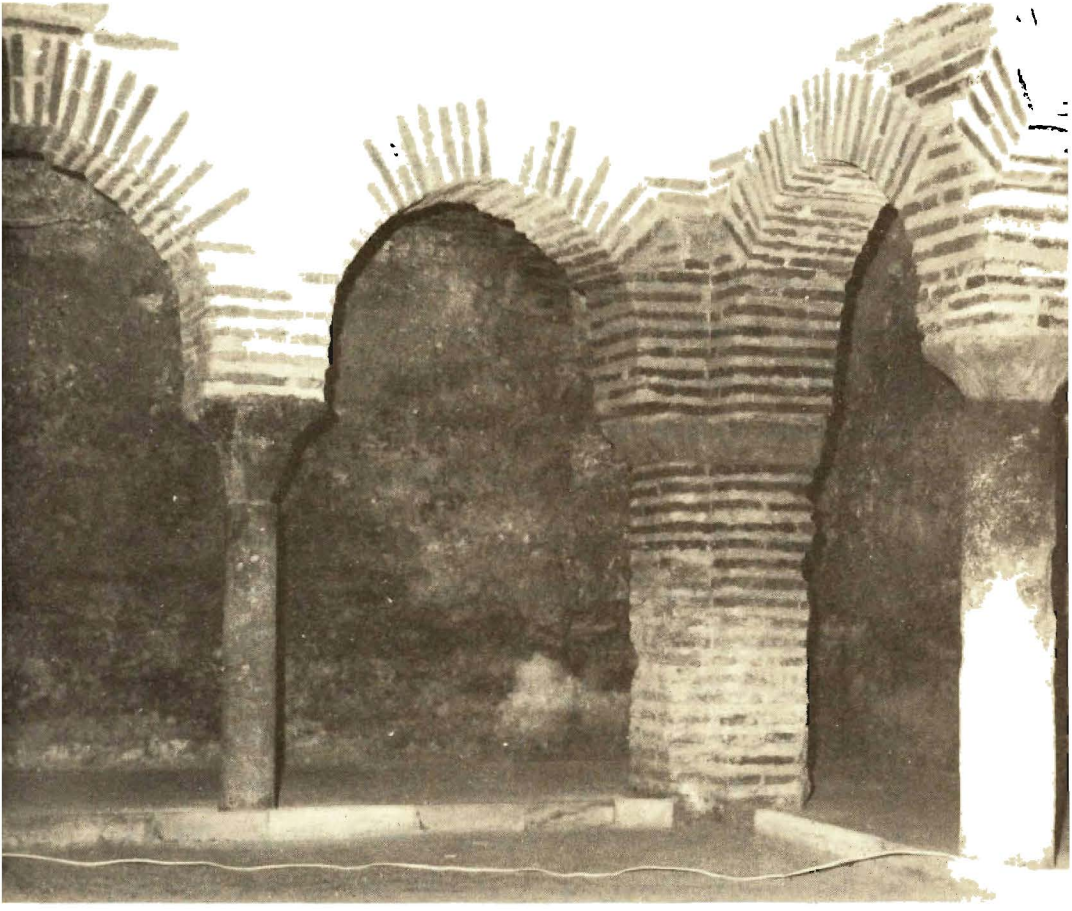

بقايا حمّام في بسطة لعلّه الذي عناه شاعرنا البسطي في قوله (149):

حَمّامُ بسْطةَ في اعتدالِ هوائِهِ ما مثلُهُ في بَلْدةٍ حَمّامُ
ماءٌ ونارٌ عنْهُما اعتدلَ الهَوَا فتنعّمَتْ بدُخولِه الأجسامُ

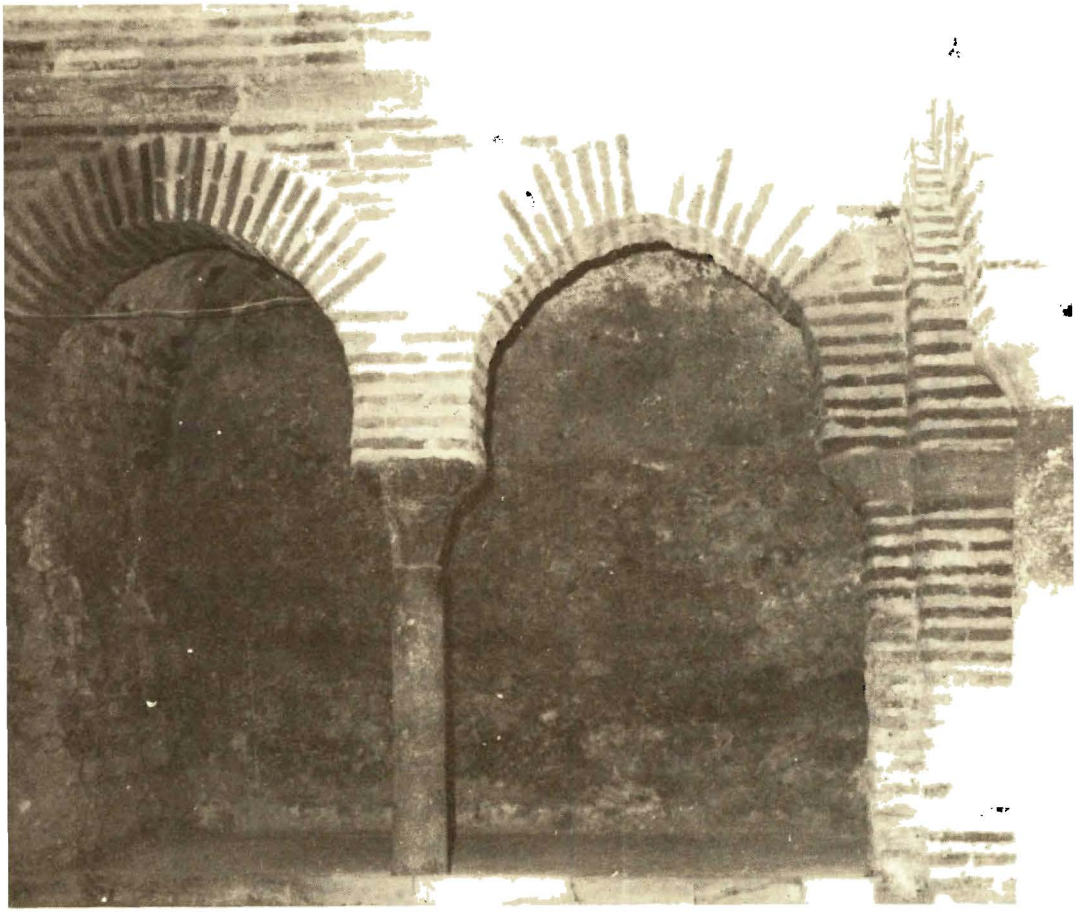

صورة أخرى لبقايا حمّام بسطة، ولعلّه الذي يقول فيه مستدعياً أحد أصدقائه إلى مصاحبته إليه:

يا مُخْجلاً نورَ الصَباحِ بوجْهِهِ والبَدْرَ والأزهارَ في الأكْمامِ
إنّي عزمتُ على التحمّمِ في غدٍ فعسى تُصاحِبُني إلى الحمّامِ

ديوان البسطي: 82

فهرس الأعلام

(أ)

أبذة: 28، 31، 32، 36، 37، 100.

إبراهيم ابن رقية: 196.

إبراهيم ابن عبد البر: 16، 97، 98، 99، 100، 171.

إبراهيم (ابن عم البسطي): 46.

ابن أبي البقاء الرندي: 149، 150.

ابن أبي الخصال: 137.

ابن أبي الربيع (أبو فارس الغرناطي): 120.

ابن الأحول الضبي: 152، 189، 190، 191، 192، 193، 194.

ابن الأزرق الأصبحي: 23، 42، 123، 128، 129، 130، 148، 185.

ابن الأزرق الوادي آشي: 16، 21، 23، 100، 123، 124، 125، 126، 127، 128، 130.

ابن أملّال: 76، 77.

ابن الأمين الشيطني: 153.

ابن باق: 156.

ابن جبّير: 156.

ابن الجبّير اليحصبي: 233.

ابن جماعة الغرناطي: 132.

ابن جماعة المصري: 163.

ابن الحسن النباهي أحمد: 16، 102، 103، 104، 218.

ابن الحسن النباهي (أبو حامد): 16، 39، 53، 65، 69، 102، 107، 108، 109، 186، 195.

ابن خاتمة: 16.

ابن الخطيب السلماني: 104، 107، 114، 124، 140، 170، 231.

ابن حبيب (المالكي): 190.

ابن الحداد الوادي آشي: 233.

ابن خلدون (عبد الرحمن): 120.

ابن رجاء (أبو عبدالله): 22، 110.

ابن رشد الجد: 192.

ابن سراج (قاضي غرناطة): 190.

ابن سراج (أبو القاسم): 72.

ابن سلمون: 80.

ابن سهل (صاحب النوازل): 186.

ابن شفيع البسطي: 17.

ابن عاصم (أسرة): 16.

ابن عاصم (أبو بكر محمد): 100، 155.

ابن عاصم (أبو يحيى الوزير): 16، 23، 57،

128، 136، 165، 182، 186، 229، 230.
ابن عبد البر (قاصي غرناطة): 42.
ابن عجيب البسطي: 198.
ابن العز (علي بن عتيق): 16، 149.
ابن عزيز (قائد بسطة): 171.
ابن عزيز (أبو القاسم أخو السابق): 171.
ابن عسكر المالقي: 106.
ابن عطية (المفسّر): 23.
ابن عمار (الشاعر): 137.
ابن غادر: 192، 193.
ابن القاسم (المالكي): 23، 195.
ابن قتيبة: 230.
ابن القفال (حسين): 154.
ابن القفال (أبو علي حسن): 154.
ابن قلاقس: 129.
ابن لب (الفقيه الغرناطي): 206.
ابن لبوة البسطي: 151، 152.
ابن الماجشون: 190.
ابن محرز الوهراني: 208.
ابن مرزوق الحفيد: 159.
ابن مرزوق الكفيف: 159.
ابن مفضل البسطي: 152، 189، 194، 195، 197.
ابن مقلة: 156.
ابن منظور (أسرة): 16.
ابن منظور (أبو عمرو): 16، 73، 74، 133، 134، 135، 136، 137، 138، 139، 141، 186، 205، 206.
أبو البركات البلفيقي: 114.
أبو حامد الغزالي: 109.
أبو الحسن (ابن العز أو القرماقي): 224، 228.
أبو الحسن الرندي: 153.
أبو الحسن النباهي: 104، 106.
أبو الحسن (السلطان النصري): 107، 147.
أبوالحسين الشريف (شيخ الغزاة): 115، 117، 118.
أبوالرضى (ابن دعمون): 156، 157.
أبو محمد الإشبيلي: 161.
إحسان عباس: 49، 163، 184.
أحمد بابا السوداني: 148.
أحمد الحكيم: 194.
أحمد دراج: 10، 184.
أحمد ابن رقية: 196.
أحمد ابن فرج: 218.
أحمد ابن القاضي: 152، 153.
أحمد (ولد الشاعر البسطي): 45.
أحمد ابن القصار: 16، 68، 147، 148.
الإدريسي (الجغرافي): 17.
أدب الكاتب: 230.
أرك: 171.
أركش: 171.
أرشدونة: 166، 167، 173، 175.
أزهار الرياض: 9، 100.
الأزيرق (محمد بن عبدالله الوادي آشي): 131.
اعتماد الرميكية: 161.
الأغرشي (أو الأحرشي): 63، 93.
الإكليل للنباهي: 10.
البيرة (اسم امرأة): 37، 217.
ألفية ابن مالك: 22.

الأمثال العامية لابن القفال: 155.
الأندلس: 9، 26، 27، 80، 95، 120، 122، 134، 136، 166، 172، 176، 177، 179.
الأهواني عبد العزيز: 10.
ايزابلا (الملكة الكاثوليكية): 43.
إيضاح الفارسي: 23.

(ب)

باب إلبيرة (غرناطة): 134.
باب الفرج (بسطة): 126.
بدائع السلك: 123، 130، 185.
برجة: 25، 26، 51، 75، 95.
برشانة: 92، 153، 200.
برنامج المجاري: 10، 160.
برنامج المنتوري: 16، 160.
البستاني الفريد: 9.
البشرّات: 25، 49، 75.
البقاع: 208.
البكري: 17.
بلش الشقراء: 171.
بلش البيضاء: 171.
بلش: 166، 175، 208.
بنو أيـوب البرشانيون: 153، 154.
بنو أشقيلولة: 122.
بهرام: 12، 49، 68.
البورشنيس (وقعة): 99، 171.
البيان والتبيين: 126.
البيان والتحصيل: 11، 13، 232.
البيازين: 141، 142.
البياني (أبو عبدالله): 27، 28، 36، 38، 55، 63، 96، 230.
بسطة: 11، 13، 15، 16، 17، 18، 19، 20، 21، 24، 25، 28، 38، 40، 42، 43، 44، 52، 53، 54، 56، 62، 63، 69، 70، 71، 72، 73، 74، 82، 83، 84، 85، 86، 91، 95، 97، 100، 101، 102، 108، 109، 110، 111، 112، 113، 114، 115، 119، 120، 122، 125، 126، 131، 133، 134، 142، 144، 148، 150، 151، 152، 157، 166، 178، 179، 180، 181، 183، 186، 187، 192، 194، 198، 199، 200، 204، 208.
بيرة: 171.

(ت)

تحفة ابن عاصم: 100.
تقييد في التعريف ببني عاصم: 100.
التلمساني (أبو عبدالله): 158.
تلون (حوز بسطة): 204.

(ث)

ثبت الوادي آشي: 10، 130، 137، 143، 144، 149، 160.
ثعلب (النحوي): 230.

(ج)

الجاحظ: 126.
الجابري الزليجي: 143.
جبل الفتح (جبل طارق): 166، 199، 170، 171، 174، 175.

جذام: 158.
جزيرة الأندلس: 107.
الجزيرة (جزيرة الأندلس): 98.
الجعدالّه (القاضي): 16، 42، 141، 143.
جلق: 18.
جنان رومة (بسطة): 19، 49.
جنة الرضى لابن عاصم: 10، 100، 165.
جومث دي ريبيرا: 168.

(ح)

الحامة: 183.
حامد (قائد وادي آش): 41، 43، 121، 122، 165.
حبيب (أبو تمام): 152.
الحداد المهدوي: 93.
الحريري: 67.
حسّان بن ثابت: 158.
الحسن (ولد الشاعر البسطي): 45.
الحسين (ولده كذلك): 45.
حصن الشطنين: 153.
حصن اللقون: 166، 167، 174، 175.
الحميري (ابن عبد المنعم): 17.
حمة صالحة: 90، 94.
حوران: 208.

(خ)

خراسان: 158.
خزانة تامكروت: 10.
الخزانة العامة بالرباط: 10.
خشقدم (السلطان): 168.
خطرة الطيف لابن الخطيب: 18.
خليل (المالكي): 189.
الخليل بن أحمد: 23.
خوان توريس فونتس: 184.
خوان دي قزمان: 171.

(د)

دار الصناعة بمالقة: 139.
الداني المقرىء: 23.
الدسوقي: 189، 191.
ديوان يوسف الثالث: 10.
ديوان القيسي: 10.

(ر)

راشيل أربيه: 161.
الرحبة (بسطة): 152.
رحلة عبد الباسط المصري: 10، 161.
رحلة القلصادي: 10، 13، 18، 96.
رسالة ابن أبي زيد القيرواني: 22، 232.
رسالة التنبيه والإرشاد: 39.
روضة الأعلام لابن الأزرق: 128، 129، 130.
الروض الأريض: 15، 100، 101، 128، 233.
الروض المنظور، في أوصاف بني منظور: 136.

(ز)

الزجالي (أبو يحيى القرطبي): 155.

(س)

سان باتريس: 173.

سجلماسة: 120.
سعد بن محمد النصري: 120، 168.
سعدون (اسم غلام): 219، 220.
سعيد بن المسيب: 195.
السموأل: 88.
سوليرة: 119.
سيبويه: 23.
سيكودي لوثينا: 10، 16، 161، 201.

(ش)

الشاطبي: 72.
الشام: 208.
الشامل لبهرام: 232.
الشران (أبو عبدالله): 132.
شرح البردة للأليري: 114.
شرح تحفة ابن عاصم (لولده): 100، 114.
شعبان الغزي: 17.
شفاء العليل لابن الأزرق: 129، 130.
شكيب أرسلان: 9، 171.
شوجر (حوز بسطة): 85.

(ص)

الصابي: 137.
صحاح اللغة: 68، 147.
صحيح مسلم: 195.
الصيب والجهام: 68.

(ض)

الضوء اللامع: 96.

(ط)

طلياطة: 177.

عائشة بنت ابن مفضل: 194.
عائشة بنت محمد بن غادر: 193.
العبادي (أحمد مختار): 49.
العباس بن علي بن حميد: 171.
عبد الباسط بن خليل: 10، 132، 148.
عبدالرحمن الفاسي (من أصدقاء البسطي): 224.
عبد العزيز المالقي (صديق للبسطي): 139، 140.
عبد الكريم القيسي: 10، 13، 48.
عبد الله بن عمران (شيخ الغزاة): 115، 118، 120، 166.
عبد الملك (خطاط بسطي): 155، 156.
العبدوسي (عبدالله): 76.
عدوة الأندلس: 120.
عفص: 177.
العقيلي (محمد العربي): 190، 233.
علي بن داوود الوادي آشي: 16، 42، 144.
علي بن محمد بن فرج: 228.
علي بن موسى القرباقي: 194، 200، 230.
عمر (الفقيه الزجال): 140، 233.
عين قنولش: 19، 49.

(غ)

غرناطة: 9، 10، 18، 27، 42، 43، 44، 45، 58، 85، 91، 92، 97، 99، 100، 101، 120، 125، 131، 132، 134، 136، 141، 142، 148، 157، 166، 171، 173، 179، 180، 183، 185، 190، 204 209، 211، 216، 231.
غليرة (حوز بسطة): 70، 179.

غمارة: 122، 171.
الغوطة: 208.

(ف)

الفازازي (أبو زيد): 176.
الفاسي (محمد العابد): 48.
فاطمة (محبوبة الشاعر): 216.
فاطمة بنت أبي الحسن القرباقي: 194.
الفالي (أبو الحسن): 93.
فحص بسطة: 90.
فخاردو (بيدرو): 171.
فردناند: 43.
فرناندو دي لا كرانخا: 164.
الفنشي (القائد): 159.

(ق)

القاضي الشريف: 148.
قسطلة: 225 (اسم امرأة).
قشتالة: 134.
القلصادي: 12، 13، 18، 22، 23، 42، 85، 159، 148، 185.
قلعتا مالقة: 140.
قنالش: 85 (انظر عين قنولش).
قولية: 119.
قولر: 171.
قومس قبرة: 119.
قيجاطة: 177.
قيراطة: 206، 225.

(ك)

كائنة لورقة: 99، 166، 171، 172.
كتاب الفصيح: 230.

(ل)

لخم: 158.
لورقة: 99، 172.
لوشة: 177، 183.

(م)

المازري: 195.
مالقة: 122، 134، 135، 137، 138، 139، 140، 144، 166.
المامون (أبو العلاء الموحّد): 177.
مجلة العربي الكويتية، 10.
محمد بن أحمد بن منصور: 10.
محمد بن أحمد القيسي: 16.
محمد بن سعد (الزغل): 142.
محمد بن عبد الكريم البسطي: 11، 13، 48.
محمد بن عبد الملك القيسي المنتوري: 16.
محمد الخامس (النصري): 120.
محمد بن عثمان (الأحنف): 115، 116، 122، 165، 171، 178، 179.
محمد بن علي القيسي: 16.
محمد بن مالك الأليري: 16، 21، 58، 110، 112، 113، 114، 150.
محمد بن معن (قاضٍ بسطي): 150.
محمد بن المغربي: 196.
محمد بن نصر (الأيسر): 97، 100، 116، 171، 178.
محمد (بو عبدل): 99، 142، 147.
محمود مكي: 10، 27، 128.

المدونة: 190.
مدينة شذونة: 171.
مرج غرناطة: 183.
مرسية: 171، 173.
المرية: 16، 95، 108، 116، 147، 148، 171، 178.
مرينة: 204.
مزية المرية لابن خاتمة: 16.
مسائل ابن رشد: 192.
المسجد الحرام: 92.
مسينة (حوز بسطة): 204.
مشكاة الأنوار: 108.
مظهر النور الباصر: 10، 107، 161.
المعجب للمراكشي: 17.
المعني (أحمد بن محمد): 164.
معيار الاختيار: 18.
المعيار للونشريسي: 72، 76، 78، 114، 142، 192، 206.
المغرب: 26، 80، 170.
مفضل (شاعر بسطي): 157.
مقدمة ابن خلدون: 185.
المنصور ابن أبي عامر: 107.
منصور الفقيه: 189.
المنكب: 95، 110، 111، 209.
المنية (بسطة): 19، 49.
الموافقات للشاطبي: 72.
المواق (أبو عبدالله): 71، 72، 73.
المولى علي الشريف: 120.
موللر (مستشرق): 9.

(ن)

الناصري (مؤلف الاستقصا): 120.
نبذة العصر: 153.
نجيطة (حوز بسطة): 204.
نفح الطيب: 9، 100، 119.
نيل الإبتهاج: 96، 100، 114، 153.

(هـ)

هارولد ليفرمور: 192.

(و)

وادي آش: 95، 122، 125، 144، 147، 166، 168.
الوادي آشي (أحمد بن علي): 91، 137، 148، 159.
وادي المنصورة: 200.
وثائق ابن سلمون: 80، 201، 232.
وثائق عربية غرناطية: 28، 148، 152، 157، 161، 175، 193، 194، 198.
الونشريسي (صاحب المعيار): 72، 73، 76.

(ي)

يعقوب بن عبد الحق (السلطان المريني): 122.
اليفرني (مؤلف النزهة): 120.
يوسف (أبو الحجاج النصري): 120.
يوسف الثالث النصري: 104، 173.
يتيمة الدهر: 129، 135.

دار الغرب الإسلامي / الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) ــ الحمراء ــ بناية الأسود
تلفون : 340131 - 340132 ــ ص.ب. 113-5787 بيروت ــ لبنان

الرقم 1985/4/1000/59

التنضيد: كومبيوتايب الصف الطباعي الإلكتروني

الطباعة: مؤسسة نزيه كركي

المحتويات

تقديم 7
الفصل الأول: من هو البسطي 9
الفصل الثاني: كفاحه في سبيل العيش 51
الفصل الثالث: صلاته بمعاصريه 95
الفصل الرابع: غيرته على الدين والوطن 165
الفصل الخامس: حالة الخطط الدينية والاجتماعية في عصره ... 185
الفصل السادس: بين الجدّ والهزل 215
خاتمة: قيمة ديوانه 229

Este libro es una lectura documentada de un diwân manuscrito unico en su género. Se trata del diwân de al-bastî, último poeta de al-andalus, el cual vivio en el siglo quince y fué testigo de los acontecimientos de la caida del reino de Granada.

Se parece mucho a unas Memorias y su valor es polifacético. Es un documento histórico que descubre aspectos desconocidos del fin de la época musulmana en al-Andalus, siendo un espejo que refleja la vida social de Baza en particulas y la del reino de Granada en general. Tambien es un documento literario que evidencia el nivel de la poesia árabe que se queda viva hasta la caîda de Granada. En resumidas cuentas, es en árabe una version única de los hechos que solo se conocen hasta hoy muy poco y á traves de su version en castellano.

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com
lisanerab.com
رابط بديل

AL-BASTI

EL ULTIMO POETA DE AL-ANDALUS

POR

MUHAMMED BEN CHRIFA

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI

PUBLISHING - PRINTING - DISTRIBUTION

MUHAMMED BEN CHRIFA

AL-BASTI

EL ULTIMO POETA DE AL-ANDALUS

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI